

فرح أنطون

حياته - أدبه - مقتطفات من آثاره

مكتبة صادر
بيروت

892.79



SPC
PJ

1874

1875

1876

1877

فرح أنطون

حياته - أدبه - مقتطفات من آثاره

٢٤



حي الناصرة
فريبورخ
سويسرا

مكتبة صادر
بيروت

892.73

شهادة



مكتبة
جامعة
بيرزيت

مطبعة المناهل : ٥١ - ١٩٥٠



فرح انطون

١٨٧٤ - ١٩٢٢

كان في الثانية عشرة من عمره عندما دخل مدرسة بكفتين يتلقى فيها العلم ، وهي مدرسة للروم الارثوذكس بقضاء الكورة في دير فوق طرابلس . وكانت يومئذ على جانب من الرقي والازدهار ، تعلم العلوم والآداب والفقهاء الاسلامي ، واللغات العربية والتركية والفرنسية والانكليزية . ومع انها مدرسة طائفية ، فلم تصطبغ بها اسرتها التعليمية ، بل كانت خليطاً لا ينتمي الى طائفة واحدة ، فالرئيس بروتستنتي ، والمدير والناظر مارونيان ، واستاذ العربية والفقهاء مسلم ، ولم يكن فيها سوى معلم ارثوذكسي واحد ، كما نخبرنا فرح انطون في مجلته « الجامعة » . فأقبل اليها الطلاب على اختلاف النحل ، تسودهم الالفه والمودة ، فتركت هذه المدرسة المختلطة أثراً بليغاً في نفسه لبعدها عن التعصب الديني ، ويقول في ذلك : « وانما الأثر الذي اشرت اليه ، اثر ادبي لم يبرح نفسي قط ، ولعله كان ذا تأثير على أفكارني في كل حياتي . » اهـ



ولزم الفتى الناشئ هذه المدرسة الى السنة السادسة عشرة
من عمره ، فأتقن فيها العربية والفرنسية وطرفاً صالحاً من
العلوم ؛ وكان لا يميل الى الانكليزية ، فأعرض عنها ، وسخر
برفاقه الذين يعنون بها دون الفرنسية ، الا انه ندم على تنكره
لها ، بعدما سافر الى الولايات المتحدة ، وشعر بالحاجة الملحة اليها .
وكان شديد الشغف بالآداب الفرنسية ، فأكب على مطالعة
مصنفات أعلامها ، منهوماً لا يشبع ، وجليداً لا يهي له صبر ،
أو يعتريه ملل ، فكان من اكثر الادباء حباً للقراءة ، كما يشهد
على ذلك الكتب المتنوعة التي نقلها الى العربية او لخصها ، أو
بحث فيها دارساً منتقداً . ونحبرنا عن نفسه انه صرف عمره في
درس الفرنسية ، وقرأ فيها ما لا يقرأه غيره في مائة سنة .

ولم تقتصر مطالعاته فيها على ما انتجه ابناءؤها ، بل شملت
جانباً مما نقل اليها من آداب الالمان والانكليز والروس فكانت
له ثقافة غربية متسعة اضافها الى ثقافته العربية والشرقية . وهي
في جوهرها عقلية اكثر منها أدبية ، فقد كان ينزع الى حياة
الفكر ، فيعنى بالفلسفة والتاريخ والاجتماع والدين ، وان لم
يهمل الادب والفن ولا سيما القصص والتمثيل .

على ان هذه الثقافة المأخوذة من مطالعات سريعة غير
متتدة ، فوضوية غير منتظمة ، متنوعة غير محدودة ، مفرطة غير



معتدلة ، لا يسهل ، في الغالب ، هضمها على ملتهمها ، فتحدث له
اضطراباً في الحفظ وارتجاجاً في التفكير ، لا يقدر معها على
التأمل الصحيح ، لبني رأياً ثابتاً بعد التدقيق والتجسس .
فيصبح عرضة للتأثرات الطارئة عليه من كل كتاب يقرأه ، أو
مذهب ينتهي إليه .

وهذا ما نجده عند فرح انطون في ابجائه وقصصه ، فقد كان
مأثراً بروح الثورة الفرنسية ، على ما فيها من حسن وقبح ،
يلذ له ان يشاكس رجال الدين وأرباب الأموال ، وينادي
بالمساواة وحرية الفكر وحقوق الانسان ، ولكنه لا يتنكر
لسنة تنازع البقاء ، والانتخاب الطبيعي ، وسيادة الافضل .
ويكتب عن ابن رشد معجباً بأرائه في ازالة المادة ، ملخصاً اقوال
رينان فيه ، ويتطرق الى بحث ديني جعل الشيخ محمداً عبده
ي ناظره ويرد عليه . وكان ، مع ذلك ، يميل الى رأي الغزالي في
فصل الدين عن الفلسفة ، لأن الدين ينبجس من القلب ، والفلسفة
من العقل . ولخص تاريخ المسيح واعمال الرسل لرينان ، ونحس
له كثيراً وانتحل مذهبه في انكار المعجزات دون ان يحاول
درسه ونقده ليتبين له الصحيح من الفاسد ، على انه لم يكن
معطلاً للدين ، في حقيقته الالهية ، ولا واقعاً في الجحود المطلق ،
ويؤثر الاشتراكية الانجيلية على الاشتراكية المادية .

ومثل هذا الاضطراب نجده في قصته «العالم الجديد او مريم المجدلية»، فان خطبة شيشرون مستوحاة من مذهب نيتشه في ائتلاف الضعيف، وتحقير الرحمة، وتعظيم القوة والصراع. وخطبة مريم في الرد عليه ترمي الى تحطيم هذا المذهب؛ وتدعو الى رحمة الضعيف كما يدعو اليها الدين.

وله قصيدة عنوانها «على جبل» نظمها في نيويورك، وجعلها بين نيتشه وتولستوي، فذكر أقوال الفيلسوف الالماني في نبذ الشرائع الدينية، وتغليب القوي على الضعيف، ولكنه احتس منها بقوله:

هذا كلام نيتش ان نيتش كا
ن مقوم المعوج والمناد

في زعم بعض الناس، أما مذهبي
فيه، فأبقيه الى ميعاد

ثم ذكر أقوال الفيلسوف الروسي في نقض آراء معطّل الشرائع، وقاتل الرحمة، حتى اذا سكّت الفيلسوفان لم يستفد صاحبنا منهما الا التحير والارتجاج:

لم تستفد غير التحير منهما
فجميعها أمسى أبا مرقال

وكذلك قصة الدين والعلم والمال ، حاول أن يشرح فيها
المشكلة الاجتماعية بين العمال واصحاب رؤوس المال ، فبنى لها
ثلاث مدن متجاورة تتجادل وتتخاصم وتتشائم ، فلم يجد وسيلة
للتوفيق بينها ، فدمرها كلها وتركها خراباً .

كان فرح انطون وافر الذكاء ، متقد الخاطر ، واسع الاطلاع
على مذاهب روسو ورينان وفولتر وكونت ، وداروين ونيتشه
وماركس وتولستوي وابن رشد وابن طفيل والغزالي وعمر
الحيام وسواهم ، فنقل من مصنفاتهم ، ولخص آراءهم وحللها ،
وأحبها كلها وأشاد بذكرها ، وأراد الاصلاح والحرية والخير
للانسان ، ولكنه اضطرب في آرائه ، وارتج عليه ، فلم يقيم
له مذهب شخصي ، ولا نظام فلسفي مترابط ، مع ميله الى
الحياة الفكرية . واتسع نشاطه الأدبي الى القصص والمسرحيات ،
تصنيفاً وترجمة ، وتشبه بكتاب الفرنجة والروس فجعل ما
صنّفه منها وسيلة لبث آرائه الدينية والاجتماعية . فغلبت عليه
الخطب والمواعظ والمجادلات ، فضعفت في قصصه الميزة
الادبية والفنية .

ولغته سهلة غير متكلفة ، لا يعنى باختيار ألفاظها وحسن
تنزيلها ، فهي أشبه بلغة الجرائد ، وكان يؤثر هذا الاسلوب في
الكتابة ويدعو اليه ، ويتنكر لتجميل العبارة وتنخلها ، ولعل

مرد ذلك الى شغفه بالثقافة العقلية ، ثم الى سرعته في العمل ،
وكثرة اشتغاله بالتأليف والنقل وتحرير «الجامعة» ، فلم تنحسر له
أسرار الالفاظ كما انحسرت له اسرار المعاني ، وفاته ملكة
التعبير ، فلم يدرك جماله كما ادرك جمال التفكير .

وظل يتعهد مجلته «الجامعة» في الاسكندرية حيناً وفي الولايات
المتحدة آخر ، ويعالج الأبحاث الاشتراكية تصنيفاً وترجمة ،
ويتوفر على القصص والتمثيل ، حتى تهدمت بنيته وانهارت قواه ؛
ونحبرنا عن نفسه فيقول : « رأيت في بعض الليالي الفجر يطلع
عليّ وأنا وراء مائدة العمل . » فتوفي في مصر وهو دون الخمسين
من عمره .

بطرس البستاني

(عن مناهل الأدب العربي رقم ٢٩)

الكاتب الشرقي وحاجاته الجديدة

لكل عصر حاجات ، ولو كان العصر اليوم كعصر الهمذاني والزنجشيري وابن المقفع والمتنبي لما كان لاحد ان يذكر للكتاب حاجات جديدة . فان الهمذاني كان يزور خراسان مثلاً فينشد بضعة ابيات ويكتب بضع رسائل فيعود ممثلياً الى الاردان . والمتنبي كان يقول قصيدة واحدة فيعطى من اجلها ألف دينار . ومتى كانت سوق الأدب رائجة الى هذا الحد فذلك دليل على وجود الاتفاق التام في اذواق القائلين والسامعين .

ولو ان العصر بقي كما كان في ايام من اشرنا اليهم لجاز ان يقال لأدباء اليوم : نحدوا سابقكم واقتدوا بمتقدمكم . وحينئذ كان هذا الاقتداء امراً معقولاً مقبولاً . ولكن العصر قد تغير من حسن الحظ ، ولم يعد المقصود من الأدب وصناعته مدح الملوك والأمراء او العظماء ، بل صار يُقصد به امر أسمى من هذا كثيراً ، ونريد بذلك تكوين الامم وتكبير نفوسها وانهاض ضعفاها وترقية شؤونها .

كان المتنبي لا ينظم شعره الا لمدوحه ولطبقة الشعراء



والتأديبين . وكان يظن ان هؤلاء الشعراء والتأديبين هم الدنيا كلها بدليل قوله : اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشداً . مع ان هؤلاء الشعراء والتأديبين كانوا جزءاً صغيراً من الأمة . اما اليوم فالكاتب المصري عليه ان يكتب لمجموع الأمة كباراً وصغاراً ، اغنياء وفقراء ، رجالاً ونساءً ، تجاراً وصناعاً ، وزراعاً وادباء . اي ان الادب والعلم افلتا من قيدهما القديم الذي كان يحصرهما في طبقة واحدة لغرض التسلية والطرب واندفع نحو جميع الطبقات لاغراض عمومية يقصد بها فوائد ادبية وعملية . فنتج عن ذلك ان رواج الأدب لم يعد متوقفاً على طرب اهير كسيف الدولة ولا على جود الملوك والخلفاء ، بل على تأثير اقوال الكاتب في الجمهور الذي صار السيد الحقيقي على الأدب والادباء . فوظيفة الكاتب اذاً ان يحسن التأثير في نفوس هذا الجمهور .

وان قيل ان الملوك والأمراء قد يؤثرون اعظم تأثير في ترويج الادب لمساعدتهم اهله ، فنجيب ان هذا القول صحيح متى كانوا يقصدون بمساعدتهم لهم مجرد انماء مواهبهم لتنتفع الأمة بها . ولكن اذا كانوا يقصدون بذلك تقييد تلك المواهب بهم تمسح نور مجدها عليهم وعلى اعمالهم بالمدح والثناء فان الحال تتغير تغيراً عظيماً خصوصاً متى كانت مصلحة الملك مخالفة لمصلحة



الأمة . ذلك ان صاحب تلك المواهب لم يعط مواهبه من الله
ليجعلها وقفاً لفرد واحد ولو كان ملكاً بل اعطىها ليعلم بها
جميع بني جنسه . فاذا خطر له وقفها على واحد او جماعة او
طائفة او مذهب دون غيره فانه بذلك ينقض العهد الذي اعطاه
على نفسه وهو في بطن امه حين اخذ تلك المواهب عن طريق
الطبيعة من يد العناية الالهية . وحينئذ يقع بين نارين : اما دوس
مصلحة الامة من اجل مصلحة ملكها ، واما ترك الملك وقيوده
الذهبية مختاراً عليها معيشة الفقر والحرية مع الامة . ولا ريب
في ان اولئك الكتّاب والشعراء المتقدمين الذين كانوا يتزاحمون
على ابواب الخلفاء والامراء ويتنافسون في اطراء بمدوحهم
ووضعهم احياناً في مرتبة الآلهة ليستدروا منهم ألوف الدراهم
والدنانير - تلك الأموال التي كانت مأخوذة من دماء الشعوب
والأمم بطرق مختلفة - لو علموا انهم وجدوا لمساعدة الشعوب
والأمم لا لمساعدة ملوكها على ابتزاز أموالها ومشاركتهم بعد
ذلك فيها بطرق تشبه طرق الشحاذة اعلموا انهم اضاعوا مواهبهم
في غير وجوهها ولم يأكلوا مالاً حلالاً .

ومتى ثبت ان اول اغراض الادب والعلم ترقية الأمم
وانهاض الشعوب ترتب علينا ان نعلم حاجات الكتّاب الشرقي
الجديدة في هذا العصر .

الحاجة الاولى : وعندنا ان اولى حاجات الكاتب الجرأة
والحرية، ونريد بذلك حرية الفكر والنشر . وتحت الحرية تدخل
فضائل كثيرة . فانه متى كان الكاتب يكتب بحرية واستقلال
فكر فانه يكون صادقاً منصفاً عادلاً قليل الشذوذ والشروء .
ويشترط في ذلك ان تكون الحرية مطلقة في اقواله لا ان
يتكلم بحرية في هذا الموضوع لان الحرية فيه موافقة لمصلحته ،
ويداهن ويصانع في ذاك لان الحرية فيه مخالفة لمصلحته . وكل
انسان يعذر الكاتب الذي يعيش في بلاد اقلامها مقيدة اذا لم
يتجاوز في كتابته حد المداراة القانونية، ولكن ما عذر الكاتب
الذي يعيش في بلاد اقلامها مطلقة ؟ لا عذر له غير المصلحة ،
فمصلحته هي التي تمنعه من ان يقول الحق الذي يفكر به
وتجبره على مدح ما يستحق الذم وذم ما يستحق المدح، وحينئذ
يخرج عن دائرة الوظيفة الحقيقية التي توجد لها الصحافة وتثقف
لها الأعلام . ولسنا ننكر ان هذه الحالة شائعة في كل العالم لانها
حالة عمومية، اذ كل انسان يطلب تأييد مصلحته قبل كل شيء،
ولذلك كانت اكثر صحافة اوروبا نفسها مبنية على المصلحة .
قال احد كتّابهم في الشهر الماضي : ان جرائمنا صارت عبارة
عن وباء حقيقي . فان المدح والذم يكالان فيها بلا عدل . وقد
قتلوا الانتقاد الصحيح المبني على الصدق وحرية الفكر ووضعوا



في مكانه اوراقاً يرسلها المؤلفون واصحاب الكتب . فاذا قرأت
النتقاد كتاب فاعلم ان اكثره مكتوب بقلم المؤلف نفسه او بقلم
صديق له . نقول ولكن اذا كان في الغرب جرائد هذه حالها
ففيه ايضاً جرائد كالنيمس والطان وبرانو تاجبلاط لا يمكن ان
يلحقها شيء من هذا الغبار . فنحن نرجو ان تقوى في الشرق
صحافة جديدة مستقلة كهذه الصحافة لتخرج من الدائرة التجارية
المحضة الى الدائرة الصحافية الحقيقية . ويلوح لنا ان ذلك لا بد
منه والا بطل كل تأثير لها في القراء لان الاقوال لا تؤثر الا
متى كانت خارجة من القلب والضمير .

الحاجة الثانية : ورب قائل يقول : ماذا يحل بالافكار في
الشرق اذا كان كل كاتب فيه يبسط آراءه بكل حرية دون
مراعاة ما هو معروف من تعدد العناصر ؟ فنجيب : لا يحل
بالافكار سوء لان التساهل كالماء يخمد كل حدة وكل نزق .
فالحاجة الثانية التساهل . وليس المراد بالتساهل ان يكون ما
يكتبه الكاتب موافقاً لكل الآراء وكل العناصر وكل المذاهب .
كلا . فان هذا التساهل يفني قوى الكاتب ويذهب بتعبه ادراج
الرياح ويشوّه الحقائق افبح تشويه . ولقد سمعنا مرة بعضهم
يقول : ان موقف الكاتب الشرقي صعب جداً في هذا العصر ،
لانه يكتب للمصري والشامي والجزائري والتونسي والهندي

والفارسي والافغاني والقوقازي الخ. الخ. ولذلك يجب عليه ان لا يكتب الا ما يرضي الجميع. فضحكنا عند سماعنا هذا الكلام وقلنا: ان وظيفة الكاتب اسعى من ذلك بكثير. اجل ليست وظيفة الكاتب بتر الحقيقة هنا وتمويه الكلام هناك ارضاء لهذا أو ذاك. بل وظيفته ان يقول الحق وينطق بالصدق في اي جانب كان. لكن يشترط عليه في ذلك شرط لا بد منه، وهو ان يترك دائماً للقارىء الحكم في المسائل التي يبسطها، لان القارىء قلما يحب ان تضغط عليه لتقنعه. واذا كنت تطلب منه التساهل فيجب عليك ان تعلمه ذلك بالقدوة، اي ان تكون متساهلاً في آرائك، لان القدوة خير المعلمين. اذن لا تضع آراءك واقتوالك في منزلة الحق الابدي الذي لا يجوز لاحد مسه، فان لكل انسان نظراً ومذهباً في الأمور. ومتى احتكت هذه المذاهب والآراء بعضها ببعض فلا يبقى منها مع الوقت الا افضلها. وهذه هي الطريقة الوحيدة لنشر الحقائق والمبادئ اشراً فعلياً بين الناس وترقية العقول عن الأشياء المألوفة الراسخة في النفوس بحكم العادة. وكن على ثقة من ان كل العناصر التي ذكرتها تقرأ اقوالك ولا تستاء منها اذا راعيت هذا الشرط ولو وجدت فيها ما يسوء لانها تعلم انك لا تقصد بها سوءاً ولا سيطرة على عقولها فيما تكتب وانما تقصد بسط الآراء والمبادئ بعضها بجانب بعض طلباً للحقيقة في اي جانب كانت.



الحاجة الثالثة : والحاجة الثالثة ان يحب الكاتب صناعته ويولع بها ويطلبها لذاتها . ولا بد هنا من اعتراض قوي وهو ان جميع الكتاب في كل البلدان يحبون صناعتهم و كثير منهم لا يحبون منها فائدة كبيرة ومع ذلك تراهم متعلقين بها . فالجواب ان هنا إشكالاً يجب ازالته . اذ شتان بين من يولع بشيء لانه عمله الذي خالق له وبين من يريد ان يجعله عمله قسراً ويرغم طبيعته به ميلاً الى جماله وجلاله . وهذا الخطر موجود في كل مكان لا في الشرق فقط . وقد وضع المسيو بونيه الفرنسي منذ بضعة اشهر كتاباً سماه : خطر صناعة القلم او ثلاثة من عائلة لكران ، اثبت فيه ان ألوفاً من الأدباء يتهافون في كل عام على صناعة القلم في فرنسا وتسوء حالهم لانهم قهروا طبيعتهم قهراً على عمل لم يكونوا من رجاله ، وانما جذبوا اليه بجاذب جماله .

وانما اردنا بحب الكاتب صناعته وطلبها لذاتها مقاومة دائمة شديدي الفتك . الداء الأول : يأس كثيرين من الكتاب من صناعة الادب في الشرق ، ولذلك يولولون عليها ويقيمون المآثم حزناً لموتها . وهذا الأمر يسبب ضررين : الأول الخط من كرامة الأدب لدى قرائه ، والثاني ازالة الثقة من نفوس أولئك الكتاب ، ومتى زالت من نفس الكاتب ثقته في نفسه وفي صناعته فقد

قضى على نفسه وعلى صناعته وعلى قرائه ولم يعد يقدر ان يصنع
 شيئاً مفيداً . فالأجدز به في هذه الحالة ان يترك القلم بسكون
 وهدوء ويطلب الرزق من باب آخر . والداء الثاني : اتخاذ
 الأدب شباكاً لصيد الذهب . وهذه آفة الأدب في الشرق .
 ولسنا بمن يجرّمون الغنى على طلاب الأدب ولكننا بمن يجرّمون
 في الأدب جعل المال في المرتبة الأولى والعلم والأدب في المرتبة
 الثانية ، لان صناعة الأدب ليست بصناعة تجارية ، ومن يريد
 معاملتها معاملة التجارة فهو غير اهل لان يكون منها . وسبب
 ذلك ان موضوع الأدب خدمة الجمهور كما تقدم . وهذه الخدمة
 تقتضي ان تعطي الجمهور من قوتك ومن نفسك اكثر مما
 يمكنك اعطاؤه . فالكاتب الذي لا يطلب صناعته لذاتها بل
 لاجرتها يكتفي في اكثر الاحيان بملء الورق بما يكون قريب
 المال اذ غرضه ربح المال . لا ابراز ارقى ما يمكنه ابرازه من
 قوى نفسه . وبذلك يصبح الجمهور مغبوناً والأدب مظلوماً
 لانه ينحط بهذه الطريقة ولا يمكن ان يترقى معها . وحينئذ
 يتساءل الناس : لماذا لا تؤثر الاقلام في النفوس ؟ مع ان السبب
 معروف محسوس . وان قيل ان التبعة في هذه الحالة واقعة
 على الجمهور لانه لا ينشط اهل العلم والأدب التنشيط الواجب
 ليسد حاجاتهم ويجعلهم يطلبون صناعتهم لذاتها ، فالجواب ان



على الجمهور تبعة عظيمة في هذا الأمر ، ولكن هذا لا يخفف
التبعة التي على الكاتب . اذ متى وجد كتاب يطلبون العلم
والأدب لذاتهما فانه يكون عندهم الفقر والغنى سريين في هذه
الصناعة ، لان الغنى الذي في النفوس لا تنقص قيمته عن الغنى
الذي في الخزائن ان لم نقل انه افضل منه .

الحاجة الرابعة : واما الحاجة الرابعة فهي مختصة بقلم
الكاتب ونريد بها تضلعه من المواضيع التي يكتب فيها .
وهذه الحاجة تقسم عندنا الى قسمين : المادة وثباسها ، اي
الأفكار والألفاظ التي يعبر بها عنها والاسلوب الذي يجري هذا
التعبير به .

اما المادة فهي تكاد تكون موجودة في كل يد ... فان
كل كاتب يكفيه لحوض ابواب السياسة والتاريخ والعلم الأدبي
والعلم الطبيعي والفلسفة ان يفتح اي جريدة اوروبية او اي
كتاب اوروبي ... وهذا من فضل اللغات الاجنبية التي تسهل
للكتاب طريق هذه العلوم التي تعب المؤلفون عشرات سنين في
سبيل تحصيلها . ولكن الحق يقال ليس الذنب في ذلك للشرقيين
بل للناموس الطبيعي ، فاننا الآن في عصر يسميه علماء العمران :
عصر القروء ، يريدون به عصر التشبه بالغير والتقليد . واذا
ساعدت الأحوال المعارف الشرقية فانها ستنقل ان شاء الله من



طور الاتباع الى طور الابتداع وحينئذ ينبغي في الشرق
المتكبرون والمخترعون ، ولا نعود نرى المعارف الشرقية عبارة
عن نسخة من المعارف الاوروبية وصدى لمجلاتها وجرائدها
العلمية والسياسية . بل يكون الباحث في الكيمياء معتمداً في
بحثه على معلمه لا على مجلته ، والباحث في التاريخ معتمداً على
سياحاته لدروس الآثار في اماكنها الاصلية لا على الكتب
والارفاق وهم جراً . وربما وصل الشرق الى هذا الزمن بعد
قرن او نصف قرن اذا ساعدته الأحوال وكثر قراء اللغة
العربية فيه كثرة تمكن احد الكتاب من التفرغ لكتابة كتاب
واحد في عامين او ثلاثة . اي ان الكاتب يستفيد من كتابه
هذا بعد كتابته ونشره فائدة مالية تكفيء اتعابه ونفقاته .

وبما ان المادة صارت اليوم موجودة في كل يد كما تقدم
فقد صار الفضل والصعوبة في الاسلوب الذي تبرز به . ورب
مادة يُعطاهما كاتبان فيصنع احدهما منها فصلاً ترقص له عجائز
واثل ويصنع الآخر منها فصلاً لا يقرأه احد . وهنا مذهبان
مختلفان يتنازعان الكتاب في كل أمة تقريباً : المذهب الاول
مذهب الذين يعتمدون على قواعد السلف واصولهم في الكتابة
والتأليف فلا يخرجون عنها قيد اصبع . والمذهب الثاني مذهب
الذين يحكمون عقولهم وافهامهم في جميع شؤونهم ويكرهون



التقليد اذا لم يكن في محله ويرومون ان يكتبوا كما يشعرون .
وعندنا هذين الفريقين كلمة تدل عليهما احسن دلالة ، وهي ان
الفريق الاول يهتم بالالفاظ قبل اهتمامه بالمعاني ، والفريق الثاني
يهتم بالمعاني قبل اهتمامه بالالفاظ .

ومهما صرخ انصار المذهب الاول فان مذهبهم آخذ في
الانقراض ، لان تلك الاسجاع الضخمة والالفاظ المنتفخة كأنها
الهرج يحمي الأسد قد نبتت في المعد ، وصارت في كل يد ، كما قال
الهمداني رحمه الله . واذا قابلت بين اسلوب الكتابة العربية
منذ ٣٠ سنة وبين اسلوبها اليوم رأيت الفرق بين الاسلوبيين .
وان قيل انه قد بقي الى اليوم شيء من تلك الاسجاع والالفاظ
المتراصة والتعابير الخطابية التي تسرد منها سطرين او ثلاثة ولا
يكون تحتها الا فكر واحد - كأنها صيرة طمس - نقول ما
ذلك الا لأن لهذا الاسلوب أصلاً مكيناً في نفس اللغة العربية ،
وهذا الأصل لا يموت وينقرض تماماً الا بانقراض طلابه . ولكنه
الآن يموت شيئاً فشيئاً ، ولا امل باحيائه الا بطريقة واحدة .
وهذه الطريقة يرضى بها حتى اصحاب المذهب الثاني . وهي ان
يعود مؤسسو ذلك الأصل من قبورهم الابدية ويكتبوا لنا مثل
كتاباتهم الماضية ، فحينئذ نقبل منهم ذلك بكل سرور ورضى
لان كتابتهم ارقى ما يتصور الانسان كتابته في هذا النوع .

وكيف اذا قام الهمداني من قبره وكتب شيئاً من رسائله
يكننا ان نقول له اترك هذا فقد ذهب وقته ؟ وكيف اذا قام
ابن المقفع بلغته السهلة البليغة المفهومة لعرب عن الهندية كتاباً
آخر ككلمة ودمنة يمكننا ان نقول له عربه بلغة الكتابة
العصرية لا بلغتك ؟ كلا . اننا لا نقول لهما ذلك ، وانما نقوله
بلا تردد للذين يحاولون تقليدهما في هذا العصر ولا يكون لهما
مقدرتهما . وقد قيل : بين المقلد والمقلد ما بين التكحل
والكحل . وان قيل ان الاموات لا يعودون بل ينبغي من
الاحياء من يقوم مقامهم ويبلغ منزلتهم ، فالجواب : أين الذي
يضمن لنفسه نفساً كنفسهم ثم يصرف قواها كلها عشرين سنة
او اربعين في درس كتب اللغة والأدب ليبلغ منزلتهم فيها ؟
ثم اذا كان مثل هذا الانقطاع ممكناً في الشرق الا يكون من
الجنابة على الشرق جعله للغة والالفاظ بدل جعله للعلم الحقيقي
الذي يرقى الأمم وينقلها من حال الى حال ؟

فالافكار الافكار . المعاني المعاني . هذا هو الغرض الحقيقي
من الكتابة ، لان الالفاظ ليست سوى لباس او قشور للمعاني .
بقي الاسلوب الذي هو صلة بين الالفاظ وبين المعاني لانه قالها
الذي تسبك به . وفي ذلك نقول .

قال بعضهم : ان انشاء الانسان هو الانسان نفسه . يعني



بذلك ان كتابته تدل عليه لانها صادرة عن نفسه . وعلى ذلك
 يكون اسلوب الانسان في الكتابة على نوعين : اكتسابي
 وغريزي . فالاسلوب الاكتسابي ما حصله الانسان بكد الخاطر
 وتهذيب النفس ومعرفة الأصول ومطالعة اشهر المؤلفين .
 والاسلوب الغريزي ما يكون مغروساً في فطرة النفس وهذا
 لا يُشترى ولا يُباع ولا يُحصَّل لانه ملازم للنفس . وقد قال
 يوفون وغيره : ان قرائح النوابيع تنشأ عن الصبر والكد
 والمزاولة . وهو قول صحيح من بعض الوجوه خصوصاً في
 العلوم الطبيعية التي تقتضي من علمائها والمخترعين فيها الكد
 والصبر والجلد الشديد . وهذا نيوتن وباستور خير مثال على
 ذلك . ولكن العلوم الأدبية والفلسفية تختلف عن العلوم
 الطبيعية . ربما ان العمدة في تلك العلوم الأدبية والفلسفية على
 التأثير في النفوس فالواجب ان يكون اسلوبها اللطيف اول
 اسلحتها . وماذا كان عمل روسو وبرناردن دي سان بيير
 ورسكن ورينان وغيرهم لو لم تكن فطرتهم مسلحة بذلك السلاح
 اللطيف الذي كان يهز النفوس كما تهز الزوابع باسق الاشجار ؟
 فعلمنا في الشرق ان نذكر اننا محرومون تلك اللذة الحقيقية
 التي تتناجى بها نفوس القراء والكاتب لاستطاعته تحريكها من
 اعماقها . ولا نلقين التبعة في ذلك على القراء بل على الكتاب وان

كان لهم بعض الاعذار . لان اشجار الحدائق اذا بقيت ساكنة
ولم تتحرك فالذنب للريح لانها لم تهب لتحركها .

ولكننا نرى ان هذه الريح محال ان تهب لتحريك الاشجار
اذا لم تطلق اللغة العربية من اسر الاهتمام بالالفاظ والسجع
والمترادفات وتحمدي المتقدمين ويقدم عليها الاهتمام بالمعاني
المقصود ابلاغها الى فهم القارىء . ذلك لان الانسان لا يستطيع
ان يعبر عن العواطف المختلفة التي تختلج في نفسه اذا كان يتعود
صرف فواه حين الكتابة الى الالفاظ لا الى تلك المعاني . الا
ترى الكاتب اذا تكلم بلغته العامية اندفع اندفاع السيل وبرز
بكل سهولة صوراً جميلة من المعاني كانت تجول في نفسه ؟
ولكن اطلب منه ان يبرز تلك الصور الجميلة باللغة الفصحى
ملتوتة بالمترادفات الزائدة والألفاظ الضخمة والاسجاع الفارغة
فانه يقيم يوماً كاملاً لكتابة ما عبر عنه في ساعة واحدة بلغته
التي يتكلم فيها ، وما يكتبه يجيء بارداً . ولا تقل ان سبب
ذلك كونه لم يتعود الكتابة بلغة الهمداني والحريري . كلا .
ما من سبب لذلك سوى انه مع اللغة العامية يفكر بالمعاني فقط
ومع لغة السجع والمترادفات يفكر بالالفاظ . ولكن اخبرونا
من هو الكاتب . الكاتب كالشاعر هو الذي يشعر بالمعاني شعوراً
اشد من شعور سواه ويبرزها الى القراء بأسلوب جميل لطيف

سهل مفهوم لا بلاغها اليهم ، ويتفاضل الكتاب كما يتفاضل
 الشعراء ، اي ان افضلهم اشد هم شعوراً والطفهم احساساً .
 ولذلك قالوا ان الكتابة صناعة من صناعات النفس . وما
 الكتاب العظام الذين اقاموا بني عصرهم واقعدوهم بما كانوا
 ينشرونه بينهم سوى نفوس ادق شعوراً من باقي النفوس كانوا
 يجمعون العواطف التي تخرج في صدور بني عصرهم بوجه مبهم
 غامض ويبسطونها واضحة جليئة يتناولها القريب والبعيد لانهم
 كانوا اشد شعوراً بها . فتأملوا في هذه الوظيفة التي هي
 وظيفة الكتاب الحقيقية وقابلوها بوظيفتهم متى كان عملهم
 مقصوداً على طلب الألفاظ الغريبة من قواميس اللغة واقتناص
 التعابير البدوية والاساليب القديمة التي لم يبق ما يسوغ استعمالها
 في عصر كهذا العصر . ولا ريب عندنا ان هذا بمثابة ردم معادن
 المعاني في نفوس الكتاب وجعل اذهانهم عبارة عن مخازن
 للألفاظ فقط . وبذلك يقضى على الكتاب العربي ان تبقى
 كتابته بلا تأثير في قرائه مهما ابداع واجاد في تنسيق التعابير
 والالفاظ ، لان الالفاظ عبارة عن جماد لا يؤثر في النفس اذ
 النفس لا يؤثر فيها الا فيض المعاني الخارج من نبعها العذب .
 ولا تنس اننا قلنا في مقدمة الكلام ان وظيفة الكتاب الكتابة
 للامة لا لنفسه ولا لطبقة واحدة من طبقات الامة ، وان حسن
 التأثير شرطها الاول والفائدة العمومية اساسها الحقيقي .



انشاء الروايات العربية

كثر في السنوات الأخيرة وضع القصص العربية ، فقلما يمرُّ شهر الاً وتصدر بضع منها في البلاد التي فيها مطابع عربية . وهم يسمونها « روايات » وهذا خطأ في التسمية لان الروايات في اللغة الأحاديث المنقولة بالتواتر من فلان عن فلان عن فلان ، فيلزم ان يكون هناك راوٍ ومروي عنه وسعيد مروي . فاسمها الحقيقي اذاً قصة لانها عبارة عن احاديث ووقائع يتخيلها المؤلف ويقصها على قرائه . ولكن هذا الخطأ - اذا كان هناك خطأ - كان الأصمعي المشهور اول من وقع فيه في قصة عنتره ، فانه يقول هناك في كل صفحة تقريباً : قال الراوي . وقصة عنتره اكثرها اختراع وابتداع كما هو معلوم . والخطأ أو الاصطلاح الذي يميزه رجل كالاصمعي يجوز ان يعدّ من الصواب المقبول .

ما يلزم الرواية

على انه لو لم يكن في الروايات التي تنشر في اللغة العربية

غير هذا الخطأ الاصطلاحي الصغير لكان الخطأ هيناً . ولكن هناك ماخذ لا يصح السكوت عنها وقد كثر انتشارها . فان كل من امسك قلماً في هذه الأيام يرى نفسه قادراً على وضع رواية لان كل انسان يقدر على قص قصة وسرد حوادث يتصورها . وجميعهم يعلمون ان فن الروايات علم باصول ، ولكنهم يجرؤون مع هذا على وضع هذه الروايات لثلاثة اسباب : الاول انعدام حرية النقد او بعبارة اخرى الجهل بحقيقة هذا الفن للاقدام على نقده . والثاني اعتبار القراء في الشرق الرواية عالماً خيالياً يلهم به ساعة او نصف ساعة فلا يطلبون فيه غير قطع الوقت . والثالث قلة القراء في اللغة العربية ، فالروايات التي تظهر فيها لا يستفيد منها مؤلفوها فائدة حقيقية الا اذا كانوا اصحاب مكاتب ومطابع صناعتهم التجارة بالكتب . ولذلك قلما ترى كاتباً يجهد قريحته ويكد فكره وينضج رأيه في وضع رواية مهمة لانه يعلم ان الفائدة التي تنشأ عنها لا تعدل التعب الذي يبذل في تأليفها وطبعها ، والجمهور لا يفهم منها سوى قصتها . واذا قيل ان حافظ افندي ابراهيم الشاعر المشهور قد عرب جزءاً صغيراً من رواية الميزرابل فجنى منه على ما قال الف جنيه (٥٠٠٠ ريال) فالجواب ان ما جناه المعرب من هذه الرواية لم يكن ثمناً للرواية ولا جزاء

تعبه فيها ولكنه كان تنشيطاً له من بعض سراة المصريين الذين
دفع بعضهم ثمن النسخة الواحدة ٥٠ جنيهاً (٢٠٠ ريال)

وقد يظن بعضهم ان الروايات الموضوعية تعريباً تسم من
تلك المآخذ التي تقع في الروايات الموضوعية تأليفاً ، لأن شروط
الرواية مستوفاة في الروايات الافرنجية الكبرى وما على المعرب
الا ان ينحو نحوها وينسج برودتها العربية . والحقيقة ان بعض
الروايات الموضوعية تعريباً قد تجد فيها من التشويه وفساد
الوضع والخرق في الرأي ما لا تجد مثله احياناً في الروايات
الموضوعية تأليفاً . وسبب ذلك ان المعرب يتناول قلمه ويغير
على تلك الرواية فيمتصرف فيها حذفاً واضافةً فيقطع سلسلة
اخلاقها البسيكولوجية ويشوه طبائع اشخاصها وينقص فيها
ويزيد عليها من الحوادث ما لو رآه مؤلفها لقطع اذنه وجذع
انفه ورض ساقيه وبقر بطنه تشويهاً له وتمثيلاً به كما شوه
روايته ومثل بها . وما زلنا نذكر مباحثات كثيرين ممن شهدوا
تمثيل رواية « ابن الشعب » في مصر وقولهم في الجرائد وغير
الجرائد انهم لم يفهموا اغراض هذه الرواية ومرامي مؤلفها .
وحقهم ان يقولوا ذلك لان الذي ينظر في هذا الفن ولا يكون
من اهله لا يدرك منه سوى سياق القصة وتفردته اغراضها
الحقيقية التي بنيت الرواية عليها وكانت سبباً في انشائها .

وقبل بيان اغراض المؤلف في هذه الرواية نأتي على بيان الصفات اللازمة للروائي ليصح ان يكون ما يكتبه معدوداً في جملة الروايات الحقيقية اي عوالم خيالية تنطبق صفاتها واخلاقها على العوالم الحقيقية انطباقاً كلياً كأنها صورة لها وكأن اشخاصها اشخاصها مع زيادة في الصبغة الايديالستية فيها ليكون غرضها رفع النفوس بدل انحطاطها :

١ - قوة الاختراع : اولى تلك الصفات قوة الاختراع ، والمراد بها ان تكون مخيلة الكاتب قادرة على اختراع حوادث واخبار تجعل في الرواية فكاهة ولذة . وبهذه القوة تنشأ في الرواية المشاهد والمواقف الكبرى التي تحرك فيها العواطف والاميال والمبادئ احتكاكاً شديداً يستأثر لب القارىء . وكان ديماس رأس المبرزين في هذه القوة . الا انه يجب ان لا تتجاوز هذه القوة حد المعقول المقبول والا عدت من سقط المتاع كروايات بونسون دي ترايل . ولما سئل تولستوي منذ مدة عن رأيه في رواية غوركي « الطبقة السفلى » التي جعلت له بين كتاب اوروبا منزلة سامية اجاب انها جيدة ولكن ينقصها قوة الاختراع . ولكن كثيرين يقولون عن روايات تولستوي نفسه مثل هذا القول لانها انما تمتاز بمبادئها وآرائها وصبغتها الفطرية لا باختراع حوادثها .

٢ - قوة الحركة : والقوة الثانية « قوة الحركة » فان تلك الحوادث التي يجيد المؤلف في اختراعها اذا لم يجعلها متحركة سئم قارئها ومل قراءتها . والحركة كانت مزية ديماس الكبرى ، فانك تعرف تاريخ اشخاص روايته واخلاقهم ومزاياتهم وماضيهم وحاضرهم بما يقوله غيرهم عنهم في الرواية لا بما يقوله المؤلف نفسه . وكل من قرأ رواية لا يحفل انه يفضل قراءة مباحثات اشخاصها على قراءة تعليقات مؤلفها . والاجادة هنا هي في جعل حوادث الرواية منبئة عن اخلاق اشخاصها . وكم من مرة قرأنا فصولاً لكبار نقاد الروايات الفرنسية يقولون فيها عن فصل في احدى الروايات ان حوادثه غاية في حسن الاختراع ولكنه جامد تنقصه الحركة . وهم يعتبرونها في مقدمة شروط الروايات الجيدة .

٣ - وحدة السياق وتنوع الموضوع : والشرط الثالث في تأليف الرواية وحدة السياق وتنوع الموضوع ، والمراد بوحدة السياق رسم طريق الرواية تبتدىء في أولها وتنتهي في آخرها دون ان تخرج الرواية عنها في اثناء تقلباتها . فكأنها سلك يمدّه رجل بين طرق ضيقة وشوارع واسعة فيوغل فيها ولكن السلك في يده وهو يعرف من اين ابتداءً والى اين ينتهي . والمراد بتنوع الموضوع جعل مواضيع الرواية التي تتفرّع من



ذلك السياق متنوعة متفرعة لاجتناب ملل القارىء أولاً واستيفاء البحث في اخلاق اشخاص الرواية ثانياً . ومن اقوال الفلاسفة ان الطبيعة واحدة من حيث مادتها ونواميسها ولكنها متنوعة من حيث صوراها واشكالها . وهم يسمون هذا باسم : التنوع في الوحدة . وما يقال في الطبيعة يقال في الرواية ، لان الوحدة المقرونة بالتنوع اساس قوة كل شيء وجماله في العالم ، وبدونها تكون الحياة مضطربة مضجرة .

٤ - قوة البسيكولوجيا والسيولوجيا : يصح ان يقال ان هذه القوة اهم القوات الضرورية للرواية . ولما كانت مواضيع الرواية تشمل جميع الحوادث والحالات التي تطرأ على اشخاصها وعلى الوسط الذي يعيشون فيه كانت الرواية محتاجة الى اكثر اصناف العلوم . فهي تحتاج الى علم الطبيعة لكي تبني آراؤها ومبادئها واخلاق اشخاصها على دعامة علمية اي على النواميس الطبيعية والا كانت نسيج اوهام وتخريفات . وتحتاج الى علم تقويم البلدان : الجغرافيا ، لمعرفة البلاد التي يكتب عنها وطبائع اهلها وهوائها . وتحتاج الى علم التاريخ خصوصاً اذا كانت تاريخية . وقد تحتاج الى سائر العلوم اذا كان لمواضيعها اتصال بها . ولكنها اذا احتاجت الى جميع هذه العلوم احياناً وامكنها الاستغناء عنها جميعها احياناً فهناك علمان



لا يمكنها ان تستغني عنهما اصلاً، وهما علم البسيكولوجيا وعلم
السيولوجيا .

علم البسيكولوجيا ، او علم النفس والاخلاق ، اول شيء
يجب على الروائي الاطلاع عليه . وهو قسمان : مصنوع
ومطبوع ، اي اكتسابي وغريزي . فالبسيكولوجيا الاكتسابية
يستفيدها الكاتب من مصدرين : الاول درس كتب
البسيكولوجيا ، والثاني مراقبة الطبيعة والبشر لملاحظة اخلاقهم
واحوالهم في جميع اطوارهم . وقد كان مولير الروائي
المشهور يصرف مدة من وقته كل يوم في الجلوس في دكان حلاق
حيث يجتشد الناس عادة من طبقات مختلفة ، وهناك يراقب
اخلاقهم ويسمع احاديثهم . والبسيكولوجيا الغريزية هي قوة
غريزية تكون في نفس الدارس يقدر بها على استنباط مكنونات
النفوس واستنتاج اخلاقها وتصوير حالاتها دون ان تدري هي
بها . وهي هبة من الطبيعة لتلك النفس وان كان بعض علماء
الأخلاق يقول ان الدرس والاختبار قد يؤديان اليها . قال
بوفون العالم الطبيعي الفرنسي : ان نبوغ اعظم الرجال ناشئ
عن تعبهم وصبرهم على الدرس . قلنا هذا قول صحيح في العلوم
الطبيعية التي لا يستلزم الاكتشاف والاختراع فيها قوة نفسية
بل قوة عقلية . واقرب شاهد على ذلك باستور وسبنسر ، وقد



عدّ الفيلسوف نيتشه نفس سبنسر في جملة النفوس الاعتيادية .
ولكن علم النفس والأخلاق وعلم الادب والفنون الجميلة لا
تقاس بتلك العلوم . فإن ملتن وشكسبير وهيغو ورينان وجوت
ورانيير لولا ان الطبيعة خصتهم بنفوس كبيرة جميلة راقية
لما قدروا ان يبرزوا شيئاً مما ابرزوه في تآليفهم من آيات الجمال
والكمال ولو قطعوا اعمارهم درساً . وهل يصير غير الشاعر
شاعراً حقيقياً بمجرد الدرس وقرض الشعر ؟

فالبيكولوجيا الاكتسابية والغريزية اهم ضروريات الرواية
لأنها تصون المؤلف من الوقوع في الاغلاط الفاضحة بشأن
اخلاق الاشخاص الذين يتكلم عنهم ، وتمكنه من تصوير اخلاق
بشرية حقيقية منطبقة على اخلاق البشر في الدنيا بيكولوجياً .
وكم من مرة تصفحنا بعض الروايات التي تنشر بالعربية حتى اهمها
وأشهرها فرأينا الكاتب يصور اخلاق اشخاصه في أول الرواية
تصويراً لا ينطبق على أخلاقهم في آخرها من الجهة البيكولوجية ،
فانه مثلاً يجعل مزاج الشخص في البدء عصبياً ثم تراه في الحانة
يجعله يسلك مسلك ذي مزاج دموي محض . واغرب من هذا
انك تراه يجمع في نفس اشخاصه صفات متقابلة متناقضة تتبرأ
البيكولوجيا منها . واحياناً تراه يجعل شخصه يجيب اجوبة
لو اطلع عليها اصفر كاتب من بنيادي البيكولوجيا بعد



اطلاعه على الأخلاق التي صورها المؤلف له لقال : هذا تخريف
لا تأليف . والحوادث المستخرجة من تلك الأخلاق قلما تكون
لازمة عنها خارجة منها بحكم البسيكولوجيا وانما هي مجذوبة
جذباً لتكون نتيجة لها وما هي بنتيجة لها . وهذه العيوب
الفاضة لا تظهر في الشرق لانها لا تظهر الا لعين الناقد البصير ،
ولذلك يعجب بعض القراء السذج بتلك الروايات . ولو نشرت
في الغرب حيث يميز الجمهور بين الفاسد والصحيح لكانت في
جملة الروايات الضعيفة التي لا يلتفت اليها احد من افراد
الجمهور الراقى .

وما قلناه في البسيكولوجيا نقوله في السسيولوجيا ، اي علم
الاجتماع البشري . وهذا العلم ضروري لمؤلف الرواية لسببين :
الاول ان جميع الروايات المهمة في هذا العصر اصبح غرضها
اجتماعياً ، واذا كان الفيلسوف اوغست كونت واضع الفلسفة
الحسية او الوضعية قد اثبت ببراعة مشهورة قبل تلميذه سبنسر
ان جميع العلوم من اكبرها الى اصغرها تنتهي الى السسيولوجيا
وان السسيولوجيا هي غرض تلك العلوم فأحر بالروايات ان
يكون غرضها السسيولوجيا ايضاً ، اي البحث في حالات المجتمع
البشري لتوقيته وانماء قوائمه النافعة وافناء قوائمه المضرة .
والروايات بعد الصحف او قبلها من اهم ذرائع هذه الترقية ،

بل هي في الشرق اشد تأثيراً من الصحف في هذا الشأن ، لان
ألفاً من عامة القراء لا يقرأون الجرائد ولكنهم يقرأون
الروايات . فهنا للرواية وظيفة اجتماعية عليا دونها وظيفة جميع
الصحف والمدارس والكليات ، لانها المدرسة الأولى للشعب
الساذج الجاهل . واننا نشفق من صميم قلوبنا على هذا الشعب
حين نرى السم الزعاف المدسوس في بعض الروايات العربية
التي يقرأها .

هـ - درس هذا الفن : كما ان العالم لا يصير عالماً الا
بالدرس والبحث ، والصانع لا يصير صانعاً الا بالاكتساب على
صناعته ، فكذلك الروائي لا يصير راوياً الا بالدرس فنه .
ولكن ليس للروايات مدرسة تعلم فيها اصول هذا الفن وانما
مدرسته امران : الاول مطالعة روايات اكابر المؤلفين ،
والثاني مطالعة كتابات مشاهير نقادي الروايات .

اما الامر الأول وهو مطالعة روايات اكابر المؤلفين فظاهر
دليل على انه المدرسة الحقيقية لمؤلفي الروايات ما كتبه اسكندر
ديماس الكبير عن نفسه ، فقد قال ما خلاصته انه لما عقد النية
في شبابه على ان يكون مؤلف روايات اخذ يطالع جميع
الروايات المشهورة لأكابر المؤلفين فرنسيين وغير فرنسيين ،
فصرف وقتاً طويلاً في درسها والتأمل بها وتدبر اغراضها



ومراميتها ، فأتى عليها كلها حتى انطبعت في ذهنه اساليبها وطرقها واختلطت في فكره وقائعها ومذاهبها . وبعد ذلك شرع في الكتابة . فكتب الرواية الأولى واحرقها لعدم رضائه عنها . ثم كتب الثانية والثالثة واحرقهما ايضاً . ولما كتب الرابعة دفعها للتمثيل فكان ذا. دوي في باريس . وقد حضرها احد امراء العائلة المالكة وكان ديماس مستخدماً عنده ، فلما ذكر اسم المؤلف للجمهور نهض الأمير من مجلسه ورفع قبعته لمستخدمه ديماس اكراماً وتنشيطاً له .

فالروايات المشهورة الجيدة هي خير مدرسة لمؤلف الروايات لانها خلاصة الاختبار والعلم في هذا الفن . ولكن هذه المطالعة وحدها لا تكفي الراغب في التأليف اذا لم يكب على الأمر الثاني ، درس اقوال نقادي الروايات ، اكتبه عليها .

من تصفح الجرائد الفرنسية الكبرى وغيرها وجد فيها فصلاً مخصوصاً ينشر في كل يوم اثنين في ذيل الجريدة لأحد النقدة المشهورين وموضوعه نقد الروايات التي تمثل في خلال الاسبوع . ورب احد هؤلاء النقدة تدفع له الجريدة اجرة للمقالات الاربع في الشهر راتباً يعدل راتب وزير . وقد كان سارسي ، كبير النقاد في القرن التاسع عشر بعد سنت بوف ، يكتب في جريدة الطان ، وكان الممثلون والمؤلفون اذا رأوا في

وجهه وهو في «لوجه» دلائل الاستياء وعدم الرضى ترتعد فرائضهم خوفاً لانه كان على رأيه المعوّل . فدرس كتابات هؤلاء النقدة وغيرهم من نقدة اوروبا من أهم واجبات كاتب الروايات ، لانه يستفيد من كتاباتهم نتيجة اختبارهم هذا الفن واختبار مشاهير النقدة الذين تقدموهم فيه منذ نشأته . وقد كنا نقرأ نقد سارسي في الطان بلذة كبرى ، فلما توفي أصبحنا نقرأ نقد المسيو اميل فاكه في جريدة الديبا وهو من رجال الأكاديمي واشهر النقدة الفرنسيين اليوم . على ان كتب النقد الروائي كثيرة في اللغة الفرنسية لمن يطلبها . وهي اهم واصح من الكتب غير الفرنسية لان الفرنسيين ما زالوا متفردين في هذا الفن في اوروبا كلها .

٦ - عاطفة الجمال : والشرط السادس والأخير من شروط وضع الروايات التزام عاطفة الجمال فيها لان تأثيرها وحلاوتها متوقفان على ذلك . ويدخل في هذا امران : الأول جمال موضوعها ، والثاني جمال سبكها . اما جمال موضوعها فمتوقف على الاجادة في الصفات الخمس التي تقدم بسطها . واما جمال سبكها فالمراد به نسجها بلفظ عذب ومعنى طلي وروح جلي فيجد القارئ حين مطالعتها من الحلاوة والعذوبة ما يستأسر لبه . واذا كان الجفاف والجمود في الانشاء مما يُغتفر



في المباحث العلمية والتاريخية لان الغرض منها تقرير الحقائق
سواء كان لباسها من نضار او كان عليها اظمار فان ذلك مما لا
يُقبل في الروايات اصلاً لان العمدة في الروايات انما هي على
التأثير في نفس القارئ لجذبه الى مبادئها وشرح صدره بحلاوتها،
وهذا الجذب والتأثير لا يمان الا بعاطفة الجمال .

الروايات وانفعها لنا

بسطنا وأينا في وظيفة الروايات والشروط اللازمة لوضعها
فلا نبحث هنا فيها ، وإنما نبحث في أهم الروايات وانفعها لنا .
ومتى قلنا : أهم الروايات وانفعها لنا ، خرجت منها الروايات
التي يُقصد بها التفكير وقطع الوقت وهي التي يتجر بها أصحاب
المكاتب والمطابع الصغيرة ، وانحصر كلامنا في الروايات التي
يضعها مؤلفوها لفائدة يقصدونها . وببحثنا هنا في امرين :

الأول - ما هي الفائدة التي نحن أشد احتياجاً إليها في
الشرق ؟

والثاني - أي نوع من أنواع الروايات يوصلنا الى هذه الفائدة ؟

الامر الاول - كلنا نبحث في داء الشرقيين ودوائه . وكل
واحد منا يشخص العلة من وجه ويصف لها الدواء الذي يراه ،
فبعضهم يقول : دأؤنا السياسة . وغيره يقول : دأؤنا الرئاسة .
وآخر يقول : دأؤنا انحطاط التجارة والصناعة والزراعة وعدم
وجود قوة سياسية تحميها في داخل الأمة وفي خارجها . وغيرهم
يقول : ان دأؤنا تعدد عناصرنا ومذاهبنا واستحكام الانقسام

والبغض في نفوسنا. وآخر يقول: لا بل داؤنا تربية مدارسنا،
فان دروسها وتربيتها لا تنطبق على حاجاتنا واخلاقنا . وآخر
يقول: لا بل داؤنا منازعة الاجانب لنا الرزق والسيادة في بلادنا
منازعة تحول دون اصلاح شؤوننا .

على ان المتأمل البصير الذي ألفَ النظر في اخلاق الأمم
ومعرفة الاسباب التي ترفعها وتحطها يرى بعد إعمال الفكرة في
جميع الوجوه التي تقدمت ان هنالك سبباً فوق جميع تلك
الاسباب . ولا مشاحة في ان تلك الاسباب اسباب حقيقية
للانحطاط ولكنها في الحقيقة اسباب فرعية اي مسببات لا
اسباب . واما السبب الذي اشرنا اليه هنا فهو الأصل الذي
تفرع منه جميع بلايا المشرق وهو : عدم وجود الشخصيات
الراقية بين ابنائه .

قد يمكن ان ترتفع الاسباب السياسية والدينية . قد يمكن
ان تروج التجارة والصناعة والزراعة . قد يمكن ان تتحد عناصر
الامة ومذاهبها بتأثير يد قوية تحسن ادارة ازمّة الأحكام . قد
يمكن ان تعود اوروبا الى رشدها فتنظر الى بلاد الشرق نظرها
الى امم تريد لها الحياة لا الى مستعمرات - كل ذلك قد يمكن
ان يقع باعجوبة او بغير اعجوبة . ولكن وقوعه وحده لا
ينيل الشرقيين ما يتمنونه من صيرورة امهم امماً عزيزة راقية ،



بل يقيمون حينئذ على دورانهم في دائرة الانحطاط التي كانوا يدورون فيها حين كانوا اذلاء ضعفاء فقراء . تراهم يركضون ويجدون ويجمعون المال اكداً الى اكداً فتخالهم صاعدين مرتقين ، والحقيقة انهم ما زالوا يدورون ضمن تلك الدائرة . انهم كانوا من قبل فقراء منحطين فاصبحوا بعد رواج اعمالهم اغنياء منحطين . وربما زادهم الغنى انحطاطاً لان التروة تبطر صاحبها اذا لم يكن اهلاً لها فضلاً عن انها تسهل له من اتيان الكبائر والصغائر ما كان عاجزاً عنه قبل الوصول اليها .

بعد ما تقدم تتضح لنا الأسباب في وجود مسائل نشكو ونعجب منها جميعاً . فاننا نعلم بعده لماذا لا نعتبر امناً امماً مجموعة بجامعة يحترمها الجميع ويخدمها الجميع ، بل نعتبرها افراداً متفرقين ولكل واحد منهم مصلحة خاصة يسعى اليها . ولماذا يبتسم اكثرنا مزدريين ضاحكين حين يسمعون كلمة المصلحة العمومية . نعلم لماذا الذين اصبحوا منا قادرين على النفع بثروتهم التي حصلوها بطرق مختلفة ليس لهم هم الا التمتع بها بوقاحة وببله دون ان يعملوا شيئاً نافعاً للأمة التي خرجوا منها وتحمل كل اثقالهم . نعلم لماذا حكامنا ورؤساؤنا مدنياً ودينياً متى تولوا شأناً عمومياً استخدموه لجر النفع الى انفسهم لاعتبارهم الرعية بقرة حلوباً . نعلم لماذا نرى الأقوال عندنا كلها سامية جميلة



والآداب الاجتماعية والسياسية في ارقى مظاهرها في الظاهر
ولكن الافعال والبواطن بما يُضحك ويُبكي . نعلم لماذا لا تقدر
على الاجتماع والتعاون ففقدنا بذلك اعظم القوات والعوامل في
رفع الامم كانشاء الجمعيات المختلفة للعلم والأدب والزراعة
والصناعة والتجارة التي عليها مدار الارتقاء في هذا العصر
وبدونها لا يقدر الفرد ان يصنع شيئاً عظيماً او يحصل حقاً
ضائعاً . حتى قال بعضهم في اوروبا : ان جمعيات العملة والزراعة
والتجارة والصناعة هي التي تسوق اليوم السياسة والساسة في
سبيل الارتقاء بقضيب من حديد .

فالدعوة الى ايجاد شخصيات راقية في الشرق وتسهيل السبيل
لها هي خير ما يُخدم به الشرق وابناؤه . وهذه الشخصيات
الراقية توجد اما في الهيئة الحاكمة وحينئذ ترقى الأمة وتوجد
فيها شخصيات راقية طوعاً او كرهاً ، واما في الهيئة المحكومة
فتلزم الهيئة الحاكمة سبيل الرشاد والسداد طوعاً او كرهاً .
وارتقاء كل امة انما يقاس بعدد الشخصيات الراقية التي فيها .
وهي نتيجة تهذيب النفس والعقل وثمره اختار المبادئ الكريمة
فيها وتأثير الوسط الذي يعيشان فيه جيلاً بعد جيل . وما
الاصلاح الاجتماعي الذي يدوي صداه في آذان الناس في هذا
العصر الا هذا الاصلاح .



على ان مقدمة رواية كهذه المقدمة لا تحتل هذا البحث
وليس هو من مواضيعها ، وانما جرّ الكلام اليه ما قصدناه من
بيان المبدأ الاول الذي يحتاج الشرق اليه وبدونه لا تقوم له
قائمة لانه يبني على غير اساس . فانفع المطالعات لابناء الشرق
ما كان موضوعه الاصلاح الاجتماعي الذي تقدّم ذكره الذي اهم
اغراضه ومراميه ايجاد شخصيات راقية .
الامر الثاني - ايّ انواع الروايات توصلنا الى الفائدة التي
تقدّم ذكرها في مقدمة الكلام ؟ وهذا هو موضوع هذه المقدمة
الحقيقية .

ان في الطبيعة البشرية عادة مألوفة وهي : جر الانسان
الحبل لصبوبه ، كما يقول العوام . فكل انسان يدعو الى مبداه
ومذهبه ويقبّح رأي غيره . واحياناً يكون هذا التقبّح مضحكاً
واحياناً يكون مقبولاً . وانما يكون مضحكاً متى كان المقبّح
لا يرى الا بعين واحدة فاما ان يجهل ما في رأي غيره من
الصواب واما ان يتجاهله لترويج بضاعة او لاعتقاده حقيقة انه
غير صواب . ومذهب « الجامعة » ومبادئها في رواياتها وغير
رواياتها معروفة عند قرائها فلا حاجة الى بسطها لتبيان فضل
الروايات الاجتماعية عندها على سائر الروايات . ولكننا مع هذا
لا نجر الحبل كثيراً لصبوبنا لكراهتنا هذا الخطأ الذي قد يقع
فيه غيرنا .

ان الروايات التي تنشر الآن في اللغة العربية بعضها موضوع
للفكاهة والحلاعة وهذا النوع لا ننظر فيه لانه لا يستحق نظراً،
وبعضها معرب والقصد منه ابراز احاسن الروايات الافرنجية
وهو نادر جداً وقلما يكون مستوفياً شروط تلك الروايات .
وبعضها تاريخي . وهذا النوع التاريخي قسمان : فقسم منه
يتضمن تاريخ الامم الاوروبية ، وقسم يتضمن تاريخ بعض امم
المشرق . اما القسم الاول فلا يستحق النظر ايضاً لاننا في غنى
عن تاريخ امم اوروبا ومن يبرز منه شيئاً عندنا فلا يبرزه الا
للفكاهة . واما القسم الثاني، وهو تاريخ بعض امم المشرق،
فالكلام فيه حسن لانه يوقف اهل ذلك التاريخ على تاريخهم ،
ولكن يتوجه على الروايات التاريخية اربعة اعتراضات :

الاعتراض الأول - انها امر كمالي بالنسبة الينا . فان التاريخ
لا يخرج عن كونه عبارة عن ذكر ايام مضت وحوادث خلت،
والامم التي لم تتكون بعد او التي تكونت وانحلت لا يفيدها
تاريخها شيئاً سوى تذكيرها بعظمة ساقطة ومجد ذاهب . وهي
قبل كل شيء تحتاج الى قوات تنهض بها وتوجد الشخصيات
الراقية التي اشرنا اليها اضعاف حاجتها الى تاريخها . وان علم
التربية وعلم الاجتماع والنشاط والحماسة للعمل ونصب اغراض
شريفة امامها وحثها على السعي اليها وجمع كلمتها عليها



بتأليف رأي عام منها ، كل هذه مقدمة فيها على جميع علوم
التاريخ البشرية والالهية . بل ان اصغر مبادئ الزراعة الاولى
واحقر مبادئ الصناعة الاولى مفضلة فيها على جلال التاريخ
وعظمته . فالذي يصرف فكرها الى حوادث تاريخها الماضية
بكتبه ورواياته قد يفيدها ، ولكن فائدتها من ذلك لا تكاد تذكر ،
لان مثلها حينئذ يكون مثل فقير ذي اطمار يعلق في ثوبه
ساعة وسلسلة من نضار . قال بوناردن دي سان بيير : اية حاجة
بنا الى التاريخ وكتبه واي تأثير للتاريخ في سعادتنا في الأرض ،
بل اية علاقة بين السعادة وذكر حوادث مضت وأيام خلت ؟
ان تاريخ ما كان هو تاريخ ما هو كائن وما سيكون . وقال
الفيلسوف نيتشه في كتابه « ما وراء الخير والشر » : ان
المؤرخين لكثرة تفكيرهم في الماضي وتنقيبهم فيه ينتهون الى ان
ينزلوا التاريخ منزلة كل شيء فيصير مثلهم مثل السرطان الذي
يمشي الى وراء وهو يحسب انه يمشي الى امام . يريد بذلك انهم
يتأخرون وهم يحسبون انهم يتقدمون .

الاعتراض الثاني - ان الروايات التاريخية هي سم للتاريخ
قتال ، وذلك لانها تكون مزيجاً من الحوادث المخترعة والحوادث
التاريخية ، وفي ذلك افساد التاريخ بدل تحقيقه . ولا بأس من
ورود التاريخ في الروايات ولكن يجب ان يكون وروده



عرضاً والعمدة تكون على ما في الرواية من الافكار والمبادئ الاجتماعية التي هي غرض الرواية الحقيقي، لان الروايات الخطيرة الهامة في هذا العصر انما هي روايات اجتماعية .

الاعتراض الثالث - ان كتب التاريخ تكتب للخواص، فالكاتب يجد في نفسه شيئاً من الجرأة على الجهر بما يرى الجهر به حقاً في التاريخ وان ساء بعضهم، لان في افاضل الخواص من كل الأمم ميلاً لمسامحة الكاتب ومعدرته اذا كانوا يعتقدون اخلاصه . اما روايات التاريخ فاكثر اعتمادها في رواجها على العوام والسذج وهؤلاء لا يسامحون ولا يعذرون ، ولذلك يضطر الكاتب الى مجاراتهم ترويحاً لبضاعته فيشوه التاريخ في رواياته بكتمان ما كان الجهر به من اول شروط التاريخ وبتحسين وتزيين امور تزيد السذج تمسكاً باوهامهم واغلاطهم ، خصوصاً اذا كان الكاتب من امة والقراء من امة وعلى الاخص في بلاد الشرق . وبذلك يكون وجود تلك الروايات وعدمها سبباً اذ الفائدة الحقيقية في الروايات هي ما فيها من الجرأة والقوة الادبية التي تحمل قراءها على ترك ضعفهم واوهامهم لا زيادة تمسكهم بها .

الاعتراض الرابع - قال المسيو ادوار رود منذ سنتين في مقالة افتتاحية في جريدة الفيغارو في اثناء كلامه عن التاريخ



وكبار المؤرخين الفرنسيين كتييرس وتان ورينان وميشله
 وغيرهم ما خلاصته : انه يجب على الناس ان يعلموا ان كتب
 التاريخ التي يقرأونها باللغة الفرنسية وغير الفرنسية لا يركن
 اليها مهما ادعى اصحابها التحقيق والتدقيق ، وذلك لسببين :
 الاول انهم يتخذون فيها طرق الاستنتاج والقياس وفي اكثر
 الاحيان يحجب استنتاجهم وقياسهم فاسدين ولذلك ترى آراءهم في
 التاريخ متخالفة متباينة ينقض بعضها بعضاً ، وكل مؤرخ منهم
 يكتب التاريخ كما يتراءى له . والثاني ان المصادر التي يعتمدون
 عليها ويستقون منها اكثرها خطأ لان روايتها اخطأوا في النقل
 والرواية . وانك لتري المؤرخين الذين عاشوا في الزمن الأخير
 اذا كتبوا تاريخه اختلفوا في رواية حوادثه وتفسيرها فكيف
 بهم اذا راموا كتابة تاريخ زمن لم يشهدوه ولا علموا شيئاً عنه
 غير ما نقلته الكتب لهم ؟ وليس في التاريخ شيء ثابت يمكن
 الوثوق بصحته غير الحوادث والأرقام والأوراق الرسمية التي
 وصلت إلينا من تلك الأزمنة البعيدة . قلنا : وكل من تصفح
 كتب المؤرخين العربية والافرنجية ورأى فيها تناقض الآراء
 والحوادث والأرقام لا يسعه الا ان يسلم بصحة هذا القول
 الذي ساء مؤرخي أوروبا ولكنه صحيح . ومما التحقيق في
 التاريخ خصوصاً التاريخ القديم وبالانحص الشرق منه الاخرافة



ودعوى لا يقوم عليها دليل . وليس هنالك تاريخ بل آراء مختلفة ،
وظيفة الباحث فيها الترجيح بينها لا تحقيقها ، وانزال تلك الآراء
والحوادث منزلة رفيعة من الأهمية وبذل الانسان قوته ونشاطه
وعلمه ووقته فيها انما هو من قبيل الاشتغال بشيء مشكوك به
وفائدته لا تعدل التعب فيه . ولذلك قال رينان قبل وفاته :
انني آسف لانني صرفت عمري بكتابة تواريخ قل أن يتصفحها
احد بعدي . قال ذلك مع انه اذا لم يكن في كتبه شيء غير
جمال انشائه في كتاباته فان هذا كاف كما قال بعض كتّاب
الفرنسيين لان يبقى جميع ما كتبه خالداً بين ايدي الناس
ومقصداً لطلاب الجمال وحلاوة القلم .

فبعد ما تقدم لا نرى للروايات التاريخية وظيفة سامية بين
الروايات ، الا اذا كان المقصود بها مجموعة قصص وفكاهات
لتسلية خاطر وترويح النفس في ساعات الفراغ . وظاهر
بنفسه بعد هذا ان الوظيفة العليا بين انواع الروايات هي
للروايات الاجتماعية الفلسفية .

وقد ذكرنا كل ما تقدم لغرض لم نذكره حتى الآن وهو
الدفاع عن الروايات الاجتماعية الفلسفية . فان بعض الكتّاب
رأى ان هذه الروايات روايات كمالية لا نحتاج اليها في هذا العصر
بل نحتاج الى روايات عملية ، وربما وجد قوله هذا موافقين

ومصدقين له دون ان ينظروا في لباب هذا الموضوع ، لان الناس
اعتادوا موافقة من يعتقدون فيه اصاله الرأي وصدق النظر .
وقد تقدم اثبات ان الروايات غير الاجتماعية هي الروايات
الكمالية .

وقد يستغرب القارىء اهتمامنا بهذا الموضوع الصغير
وتخصيص بضع صفحات به . ولكن الكاتب الذي تتبع آراء
الشرقيين ومطبوعاتهم بانتباه واهتمام لا يعدّه موضوعاً صغيراً
بل كبيراً ، وربما يراه اكبر موضوع اذا نظر في ما يلي :
ان كثرة الكتاب في الشرق وتعدد الآراء وتنوع اللغات
والتربيات قد جمعت في كتبه ومجلاته وجرائده جميع الآراء
الفلسفية ومذاهب الادب الكتابي . قد اجتمعت متناقضة
متضاربة واصبحت خليطاً من جميع المذاهب في الكرة الارضية ،
فترى فيها مذاهب سبنسر وكونت ودروين وماركس والقديس
توما وافلاطون وارسطو وابيقور ، الكلبي كما يسميه جمال الدين
الافغانى ، وفلاسفة الاسكندرية وشوبنهاور ونيتشه وقنت
وزولا وهيغو ومذاهب القرآن والتلمود والتوراة والانجيل
والفيدا ، كلها ، اى كل هذه المذاهب المختلفة ، تراها فيه متجاورة
مشتبكة اشتباك الاسل . وليس هذا بالأمر الغريب العجيب ، فان
بابل وجدت قبل اليوم على ما جاء في التوراة ، وانما الغريب

العجيب امران : الاول اجتماع المتناقضات من هذه المذاهب
في حيز واحد دون ان يفتن صاحب هذا الحيز لها . والثاني
تسفيه صاحب احد هذه المذاهب لمذهب آخر منها من وجه مذهبه
وبطرق مذهبه بدل ان يسفيه من الوجه الخاص بهذا المذهب .
وغني عن البيان اننا نتكلم هنا عن المذاهب الكتابية والفلسفية
والادبية لا المذاهب الدينية . فتري مثلاً بعضهم يكتب يوماً
كأنه على مبادئ كونت صاحب الفلسفة الوضعية السائد روحها
اليوم في اوروبا واميركا، ويوماً تراه يكتب كأنه على مبادئ
قنت وشوبنهاور الايديالستية . تراه يوماً ينهج منهج زولا في
كتابات الناتورالستية (تقليد الطبيعة) ويوماً ينهج منهج
فيكتور هيغو في كتابته الرومانتيكية الايديالستية . وقد قرأنا
يوماً في جريدة يومية مصرية كلاماً عن الوطنية قالت فيه ان
الوطنية أثر من آثار الحمجية القديمة، مع ان الرصيفة تدافع عادة
أشد دفاع عن جميع المبادئ التي هي عماد الوطنية ودعامتها،
وعلة هذا الاختلاط والاختباط عدم وضوح المبادئ بعد لابناء
الشرق للاجتماع حولها احزاباً احزاباً كل حزب يعرف اصل
مبادئه وفروعه ويجعل خطته الدفاع عنه وعنهما لموافقتها مزاجه
واخلاقه وآراءه . واليك مثلاً لهذا الاختلاط والجهل باصول
المبادئ :



قال بعض الكتّاب ان الروايات الاجتماعية والفلسفية روايات
كحالية والاهم منها الروايات العملية . وبعد هذا القول قال ان
احوالنا تحتاج الى اصلاح ، وخير سبل الاصلاح تقبيح الرذائل
الشائعة كالكذب والخداع والمجاملة والمقامرة والمسكر
والبورصة وغيرها من الرذائل والمنكرات التي نئن تحت اعبائها .
فالذي وقف على اصول المبادئ الفلسفية والادب الكتابي
يستغرب هذا القول ، لانه يعلم ان الادب الكتابي في الفلسفة
نوعان : ايدىاليست (مثالي) ورياليست (واقعي) . فالادب
الايدىاليستي مشتق من قوى النفس والعقل ، والادب الرياليستي
او الناتوراليستي مشتق من الطبيعة . الاول يعتمد في التأثير
والاصلاح على قوى نفس الانسان ويقدم تأثيرها على كل تأثير ،
والثاني يعتمد على الطبيعة وقواتها وتقليدها . الاول يقول :
صوروا ما هو اسمى من الطبيعة لرفع النفوس به . والثاني
يقول : ان ما هو اسمى من الطبيعة خيالي وهمي او كحالي ،
وحسبنا الطبيعة وتقليدها وتصويرها لان فوائدها عملية . فاذا
عدت الآن الى الاعتراض الذي تقدم وجدت ان المعارض
يقول ان المذهب الايدىاليستي امر كحالي . وهو اعترض جائز
مثلا لمن كان رياليستياً كالفيلسوف نيتشه الذي ادعى الايدىاليست
نقداً وتهكماً . ولكن متى سقته المعارض المذهب الايدىاليستي



ذلك التسفيه ثم عاد فقال الفوا في اجتناب الكذب والخداع
وما اشبههما من النقائص الاجتماعية فانه يخلط بين المبادئ
دون ان يشعر . ذلك لان توقع الاصلاح من محاربة الكذب
والخداع وما اشبههما هو من مذهب الايدياليست ، ومذهب
الرياليست يتساهل احياناً مع الكذب والخداع وقد قال نيتشه
انهما حق للضعيف ومن ملازمات العمران . فالنتيجة التي تخرج
من هذا هي ان المعارض يسفه من جهة مذهب الايدياليست
لانه خيالي وهمي في رأيه ، ومن جهة اخرى يدعو الى اصلاح
البشر به . وهو منتهى السذاجة والجهل بالاصول .

وليس غرضنا في هذا الفصل شرح مذهب الايدياليستين
والرياليستين واظهار آثارهما في المجتمع البشري ومبلغ تأثير
كل منهما في اصلاح الارض ، فان ذلك بحث فلسفي طويل
متشعب الطرق كثير الفروع . وسنقتنم اول فرصة لابداء رأينا
في هذين المذهبين . انما غرضنا هنا ان نوجه الانظار الى وجوب
فصل المبادئ في الشرق وترتيبها ووضع كل واحد منها في
مرتبه وبابه تسهيلاً للنظر فيها واختيار افضلها لنا ، فضلاً عن ان
الخلط بينها دليل على الجهل بها ، والجهل بها دليل على انحطاط
العلم عندنا وكونه لا يزال في طفولته .



بين الفصحى والعامية

لم تبقَ مجلة ولا جريدة من المجلات والجرائد العربية الا وبحث في هذا الموضوع الذي فتحت بابه رصيفتنا جريدة المؤيد وجريدة الأجبشن غازيت . ونحن نذكر باختصار لقرائنا تاريخ هذه المسألة ورأينا فيها .

وضع جناب المستر ويلمور القاضي الانكليزي في محكمة الاستئناف المختلطة كتاباً انكليزياً في غاية الاهمية اقترح فيه على ابناء اللغة العربية امرين : الأول ان يتخذوا الحروف الافرنجية لكتابة الكلام العربي بدلاً من الحروف العربية وذلك لضبط اللفظ في الكلمات المتشابهة الكتابة المختلفة اللفظ . والثاني استعمال اللغة العامية في الكتابة بدلاً من اللغة الفصحى . وحيثه في هذا الطلب ان الرجل الافرنجي يصرف سنوات في درس اللغة العربية ثم هو لا يفهم اللغة التي يكتب بها كتابها اليوم ولا اللغة التي يتكلم بها قومها . فضلاً عن ذلك فان الذين يفهمون لغة الكتابة اليوم من المصريين لا يتجاوزون ١٢ بالمائة من السكان ، واما باقي السكان وهو ٨٨ بالمائة فانهم لم يتعلموا لغة الكتابة ،



وإذا وجب ان يتعلموها ليدرسوا بها اضطروا الى صرف عدة سنوات في ممارستها ، فهل من الواجب وضع هذه العقوبات في طريق تعليمهم او تسهيل هذا التعليم لهم لتلقينهم الدروس بلغتهم؟ ويقول المستر ويلمور ان هذه اللغة العامية لغة مستقلة عن اللغة العربية ، وقد جاء عليها وقت كانت فيه لغة باصول وقواعد ، فاذا جمعت اصولها وقواعدها صارت لغة سهلة عمومية لجميع افراد الامة خاصتها وعامتها .

ولكن الكتاب قاموا على المستر ويلمور قومة واحدة فنقضوا الرأي الذي رآه واظهروا له ان اللغة العامية ليست لغة مستقلة وانما هي تشويه محلي يعتري كل لغة في العالم . وهو ما يسمونه لهجة . واللهجات متفاوتة في كل امة وكل بلد تقريباً ، فاية لهجة يستعملون ؟ وهل جنّ أبناء اللغة العربية ليقطعوا باللغة العامية الجديدة الصلة الجميلة التي بينهم وبين اسلافهم من فلاسفة العرب ومؤلفيهم وحكمائهم وعظمائهم ؟

على ان بعضهم يظن ان اقتراح المستر ويلمور فريد في بابه . والحقيقة ان هذا الاقتراح موضوع اليوم في مجال البحث في كل بلد تقريباً . ففي كل ممالك العالم المتمدن اليوم فريقان يتنازعان في مسائل التعليم تنازعا شديداً . وهما يسميان الفريق القديم والفريق الجديد . والفريق الجديد يطلب اختصار التعليم اشد

اختصار وتسهيله اشد تسهيل وان يُقرن بكل ما يحتاج اليه المتعلم من الدروس العملية ليحصل رزقه في زحام هذه الحياة ويُنبذ منه كل ما يثقل دماغ الطالب وذاكرته دون ان يفيد فائدة عاجلة كالاسهاب في الصرف والنحو وآداب اللغة والشعر والهندسة والجبر وغيرها . والفريق القديم يقول ان التعليم مسألة تهذيب وتثقيف لا مسألة تجارة او صناعة . والابتكار والاختراع في العلم لا ينشآن الا عن التضلع من اصول العلوم والفنون والغوص في اعماقها . ولذلك يوجب هذا الفريق درس اعصى العلوم واصعبها ويجعل درس اللغة اللاتينية الزامياً لأن هذه اللغة كانت منذ قرنين لغة العلم في اوروبا وبها كتب كثير من اشهر كتب العلم والفلسفة فضلاً عن الكتب التي كتبها مؤلفو الرومان .

وان قيل اي الفريقين هو المصيب قلنا ان الفريق الثاني مصيب بالنظر الى خاصة الامة الذين يرومون الانقطاع الى العلم ، والفريق الأول مصيب بالنظر الى العمامة وطالبي الرزق . والظاهر ان المستر ويلمور هو من هذا الفريق الذي ينبغي التسهيل .

ولكن المستر ويلمور لا يعلم على ما يظهر ان للتسهيل حداً لا يتعداه ، وان ما حصل في اللغة اللاتينية لا يمكن حدوثه في

اللغة العربية لاختلاف النسبة بين اللغتين . فانه لما قام ديكرت
وخالف العادة التي جرى عليها علماء عصره من التأليف باللغة
اللاتينية وجد لغته الفرنسية لغة صحيحة فصيحة فيها كثير من
كتب الأدب . وهذا ما زاد كتبه رواجاً واقبالاً وانسأه
سخط العلماء عليه من اجل تلك البدعة . ولكن ماذا يجد
كاتب اللغة العامية اليوم اذا رام التأليف فيها ؟ اتكفيه لغة
الحمارة والبحارة للتعبير عن اشرف عواطف القلب واسمى
خطرات الفكر مع انه يشكو من ضيق لغة ابن رشد
نفسها ؟

والحاصل ان المستر ويلمور قد حاول امراً مستحيلاً . ولا
خوف على لغتنا منه ومن امثاله لانهم لا يحاربون فقط اللغة
العربية بهذا الاقتراح وانما يحاربون النواميس الطبيعية ايضاً .
ذلك ان النواميس الطبيعية ضدهم في هذه المسألة . وان اللغة
التي قتلت اللغة الآرامية واليونانية في سوريا وفلسطين ،
واكتسحت لغة المصريين قبل الاسلام ، وانتشرت اوسع انتشار
في افريقيا ، ودخلت في أثر السيف الى اواسط آسيا واوروبا ،
والتي لا تزال تتغلب حتى اليوم على لغات الهند في عهد الاحتلال
الانكليزي نفسه ، هي لغة نافذة كالسيف فلا تؤثر سطور كتاب
انكليزي فيها .



ولكن هل يؤخذ من هذا القول انه لا يجب علينا ان ننظر
في كتاب المستر ويلمور نظرة اعتبار لفستفيد منه ما يمكن
استفادته ؟ لا ريب عندنا ان هنالك فائدة في غاية الاهمية ،
وسنأتي على ذكرها في المقال التالي .

اللغة العربية الجديدة

اتينا على تفصيل المناظرة التي جرت في القطر بشأن ما اقترحه المستر ويلمور من وضع اللغة العامية في مصر موضع اللغة الفصحى في تعليم الشعب المصري والكتابة له . وذكرنا ردود مناظريه عليه ونقضهم اقواله . ثم قلنا في ختام ذلك الفصل ان في اقتراح المستر ويلمور عبرة وفائدة ووعدنا بذكر هذه العبرة والفائدة ، وانجازاً للوعد نقول :

يزعم بعض فلاسفة العمران ان في كل قول حتى ما كان منه خطأ شيئاً من الصواب . واقترح المستر ويلمور هو من هذا القبيل . فانه خطأ محض اذا نظرت اليه من جهة لفظه ، ولكن فيه شيئاً كثيراً من الصواب اذا نظرت اليه من جهة معناه . وغرضنا الآن الاشارة الى هذا الصواب .

وبعبارة اخرى نقول ان المستر ويلمور مصيب كل الاصابة اذا كان غرضه في اقتراحه هذا انشاء اسلوب جديد للكتابة يفهمه جميع ابناء اللغة . فان اللغات لا يمكن استبدالها لان ذلك فوق طاقة الانسان وانما يمكن تغيير اسلوبها كأن يجر



القديم البالي الذي كان حسناً في عصره الى الجديد الذي هو
حسن ومفيد في هذا العصر . فاذا نظرنا الى اقترح المستر
ويلمور من هذا الوجه تغيرت مسألته وصار المقصود بها تسهيل
اللغة الفصحى على المعلمين والمتعلمين ، لا استبدال اللغة العامية
الساقطة بها . وحينئذ يكون صوته الجمهوري الذي دوى في
فضاء مصر صوتاً يدعو الى امر في غاية الأهمية ويشير الى احدى
مصائب العلم والتعليم في اللغة العربية .

نقول ذلك لاننا لا نجهل المصاعب العديدة التي تعترض طلبة
العلم وناشريه في اللغة العربية . فاننا نعرف كثيرين من المعلمين
يحسبون العلم محصوراً في اللغة ولذلك يصرفون اليها عقول
تلامذتهم دون سواها من الفروع التي توسع دائرة العقل وتنمي
الادراك ، فيشب الولد بين ايديهم ويخرج من مدرستهم وهو
لا يعرف غير « ضرب اضرب ضرب ضارب تضرب » وهذا
بلاء شديد على الشرق . وانما كلامنا هنا عن المعلمين في المدارس
الابتدائية التي هي بمثابة القوالب الحقيقية الأولى التي تتكون
فيها عقول الطلبة ونفوسهم ، فاذا كان غذاؤها قوياً من لباب
العلم وثمار المعارف الحقيقية شبت قوية وكان في امكانها بلوغ
حد البلوغ والرجولية . واذا كان غذاؤها ضعيفاً من قشور
اللغة وما يتبعها من صرف ونحو وشعر دون سواها من المبادئ



التي تقدم ذكرها فانها تبقى طفلة وان بلغت في العمر مبلغ
الرجال .

وكما ان هذا البلاء شديد على بعض المعلمين والمتعلمين في
الشرق فهو شديد على بعض الكتّاب ايضاً . فان هؤلاء الكتّاب
يصرفون اعمارهم في تصفح كتب اللغة القديمة وانتحاء مناحي
بلغاء المتقدمين ، فينطبع في نفوسهم ان صناعة الكتابة لا تقوم
الا بتنميق العبارة وذكر المترادفات من الالفاظ وانتقاء الضخم
منها حتى انك حين قراءتها لتخالها كالبنديق الذي قال فيه الشاعر :
خلي من المعنى ولكن له فقش . وعلى ذلك تصير الكتابة عندهم عبارة
عن الفاظ واسعة الاكام ضخمة الاجسام يضع فيها المعنى الذي
تدل عليه كما تضيع كأس من السكر في بركة من الماء البارد .
او تكون اسلوباً جافاً ناشفاً تنتظم فيه معانٍ قليلة بسلك
معوج لا يفهمه القارئ الا اذا راجعه عدة مرات ، وربما راجعه
طول النهار اذا كان ضعيف الفهم ولم يفهم منه شيئاً .

فالفضل العظيم الذي يرجع للمستمر ويلمور في هذه المسألة
هو في رأينا حذفه مسألة اللغة بكلمة واحدة وذلك بقوله :
استبدلوا العامية بالفصحى . فكأنه قال للذين يقدمون اللغة على
كل شيء : انكم تشتغلون بالقشر وتتركون اللب ، فدعوا القشر ،
واذا كانت لغتكم تحول دون تركه فاتركوها هي نفسها ايضاً

واتخذوا اللغة العامية بدلاً منها طلباً للّب الذي هو العلم الحقيقي
والفائدة الحقيقية .

أما نحن فأننا نقول للمستمر ويلمور أننا نعدّ هذا القول جناية
على اللغة العربية ، لأن هذه اللغة الجميلة الحلوة لا أسهل منها
على من يحسن تسهيلها ولا أطوع منها على من يحسن التصرف
بأساليبها . فالعجز إذاً إنما هو في نفوس أهل اللغة لا في أساليب
اللغة نفسها .

وهنا نصل إلى النقطة الهامة في هذا البحث ، فنسأل المستر
ويلمور ألا يعدل عن اقتراحه إذا ثبت له أن اللغة الفصحى قد
تقوم بوظيفة اللغة العامية من إبلاغ المعاني إلى أفهام العامة ؟
وهذا أمر ممكن . وإيضاحاً لذلك نقول :

تقتضي المخاطبة ثلاثة أمور : الأول المعنى الذي في ذهن
المتكلم . والثاني الكلام الذي يُراد إيصاله إلى فهم المخاطب .
والثالث فهم المخاطب نفسه . فإذا كان معنى الكلام والكلام
نفسه صريحين واضحين مسبوكين بأسلوب على قدر فهم السامع
وصل ذلك المعنى إلى ذهن المخاطب بلا عناء ولا مشقة . فالعمدة
في ذلك إذاً : المعنى والكلام والأسلوب .

وبناء عليه إذا كان المتكلم مالِكاً زمام المعنى ووضعه في
الفاظ بسيطة حسنة مفهومة لدى العامة وسبكه بأسلوب بسيط

ايضاً تحتم وصول ذلك المعنى من ذهن المتكلم او الكاتب الى
ذهن المخاطب لا محالة .

مثال ذلك العبارة التالية :

ان المقصود بالسنن الموضوعة في السياسات كلها هو المدينة
والكل لا الشخص .

فهل يعرف القارئ من اين اخذنا هذه العبارة ؟ لقد اخذناها
من كلام للفيلسوف ابن رشد في تعريبه كلاماً لأريسطو .
واصلها هكذا : هذه السياسات كلها المقصود بالسنن الموضوعة
فيها انما هو المدينة والكل لا الشخص . فانظر ايها اقرب الى
افهام القراء في هذا الزمان .

وليس المراد بذلك ان العبارة التي بسطناها اولاً هي ابلغ
من العبارة الثانية التي خطها قلم ابن رشد كبير فلاسفة العرب
وأمر البلقاء ، ولكن المراد انها اقرب الى افهام القراء
في هذا الزمان . وقد قال الجاحظ : كما لا ينبغي ان يكون
اللفظ عامياً ولا ساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي ان يكون
وحشياً الا ان يكون المتكلم به بدوياً اعرابياً ، فان الوحشي
من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقى رطانة
السوقى . ومن ذلك يثبت ان الفهم هو شرط الجواز في استعمال
المعاني والألفاظ .

ولكن قد يصح هنا كثيرون من محبي اللغة ويقولون : ان ذلك يقتل ملكة البلاغة والفصاحة لانه يضيق دائرة اللغة ويقضي على اساليبها الجميلة وتعابيرها الأنيقة . اذ ماذا يحل بنا وبلغتنا اذا وجب علينا ان لا نخاطب الناس الا بما يفهمونه ؟ فالجواب عن ذلك سهل جداً على المستر ويلمور وهو قادر على ان يحجبهم من كلام أئمة البلاغة انفسهم . قال الامام فخر الدين الرازي : اعلم ان الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد . واصليها من قولهم افصح اللبن اذا ذهب عنه الرغوة . وهي بالاصطلاح عبارة عن الالفاظ المبينة الظاهرة المتبادرة الى الفهم والمأنوسة الاستعمال لمكان حسننها .

وقال ابو هلال العسكري : سميت البلاغة بلاغة لانها تنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمه . والبلاغة مأخوذة من قولهم : بلغت الغاية اذا انتهيت اليها وبلغت بها غيري . وقال في الفصاحة : اما الفصاحة فقد قال قوم انها من قولهم افصح فلان عمّا في نفسه اذا أظهره . والشاهد على انها هي الاظهار قول العرب افصح الصبح اذا اضاء . وقال في موضع آخر : يسمى الكلام الواحد فصيحاً بليغاً اذا كان واضح المعنى سهل اللفظ وجيد السبك غير مستكره فج ولا متكلف ونخم ولا يمنع من احد الاسمين شيء لما فيه من ايضاح المعنى وتقويم الحروف .



وقال صاحب المثل السائر : ان الكلام الفصيح هو الظاهر
البيّن، واعني بالظاهر البيّن ان تكون الفاظه مفهومة لا يحتاج
في فهمها الى استخراج من كتاب لغة . وانما كانت بهذه الصفة
لانها تكون مألوفة الاستعمال .

هذا ما يعتقده في الفصاحة والبلاغة ائمة اللغة وكتّابها . واذا
كان فهم السامع كلام المتكلم والقارىء كلام الكاتب هو
الشرط في الفصاحة والبلاغة فقد جاز ان يقال ان البلاغة
والفصاحة عند الأمم تكونان بحسب اخلاقها وعاداتها وحاجاتها
واساليبها . فما يكون بلاغة وفصاحة في البدو لا يكون بلاغة
وفصاحة في الحضرة . وما يكون بليغاً لدى العرب لا يكون
بليغاً لدى الافرنج وبالعكس . فبناء على ذلك يجب على المعلمين
والكتّاب ان لا يتقيدوا بالماضي تقيد الاعمى ، فان الماضي انما هو
الطفولية كما قال باكون ، والانسانية تتقدم صاعدة شيئاً فشيئاً في
مراقي الزمن الأزلية ، وهي جسم حي كل ما فيه نام : جسمه
ونفسه ولغته ، فاذا تقدمت النفس وارتقت وبقيت اللغة متأخرة
جامدة صارت النفس خرساء لا تحسن التعبير عن حاجاتها .

فيؤخذ من ذلك كله ان المستر ويلمور مصيب في طلبه لغة
جديدة غير لغة الطفولية، ولكن هذه اللغة الجديدة المطلوبة التي
تقتضيها حالة العصر ويوجب سير التمدن قيامها ليست اللغة العامية

لان هذه لغة ساقطة ولكنها لغة بين اللغة الفصحى القديمة التي لا يفهمها العامة والخاصة أيضاً وبين العامية . وهذه اللغة الجديدة موجودة الآن وهي لغة المجلات والجرائد التي تحسن اختيار الفاظها واساليبها وتتقي الخطأ فيها . فما طلب اذاً المستر ويلمور الا شيئاً موجوداً .

نتج اذاً ان اللغة الجديدة التي ستكون اللغة العربية في المستقبل هي تلك اللغة البسيطة السهلة التي لا يكون فيها لفظ غير مألوف الاستعمال ولا تعبير من التعابير البدوية القديمة التي لا مسوغ لاستعمالها في زمن كهذا الزمان . هي تلك اللغة التي تغيب الفاظها وراء عرائس المعاني كأنها زجاج شفاف يظهر باطنه مع ظاهره او نبع صافي الماء تعد في قعره درر الحصى واحدة واحدة . هي تلك اللغة التي يقرأ أبنائها مقامات الزمخشري والحريري واليارجي ورسائل الخوارزمي والهمذاني فيأسفون على الوقت والقوى التي انفقوها في صف الألفاظ بعضها وراء بعض ويضحكون من تلك الكلمات الغريبة والأساليب العجيبة كما ضحك اعرابي من بيت لابي تمام تلي عليه فلم يفهمه وقال انه ليس بعربي . هي تلك اللغة التي اذا مات رجل عظيم من ابناءها قال كاتبها في تأبينه : مات رجل عظيم . لا : كسفت الشمس ونخسف البدر ومادت الجبال وغارت البحار . بل هي تلك اللغة

التي كل كاتب وكل معلم من أبناءنا يكتب في دفتره الخصوصي
مقال الجاحظ : ليست الفصاحة بالتفصُّح لانه لا يزيد متزيد في
كلامه الا لنقص يجده في نفسه .

اساتذة المدارس وتلامذتها

في اوقات العطلة الصيفية

قربنا من ايام العطلة المدرسية .

غداً تملأ المدارس الكبرى والصغرى من تلامذتها كما تملأ
الأعشاش من صغارها . غداً ، هذه الأماكن الطاهرة الجميلة
التي تنشأ فيها الأجيال بعضها بعد بعض والتي يدور الآن في
فضائها صراخ ابناء الانسانية الصغيرة ، تصبح ساكنة هادئة لا
يُسمع في جنائنها غير غناء الطيور التي تزداد غناء في غياب
رفقاءها التلامذة كأنها استوحشت وحدها فقامت تشكو
فراقهم .

ولا يخفى ما في منح المدارس فرصها الصيفية (المساحات)
من الحكمة والفائدة . فان المقصود من اعطاء التلامذة فرصة
شهر او شهرين او ثلاثة اشهر في السنة هو على ما نرى خمسة
امور .

اولاً - راحة ادمغة الطلبة والمعلمين من تعب الدرس ودة
تجدد فيها قواهم العقلية والجسدية .



ثانياً - اظهر الفرق للتلامذة والمعلمين بين العمل والبطالة
وكيف ان الأول سار مفيد مع ما فيه من العناء وكيف ان
الثاني مضجر مضر مع ما فيه من الراحة ، فيعود كل من الفريقين
الى اعماله المدرسية اكثر نشاطاً وأشد شوقاً اليها .

ثالثاً - عودة التلامذة الى المعيشة العائلية مع اهلهم
لاستعادة بعض ما افقدتهم اياه المعيشة المدرسية من الانعطاف
العائلي لانه من الثابت ، ويا لاسف ، ان المعيشة المدرسية ، ونعني
بها هنا المعيشة في المدارس الداخلية ، تسلب من قلب التلميذ فسيماً
من الالفة البيئية .

• رابعاً - جعل السنة المدرسية شوطاً بعيداً يجري فيه التلميذ
على أمل ان يصل الى الغاية اي الراحة بعد التعب واحرار قصب
السبق في الامتحان بعد طول الدرس والتنقيب ، فان هذا الأمل
مما يخفف عليه مشاق الدرس ويجعله يقطع تلك الطريق الطويلة
بشيء من السهولة .

خامساً - الفرار من حر الصيف الذي يكون الدرس فيه
شاقاً متعباً .

فانت ترى مما مرّ بك ان العطلة المدرسية نعمة لعنصري
المدرسة ونعني بهما المعلمين والتلامذة . فينبغي السرور بها

والارتياح اليها خلافاً لما يعتقد بعض بسطاء الآباء والأمهات من
انها تضر الأولاد وتجعلهم ينسون ما تعلموه .

اما نسيان الأولاد ما تعلموه فهذا امر لا نحب ان نسمع به
من فم عاقل يفهم معنى التعليم . فمتحسبون التعليم هو تلك القواعد
الباردة الشاردة الكاسدة التي يحفظها التلامذة في ذاكرتهم فاذا لم
يتذكروا بها او لم يراجعوها في كتبهم نسوها وبذلك يخسرون
ما تعلموه ؟ كلا ، ثم كلا ! ان التعليم الصحيح غير متوقف على
قاعدة او دفتر او كتاب حتى ولا على مكتبة ، وانما يتوقف
على المبادئ التي يكون المعلم قد بثها في نفس تلميذه ، ونعني بهذا
توسيع نطاق مداركه وتربية دماغه وتثقيف نفسه ، حتى اذا
خرج من المدرسة ونسي كل قواعد التصريف والاعراب وكل
مبادئ البيان وما اشبهها بقي له معرفة نواميس الحياة ومقدرة
على فهم كل شيء يطالعه والتمييز بين الفاسد والصحيح والنافع
والضار والحرام والحلال .

هذا هو التعليم الحقيقي . اما القواعد فليست الا آلة لهذا
التعليم ، وينبغي ان تكون كل واحدة منها بمثابة حجر يوضع في
اساس هذا البناء العظيم الذي يسمى تربية وتعليماً . اما اذا
كانت هذه القواعد مما يمنع التربية العقلية والنفسية التي اثرنا

اليها لا مما يؤيدها فاننا نشفق حينئذ بنية خالصة على معلميهـا
ومتعلميهـا .

اذاً لا خوف من ان ينسى التلامذة في الفرص المدرسية ما
تعليموه اذا كان التعليم صحيحاً ، واذا لم يكن كذلك فلا اسف
عليه اذا نسوه اذ بذلك يطردون الفضول من ذاكرتهم .

واما قولهم ان هذه الفرص تضر بالتلامذة فهو قول فاسد
وكلامنا في هذه المقالة عن هذا الموضوع .

فان العطلة المدرسية تكون مما يضر ويفسد حال التلامذة
اذا صرفوها في وجه ضار كالبطالة والمعاشرة الرديئة التي تفسد
الأخلاق . وتكون مما ينفع اذا صرفوها في وجه نافع . وهذه
اولية لا تحتاج الى تبيان . وما جئنا لاقامة الدليل عليها ولكن
جئنا للإشارة الى امر مختص بالفرص المدرسية وهو عظيم الاهمية
للمدارس ومعلميهـا وتلامذتهـا والهيئة الاجتماعية .

وهذا الأمر العظيم الذي نوجه اليه انظار جميع اصحاب
العقول الناضجة من المعلمين والمتعلمين هو انشاء مدارس عامية
في ابان العطلات المدرسية . ومعنى هذا ان لا يصرف المعلمون
والتلامذة اوقات العطلة في البطالة والكسل ، فان ذلك امر لا
يليق باصحاب العقول .

وان قيل ان العطلة المدرسية قد وُضعت للراحة قلنا ان

الراحة شيء والكسل والبطالة الذميمة شيء آخر . ونحن لا نطلب ان ينصرف المعلمون والتلامذة ابان العطلة الى التدريس والدرس اللذين يشتغلون بهما في اوقات المدرسة ، وانما نطلب ان يعمل كل من الفريقين في اوقات راحته عملاً مفيداً لنفسه ولغيره من غير ان يعاني مشقة وتعباً .

اما التلامذة فينبغي ان يطلبوا الحلاء والهواء النقي ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، واحسن ما يشتغلون به فيها مدة الفرصة حراثة الأرض كالبلستان أو الحقل وسقيها من عرق جبينهم فتزد لهم هذا العرق صحة وعافية في العقل والبدن . ولو كان الصيد ملذة طاهرة ، اي لو لم يكن فيه قتل ارواح وكان من القبيح ان يعتاد الأولاد من صغر ان يقتلوا ولو حيواناً ، لاشرنا عليهم بالصيد والقنص . على اننا نفضل الحراثة والزراعة لأنهما فن ، واذا مارس التلميذ هذا الفن اكتسب ميلاً اليه ، والميل الى استخراج خيرات الأرض واجادة ذلك من اهم اسباب الثروة ووسائل العمران .

واذا لم تكن الفلاحة والزراعة في الحلاء كالقري في اعالي الجبال ترويضاً للجسد وللعقل معاً فلا احسن من ان يعمل التلميذ بصناعة كالنجارة مثلاً ، فان هذه الصناعة التي كان يحبها جان جاك روسو حتى قضى بتعليمها للتلامذة والتي كان يحسنها لويس



السادس عشر المسكين الذي تحكى قصته في رواية نهضة الأسد،
هذه الصناعة مما يروض الجسم والعقل أيضاً ، فيجب على الطلبة
ان يختاروا بينها وبين الزراعة .

هذا فيما يختص بصغار الطلبة ، اي الذين لم يبلغوا الدروس
العلمية بعد ، اما الذين بلغوا الدروس العلمية فعليهم في اوقات
الفرصة ما على معلمهم من الواجب العظيم الذي اشرنا اليه .

وهذا الواجب العظيم هو انشاء المدارس العامة كما قدمنا ،
والمقصود بذلك ان نحذو حذو الأمم الحية التي لا تعرف السكون
بل تتحرك دائماً . فان علماء فرنسا ومعلميها والمتقدمين من
طلبة مدارسها ينتشرون حين اقفال ابواب المدارس في المدن
والقرى والمزارع يخطبون على العامة وعلى تلامذتهم في المواضيع
الصحية والأدبية والعلمية والفلسفية البسيطة والأمة عامتها
وخاصتها تقبل على استماع اقوالهم والانتفاع بعلمهم ، فاي مانع ،
غير التواني وعدم الاكتراث ، بمنع اساتذة مدارسنا ان يعملوا
كذلك في اوقات الفرص المدرسية ؟

تصور مدينة شرقية اقفلت مدارسها اليوم وانتشرت غداً في
اسواقها اعلانات من الأساتذة يدعون الشعب فيها الى استماع
خطب بسيطة صغيرة يلقيها كل استاذ مرتين او ثلاثاً في الأسبوع ،
ومتى اجتمع المجتتمعون اخذ الاستاذ يلقي على سامعيه كلاماً



بسيطاً في العلم والأدب وعم الصحة والجغرافيا والتاريخ
والمبادئ الطبيعية التي يجب اطلاع العامة عليها والمبادئ الصحية
التي من واجبات كل هيئة اجتماعية ان تعلم عامة الشعب ايها ،
اليس يحضر تلامذة المدارس حينئذ هذه الخطب فيكملوا خارج
المدرسة ما بدأوا به في المدرسة ؟ الا يستفيد الشعب من هذه
الخطب فوائد لا يستطيع تحصيلها بطريقة غير هذه الطريقة ؟ الا
تكون هذه الاجتماعات الأدبية اللطيفة مما يقتل روح الجهل في
الأمة ويدعو الى الاتحاد والالفة لكثرة اجتماع العناصر المختلفة
بعضها مع بعض ؟ الا ترقى هذه الخطب آداب الأمة وذوقها اذ
تصرف الافكار عن المقاهي والحانات الى طلب مكان افيد
واسمى ؟ الا تتأثر نفوس أبناء الشعب مما يذكره الخطباء في
هذه الاجتماعات من وصف العادات القبيحة والحث على ترك
المسكرات الآفة الكبرى ؟ ثم الا يعتبر العقلاء هذه الخدم الجليلة
التي يقوم بها الأساتذة ابان الفرصة المدرسية موازية للخدم الجليلة
التي يقومون بها داخل المدرسة ؟ وماذا يخسر الأساتذة ؟ لا شيء
بل انهم يربحون اتساع الشهرة ويكتسبون اميال الناس وحبهم
واحترامهم ، وفوق ذلك كله يشعرون حينئذ بالكبرياء الطاهرة
الجليلة التي يشعر بها كل من يصنع خيراً حقيقياً ، وهذا خير
جزاء لهم .



فالى هذا الأمر العظيم نوجه انظار اساتذة المدارس ومعلميها
وتلامذتها في الشرق ، نوجه انظارهم اليه ويتنازعنا عاملان :
عامل سرور وعامل كآبة .

اما عامل الكآبة فلأننا نخشى وا اسفاه ان يكون كل ما
يكتبه الكاتبون ذاهباً ادراج الرياح . فاننا لا نحتاج اليوم الى
من يقول وانما نحتاج الى من يفعل . نحتاج الى اساتذة ومعلمين
يعرفون ما يجب عليهم ويدركون عظم المسؤولية التي وضعوها
على عواتقهم يوم تسموا معلمين وجلسوا على كرسي سقراط
وافلاطون واريستو فيقومون الى العمل بواجباتهم .

واما عامل السرور فلأننا نرجع بالفكر الى اوقات بعيدة
تحتلج لها القلوب في الصدور . سلام يا اوقات التلمذة الجميلة
ما كان احلاك واسعد ايامك . يا ربيع الحياة المفروشة بطريقة
ورداً وريحاناً . يا عمر الزهر والطهارة وعدم الاكتراث سقياً
لك من جنة لا يراها الانسان الا بعد ان يجتازها . يا طيراً ذا
الف لون ولون يطير في فضاء هذا العالم بسرعة الحلم ولا نراه
الا بعد ان يفلت منا . يا أحلام الصبي الوردية وآماله الذهبية .
يا جو الكمال التصوري الذي ترفرف فيه اجنحتنا الرطبة
الرخوة في الصغر حتى اذا انت حوادث الحياة الحقيقية في
الكبر كسرتها واجتذبتنا الى الأرض بالرغم عنا .

هذا ما يحملو حين التفكير بالفرص المدرسية ولكنه يحملو
لمن كانوا تلامذة فأين حلاوته لمن كانوا معلمين ؟

يا لك من فن شريف عظيم يا فن المعرفة والحكمة . بيدك
يا فن التعليم زمام الأمم ومستقبل الشعوب . انت القوة
الحقيقية والسياسة الحقيقية . صرفنا فيك أوقاتاً لا نذكرها الا
ويصعد الدمع الى عيوننا . ذلك لاننا نذكر رفيقاً ساعدنا فيك
وصرف فيك أوقاته وقواه معنا . فنحن نبعث له بالتحية في
هذا المقام وان خرجنا عن موضوعنا . سلام يا روح ذلك الرفيق
العزیز . نكتفي الآن بهذا القول ونترك الدمع يكمل تحيتنا .

الشبان وخطرهم وما يجب لهم

نود قبل الكلام عن هذا الموضوع ان نقول كلمة بشأن ما ننشره في هذا الباب، وهي اننا لا نستطيع ان نقول كل ما يجب ان يقال في هذا الموضوع لان التفصيل والاسهاب من شأن الكتب والمؤلفات المطولة ونحن لا نستطيع هنا الا الاشارة اشارة الى اهم مسائل التربية لئلا يستغرق هذا الباب ابواب «الجامعة» الاخرى . فنحن اذاً انما نكتب هنا للأدمنة الناضجة والنبيهات والنبهات الذين يكفي ان تعرض على افكارهم الثاقبة عبارة واحدة في احد المواضيع فتنفتح بها في اذهانهم ابواب عالم جديد لم يكونوا قد ابصروه او التفتوا اليه . اما الذين لا يفهمون الأمور الا اذا فصلت لهم تفصيلاً مملاً وبسطت لهم تبسيطاً كلياً فاننا نشير عليهم ان لا يقرأوا هذا الكلام .

والآن نعود الى الموضوع :

نريد بمخطر الشبان حالتين يوجد الشاب فيهما : الحالة الأولى تسليم الطبيعة اليه قياد نفسه ، والثانية نزوله الى العالم . اما الحالة الأولى فنريد بها بلوغه سن الرجولية . فان الشعور



الجديد الذي يشعر الشاب به يومئذ اذا لم يحكم عليه ويصرف
 امياله في طريق الخير اضاع نفسه واضاع مستقبله معه فضلاً عن
 جنايته على نسله وعلى الفضيلة والادب العام . ومن أنعم النظر
 وجد ان الآباء والأمهات قلما يلتفتون الى العناية باولادهم من
 هذا القبيل ، فانهم يتركونهم وشأنهم دون مراقبة وربما تركوهم بلا
 عمل أيضاً فهناك الطامة الكبرى لأن « راس البطال مخزن
 الشيطان » كما يقول المثل ، والبطالة آفة الآفات ولا سيما في هذا
 الشأن الذي نبحث فيه تلميحاً لا تصريحاً . وقد وصف جان
 جاك روسو هذا الداء دواء نراه ناجماً وهو أن « تشغل اوقات
 الفتى كلها بما يلهيه عن امياله الجديدة وذلك بالصيد في البر والبحر ،
 فان الصيد لذة وادا وجد بازاء الولد من يحثه عليها ازداد رغبة
 فيها ، ولكن يشترط ابقاء الفتى تحت المراقبة الشديدة ليلاً
 ونهاراً وانحداد ثورة عواطفه الجديدة بالاعتدال حتى بالمأكل
 والشرب وبابعاده عن المجتمعات التي تثير عواطفه وتزيد بها
 هياجاً واضطراباً ، وهذا الدواء موصوف لأبناء الأغنياء البطالين .
 وليعلم الآباء والأمهات ان مستقبل اولادهم بل حياتهم نفسها
 قد تكون متوقفة على هذه المسألة . وننصح لهم ان لا يهملوا
 ذلك . فانهم اذا ابصروا فتاهم حين دخوله في سن البلوغ قد
 اخذ ينحل ويتغير لونه فليبحثوا وليسعوا جهدهم الى معرفة



السبب منه نفسه وليبينوا له الخطر الصحي والأدبي الذي يلقي فيه نفسه ونسله من بعده وذلك باستسلامه الى امياله الجديدة .
واما الخطر الثاني وهو نزول الشاب الى العالم فيمكن اجتنابه بامر واحد وهو ان يبقى الولد تحت جناحي أبيه وأمه فلا يسمح له بالاستقلال باعماله وعلى الخصوص بالسفر الى بلاد اخرى بعيدة الا متى رسخت اخلاقه وثبتت امياله واشتدت ألواحه واصبح لا يخشى عليه من ان يسقط في تجربة او ان يحيد عن الطريق القويم والصراط المستقيم .

هذا ما نقوله الآن في خطر الشبان وانما اختصرناه لننتقل الى البحث التالي وهو نسبة الشبان من الأمة وماذا يجب لهم .
شبان الأمة هم منها بمثابة دمها . فاذا كان هذا الدم صحيحاً نقياً كان جسم الأمة صحيحاً قوياً . واذا كان فاسداً كان جسمها ضعيفاً سقيماً . ولا ننكر ان الكهول والشيوخ ولا سيما من العلماء والكتّاب لا تنضج مواهبهم الا بالشيخوخة وتكرار الأيام فيكونون في آخر عمرهم اكثر فائدة مما كانوا في أواسطه او في اوائله، ولكن هذه امور نادرة شاذة وانما القياس الصحيح والقاعدة المطردة هما ان قوة الأمة تكون بقوة شبانها اولاً لان كل عظماء الأمور السياسية والعسكرية والتجارية والصناعية والزراعية يكون الشبان اقدم عليها من الشيوخ،



وثانياً لأن هؤلاء الشبان سيمسكون شيو خاً ، فاذا كانوا اقوياء في شبابهم من الوجه الأدبي ازدادوا قوة في شيخوختهم . فقوتهم اذاً تشتمل على قوتين : قوتهم في الحاضر وقوتهم في المستقبل . لذلك قلنا انهم من الأمة بمثابة دمها ، اذا صحح صحت واذا فسد فسدت .

•
واذا كان الشبان هم دم الأمة كما قدمنا ومدار صلاح حالها وجب ان تكون العناية بهم فوق كل عناية . ولا خلاف في ان كل أمة تعنى بتربية شبانها . ولكن عقدة المسألة هي الطرق التي تجري هذه العناية عليها . فالشبان في فرنسا يشبون وغايتهم العظمى نيل الشهادة الأدبية او العلمية والاستخدام في الحكومة بخلاف انكلترا فان هم مدارسها مصروف الى تعليم شبانها العظيمة والاقدام وحب المعيشة الحرة . فلنبحث ما هي الطريقة المثلى للعناية بالشبان .

إننا نرى لذلك طريقتين متلازمتين : الاولى هي تربية هجوم والثانية تربية دفاع . ومعنى هذا ان الشبان في هذه الحياة الطويلة والقصيرة معاً يشبهون ركباً في سفر ، فيجب ان يكون معهم سلاح الاقدام يمهّدون به طريقهم ويجوزون كل ما فيها من الصعاب ، وسلاح للدفاع يدفعون به كل ما يعدو عليهم في سفرهم . وبلا هذا السلاح المزدوج يشبه الشبان جنوداً بلا سلاح ارسلوا الى ساحة القتال .

وكاننا نسمعكم تقولون : ما هو هذا السلاح ، سلاح الهجوم ؟
فنجيب على ذلك انه سلاحان : مادي وأدبي . اما السلاح
المادي فهو تقوية اجسام الشبان بالرياضة والعمل اي جعل اجسامهم
اجساماً صحيحة لتسكنها عقول صحيحة ، فان كل رجال الاقدام
والمرائهم في العالم هم من اصحاب الاجسام القوية . واما السلاح
الأدبي فتتقيف عقول الشبان بعلوم وفنون تكسبهم رزقهم في
هذه الحياة لا بدروس سقيمة يحفظونها اليوم لينسوها غداً ولا
تفيدهم في دور من ادوار حياتهم .

واما سلاح الدفاع فهو القوة التي يجب ادخالها في نفوس
الشبان لتكون سلاحاً لهم ضد ما قد يطرأ عليهم من الضعف في
هذه الحياة . فالرذيلة ضعف يطرأ على النفس يقتضي ازالته بقوة
الفضيلة . والبطالة ضعف يطرأ يجب ان يُزال بقوة حب العمل
والمقدرة عليه . والتبذير ضعف يزال بالاقتصاد ، وهم جراً . والا
فان الشبان اذا لبثت نفوسهم من غير هذا السلاح ، سلاح
الدفاع ، فانها تسقط سقوطاً هائلاً بازاء اعدائها الكثيرين الذين
يهاجمونهم من كل جانب في هذه الحياة .

فالطريقة المثلى لتربية الشبان ان نعطيهم سلاحاً للهجوم
وسلاحاً للدفاع .

فهل تعطيهم رسلنا هذين السلاحين ؟

قلنا مدارسنا ولم نبدأ بالبيت مع كون التربية البيتية هي
اساس كل تربية كما مر بنا ، لاننا يحق لنا ان نقطع الرجاء من
التربية البيتية بآراء ما فيها من الفساد المتأصل . وسبب فسادها
انه لا يوجد في البيت كما يوجد في المدارس عقول نيرة وافكار
ثابتة تفهم معنى التربية ان لم يكن حتى الفهم فبقدر الاستطاعة ،
فلا نرجون في هذا الزمان فائدة من التربية البيتية قبل اصلاحها
من اساسها .

واكن ما هو تأثير التربية المدرسية عندنا ؟ هل هي تعطي
السلحين الذين اشرفنا اليهما آنفاً ؟

من الثمرة تعرف الشجرة . واذا اردنا معرفة احوال التربية
والتعليم في مدارسنا فلننظر الى تلامذتها الشبان الذين يخرجون
منها في كل عام مئات والوفاء ، فان اكثرهم يكونون بعد
المدرسة عائلة على اهلهم دأبهم البطالة والاقامة في المقاهي
والحانات ، المقامرة احب عمل اليهم والعمل اكراه الأشياء عندهم ،
ينامون في المسكرات والروذيلة ويصبحون في الكسل والبطالة .
وهكذا يصرفون رهرة عمرهم وينفقون دماء حياتهم في هذه
المعيشة السوداء والبليّة الدهماء .

وفي وسط هذا الليل المدهم يوجد من يصرخ ان الأمة فقيرة
متأخرة . نعم ، وكيف لا تكون الأمة فقيرة تعيسة شقية اذا

كان شبانها وهم دمها الذي به نحيا وتقوى منغمسين هذا الانغماس
بهذه المعيشة القبيحة ؟ ان الأمة تعيسة وستزداد تعاسة اذا بقيت
على هذه الحالة من الفساد . واذا سألتكم من هو المسؤول عن
هذا الفساد اجبتنا ان المسؤول فريقان : الأول المدرسة والثاني
الهيئة الحاكمة .

اما المدرسة فلانها تعلم طلبتها تعليماً غير منطبق على حاجاتهم،
فبدلاً من التعليم الصناعي والزراعي والتجاري الواجب تقديمه
على كل تعليم يعلمون أولئك الشبان تعليماً أدبياً ناقصاً يجعلهم
قاصرين في كل شيء ويمنعهم حتى من العمل بشرف لأكل خبزهم
بعرق جبينهم . وهذه جناية كبرى لا تلتفت اليها مدارسنا
ولكنها تحمل تبعاتها بالرغم عنها . انكم تعلمون تلامذتكم علوماً
ادبية من لغات ونحو وصرف ، فمثلكم مثل من يشرب الماء او
يضرب الهواء ، اي انكم لا تؤثرون فيهم تأثيراً مفيداً بل
تضررونهم من حيث اردتم ان تنفعوهم . فاذا اردتم نفعهم نفعاً
حقيقياً فعلموهم مع التعليم الأدبي تعليماً صناعياً وزراعياً وتجارياً .

واما مسؤولية الهيئة الحاكمة فلأنها لا تفتح لأبنائها موارد
جديدة للرزق والاستعمار والعمل في املاكها الواسعة وأراضيها
القفر المخصصة فضلاً عن انها لا تعمم المدارس الصناعية والزراعية،
وهي بذلك تخطيء الى نفسها لان شبان الأمة الذين لا يجدون



مصرفاً لقواهم واعمالاً هم ينسبون الخطأ كله اليها لا الى المدرسة
فينقلبون باللائمة عليها ويسخطون .

فحرام والف حرام ان تتركوا دم الشباب الذي هو دم
الأمة يذهب سدى بلا فائدة . اصرفوه الى الأعمال النافعة
بدلاً من تركه ينصرف الى الشر والبطالة والروذيلة ويفسد في
مستنقعاتها . علموا الشبان تعليماً عملياً وانزعوا في المدرسة من
عقولهم بغض العمل وعلموهم ان كل عمل حتى اصغر الحرف
اشرف من الكسل والبطالة . مدارس عملية ، مدارس عملية .
انشئوا عندنا مدرسة عملية باراء كل مدرسة ادبية ونحن الضامنون
لكم ان حالنا تنقلب في اعوام قليلة .



تربية المرأة

يكون الرجال كما يريد النساء

... والذي يزيد: رغبة في الكلام عن هذا الموضوع طلب
كثيرين من القارئات والقراء . فان بعضهم يرسل إلينا يقول :
النساء النساء . تكلموا عن النساء . وغيره يقول : ما معنى قولكم :
يكون الرجال كما يريد النساء ؟ ونسي هذا السائل ان هذا القول
لجان جاك روسو ، كما ان القول الثاني عن المدرسة هو
لاستاذنا الفيلسوف جول سيمون رحمه الله .

وتقول بعض القارئات : نحب أن نقرأ تفسيركم لهذه
العبارة : « يكون الرجال كما يريد النساء . » وسألت واحدة
أخرى : لماذا لا تتكلمون عن تعليم البنات في باب التعليم
والتربية كما تتكلمون عن تعليم الفتيان ؟ وسألت واحدة أخرى :
لماذا نسيم النساء ؟ وقالت ثانية : ما هو دواء ضجر ربة البيت ؟
وسألت ثالثة : ما هي واجبات الابنة العاقلة ؟ ورابعة : ما هي
واجبات ربة البيت ؟ - كل هذه الاسئلة جاءتنا مع كثير
غيرها فأخبرناها الى اليوم لنجيب عنها في مقالة خصوصية .



وأول ما نجب به أننا لم ننس النساء في ما كتبناه الى
الآن عن التربية والتعليم، ذلك لأننا نعتبر ان الكلام في اصلاح
التربية العائلية والتربية المدرسية كلام في تربية الفتيان والفتيات
معاً . فاذا كان ذلك كذلك أفنكون قد نسينا النساء ؟

معاذ الله ان ننساهن ! معاذ الله ان ننسى ملكات الكون
ورباجين الوجود اللواتي في أيديهن مستقبل الأمم وأزمنة الشعوب
لانهن مربيات الأجيال ومنشئات الرجال . وانما قصرنا الكلام
على الرجال لأن الكلام عنهم يشملهم أيضاً .

ولكن لا مندوحة لنا عن الاعتراف بأنه كان الأجدر بنا
قصر الكلام على تربية النساء ، لأن الكلام فيها اعم من الكلام
على تربية الرجال لكونهن المربيات المثقفات ، فاذا ربين تربية
حسنة استطعن ان يربين النسل كله كذلك . وهذا معنى قول
ايه مارتين : متى ربتم النساء فلا تهتموا بتربية الرجال لأن
النساء يربينهم لا محالة . وقول روسو : كما يريد النساء يكون
الرجال ، فاذا أردتم أن يكونوا عظماء وفضلاء فعلّموا النساء
ما هي العظمة والفضيلة .

وزيادة في تفسير هذه العبارة وايضاح المعنى المقصود منها
اجابة للسائلين والسائلات نقول :
تقسم هذه العبارة الى قسمين : الأول « يكون الرجال كما

يريد النساء» وهي القضية. والثاني «إذا أردتم ان يكونوا عظماء وفضلاء، فعلّموا النساء ما هي العظمة والفضيلة» وهي النتيجة.

أما القسم الأول فمقتضاه ان المرأة متسلطة على الرجل فتجعله كما تريد. وهو قول فاسد وصحيح معاً. يكون فاسداً لدى كل الامم اذا اعتبرناه من حيث الظاهر، ويكون صحيحاً لدى كل الامم أيضاً اذا اعتبرناه من حيث الحقيقة الطبيعية.

أما فساد فظاھر من ان الرجل هو المتسلط شرعاً على المرأة في كل البلدان وجميع الأديان لا المرأة على الرجل، وأما صحته فظاهرة من ان المرأة هي المتسلطة ادبياً واجتماعياً على الرجل لا الرجل على المرأة.

ويكفي لاثبات ذلك ان ننظر الى ادوار عمر المرأة وتأثيرها في كل منها.

المرأة تكون ابنة ثم خطيبة فزوجة فأماً فجدة.

خمس ادوار جميلة تتقلب فيها بين طهارة الصبوة وجمال الشباب ووقار الشيخوخة. وهي في كل منها متسلطة على قلب الانسان وحاكمة عليه.

فانها أول ما تولد يأخذ ابوها بالتفكير والتدبير استعداداً لزيادة رزقه على نسبة زيادة نفقته. لأن «الدموارل» اذا كانت اليوم صغيرة فإنها ستصبح غداً كبيرة. غداً تحتاج الى الحلل

الجميلة وتطلب القبعات النفيسة ، وبعد ذلك يأتي « النصيب »
فيطلب المال فوق الجمال والكمال ، وكل ذلك يزيد النفقة ،
ومعلوم ان توقع زيادة النفقة يزيد اجتهاد الانسان ونشاطه في
الكسب والتحصيل ، فالابنة اذا تجلب لوالديها يوم ولادتها
نشاطاً جديداً واجتهاداً جديداً يوجبان عليهما ان يفرحا بولادتها
لا ان يحزننا كما يحدث احياناً عندنا ، فهي اذاً من صغرها تبدأ
بالتأثير والتسلط على ما حولها ، فما أعظم هذه القوة التي تتسلط
حتى في بدء طفوليتها !

ثم ينقضي دور الصبوة بطيشه ونزقه ، ويأتي دور الشباب
بجماله وكماله ، ومن هنا يبدأ التأثير العظيم الذي يفوق كل تأثير
في الوجود ، والسلطة الكبرى التي تفوق كل سلطة في العالم .
كانت تلك الفتاة أمس ولداً في المدرسة تلعب وتشب غير
مكتوتة بشيء من هذه الحياة ، همها مقصور على رضى امها
ومعلمتها ودرس مثالتها واشباع معدتها ومداعبة لعبتها ، ولكنها
اليوم أخذت تهذا شيئاً فشيئاً ، هوذا الورد اخذ يتفتح في
الحدود ، والعيون أخذت تدبل وتتجلل بثوب من البهاء الجديد ،
والنظر صار مطرقاً ، والفكر مبهوراً ، والرأس محنياً كوردة
أثقلها الندى ، والوجنات شديدة التأثير ، كلمة تفضضها وكلمة
تعسجدها . فما هذا الانقلاب العجيب الذي حدث ؟ لا شيء

سوى ان «ملكة» الوجود قد بلغت سن الملك والسلطة ، لقد قبلتها الطبيعة الجميلة في فمها القرمزي الجميل وألبسها الحسن تاج الملك ودفع اليها الشباب صولجان السيادة .

ثم مرّ الرجل فأبصر هذا السلطان فخضع صاغراً ، خضع لانه كتب له الخضوع كما كتب لها السيادة ، فأصبح همه مقصوداً على رضى حاكمته ، ما يُرضيها وأي شيء يسرها ؟ هل ترضيها الحلّى والحلل ، والخيل والحول ، والمراقص والمتنزهات ؟ هيا اذاً وانفق المال بلا حساب . أَرْضِهَا المزارح الكثير فاجعل نفسك مزاحاً ، أو المقامرة الكبيرة فاجعل نفسك مقامراً كبيراً ، أو الأدب والحشمة والاعتدال فاجعل نفسك أديباً ومحتشماً ومعتدلاً ، كل ذلك اكراماً لعيونها لانه لا يهلك وقتك شيء في هذه الحياة الا رضاها .

ثم ان هذه الفتاة الخطيبة تصبح زوجتك اي انك توليها على شرفك وبيتك ومالك فيكون القول قولها والأمر في كل ذلك لها . ثم تصبح امّاً ، اي ان الطبيعة تهبكما ثمرة حبكما واتفاقكما ، وتوليها على مخلوق لطيف لتربيته فتكون هي القابضة على مستقبل ولدك وعيلتك . ثم ان هذه الام يشب اولادها فتبقى بازائهم سيدة عليهم . ثم يتزوجون فتبقى مراقبة عليهم وعلى اولادهم ، كأنها رمز الى الماضي والمستقبل وبركة البيت الذي يعيشون فيه .

فالآن قولوا لنا ، هذه الفتاة التي دأ السلطنة المطلقة على
الرجل وهو شاب خطيب تتصرف به كيفما تشاء وتجعله يصنع
ما تشاء ، هذه الفتاة التي تقبض على زمامه اراد أم لم يرد حينما
يصبح زوجاً لها وتزداد سلطة عليه حينما تصير امّاً ويصير اباً ،
هذه الفتاة التي تسلمها شرفنا وقلبنا ومنزلنا والتي تسلمها الطبيعة
النسل لتربيته لنا ، هذه الفتاة التي يكون لها تأثير عظيم كهذا
التأثير وسلطان قوي كهذا السلطان ، أية تربية ربيناها لتحسن
القيام بكل تلك الواجبات الصعبة ؟ سلمناها شرفنا وشرفها
وشرف العائلة فهل اعطيناها السلاح لتدافع به عنها ؟ سلمناها
البيت وما فيه ومن فيه فهل ربيناها التربية اللازمة لتحسن
الاعتناء به والقيام عليه ؟ جعلتها الطبيعة سيدة الوجود وريحانة
الكون ، فهل علمناها كيف تستعمل سيادتها لتفضي بنا الى
الخير بدل ان تفضي الى الشر ؟

كلا لم نعلمها شيئاً من ذلك بل تركناها تنغمس في الأزياء
والملاهي والألعاب ، صارفين فكرها عن الأمور النافعة لها
ولمنزلها ، هذا اذا لم نسجنها بين أربعة جدران هائلة ، فخطأنا
بذلك اليها والى انفسنا والى النسل والهيئة الاجتماعية كلها .

ذلك لأن اهمال تربية المرأة ذنب تقع تبعته على كل مسؤول
عن هذه التربية ، على العائلة أولاً وعلى كل فرد ثانياً وعلى
الهيئة الاجتماعية ثالثاً .

على العائلة لأن المرأة التي هي ربّتها ومديرتها اذا كانت بلا
تربية فان الجهل والاهمال والشقاء يكون سائداً فيها . وعلى
كل فرد لان كل فرد يجب ان يمرّ بين يدي الامّ ، فاذا كانت
جاهلة اساءت تربيته فكان جاهلاً . وعلى الهيئة الاجتماعية كلها
لأنها مجموع الافراد ، فاذا كانوا جاهلاً كانت الهيئة مجموعة جهل
لا غير .

فالطبيعة اذا تعاقبنا على اهمال تربية المرأة دون ان ندري
بهذا العقاب .

ولكن أشد عقاب تعاقبنا به على ذلك هو العقاب الأدبي .
فان المرأة ملكة كما قدمنا ، ملكة وكل واحد من الرجال
يخطب رضاها . فما هو رضى المرأة ، وكيف يُنال هذا الرضى ؟
هنا عقدة المسألة ، فان البسيكولوجيين يقولون : ان رضى
الانسان يُنال بمجاراة أهوائه ومشاركته فيها . فاذا كان سكيراً
وجعلت نفسك سكيراً مثله أصبحت صديقاً حميماً له ، وربما
اغتنك صداقة الكاس والطاس عن كل شيء . وهذا أمر من
الأمر المشاهدة في كل يوم ، اذا كان غاماً فتمّ معه ، ومحبتاً
للتمليق فملقه ، وكذاباً فاكذب ، فانك بذلك تكتسب صداقته
لا محالة . وكذلك اذا كان فاضلاً وأديباً وعاقلاً ، فكأن مثله
تكتسب صداقته لأنك تصيب هوى نفسه وتكون شاعراً

بعواطفه ، ومن أجل هذا قال الشاعر : « ان الطيور على
أشكالها تقع . »

فالآن والرجل محتاج الى رضى المرأة كما ذكرنا احتياجاً
جنسياً واحتياجاً ادبياً اجتماعياً كيف تكون حاله معها اذا
كانت جاهلة لا يهنا لها عيش الا بالطيش والمزاح والاسراف
واللعب والنميمة والمراقص والجمعيات واهمال المنزل وإلقاء
حمل الاولاد على الخدمة والمراضع ؟ الا يضطر طلباً لرضاها الى
مجاراةها في كل ذلك فيكون طائشاً مزاحاً مسرفاً لاعباً وهلم
جراً الى آخر ما في دركات الهيئة الاجتماعية ؟ اذا كانت امرأة
تضحك من الادب والمتأدبين في قاعة الا يسبقها الى ذلك كل
الشبان والرجال الحاضرين ارضاءً لها ؟ اذا كانت تضحك من
فلانة لأنها لا تلعب ومن فلان لأنه لا يغني ويصرخ ويمزح
اضحاكاً للحاضرين ، الا يصبح جميع الرجال الجالسين في ذلك
المجلس صراخين مزاحين أضحيك ؟ نعم لأنه يجب ان يُرضوا
النساء ، ينبغي ان لا تضجر النساء ، يلزم ان تُسرَّ النساء ،
وهذا معنى قول روسو : « يكون الرجال كما يريد النساء ، فاذا
أردتم ان تكونوا عظماء وفضلاء فعملوا النساء ما هي العظمة
والفضيلة . »

فأنتن اذاً يا سيداتنا الجميلات رئيسات الهيئة الاجتماعية ،



أنتنَّ ملكات الملوك وسلطانات السلاطين ، فرحما كنَّ لا تصرفن
هذه القوة والسيادة اللتين في أيديكنَّ الى الأمور النافعة المضرّة
بكنَّ وبالمهيئة الاجتماعية بل اصرفنّها الى الأمور المفيدة لكنَّ
ولمنزلكنَّ وذويكنَّ والمهيئة الاجتماعية .

رحما كنَّ وبعيشكنَّ اوجدن لنا عالماً جديداً غير عالمكنَّ
الذي اصبح العقلاء لا يستطيعون المعيشة فيه ، بل اصبحوا
— واسمحن لنا ان نقول ذلك — يأنفون من المعيشة فيه ،
عفواً ، انهم يأنفون ذلك لا من أجلكنَّ ، فان الورد في الرياض
والنجم في السماء والطيب في القارورة لا يملها الا البله ولا
يأنف منها غير الحمقى ، ولكنهم يأنفون من خشونة الذين
يتخذون في تلك المجالس بساطتكنَّ وخفة ارواحكنَّ ذريعة
لاظهار ثقل ارواحهم وفساد آدابهم .

وهذا العالم الجديد الذي نطلبه هو عالم يكون مملكنَّ فيه
مصرفاً الى الأمور النافعة المفيدة ، عالم يتقرب فيه الرجال
اليكنَّ بالأعمال الحميدة وطيب الاحدوثة والأدب والفضيلة
والعلم والمعرفة ، فتكون هذه الفضائل هي الرائجة لديكنَّ
المقربة منكنَّ لا نقيضها من ضروب الخلاعة والجهالة . ومتى
صارت هذه أميالكنَّ تلطفت خشونة الرجال وتغيرت أميالهم
حرصاً على رضاكنَّ لأنه « يكون الرجال كما يريد النساء . »

ونحن لا نجعل اعتراضك على هذا الكلام ، فانك تنقلن
اولاً : لماذا لا تعكسون القضية فتقولون : « يكون النساء كما
يريد الرجال ، فاذا كانوا فضلاء وعظماء كان النساء فاضلات
وعظيمات » فانتنا نحن انما نظهر للرجال بالصفات والحالات
التي يحبونها .

وتقلن ثانياً : اذا كنتم ترغبون ان نكون فاضلات
وعظيمات الا يجب اولاً ان تطلبوا من الرجال ان يربونا تربية
تجعلنا كذلك ؟

نقول : اما الاعتراض الثاني فانتن مصيبات فيه وسنتكلم
عن هذه التربية بالتفصيل في البحث التالي ان شاء الله .
واما الاعتراض الأول فانتن غير مصيبات فيه ، لأن الهيئة
الاجتماعية لا تربي اذا جعلت الرجل مرجع الذوق والأدب
والعظمة والفضيلة في هذا العالم . الرجل من طبعه الحشونة
ومن طبعه اللطف . من طبعه الاثرة والقسوة والطمع وانتن
من طبعه الشفقة والحلم وصنع الجميل . وان لم يكن ذلك
من طبعه فاعماله ومصالحه تشجعه على ذلك ان لم نقل انها
تقضي به عليه . فاذا كان في أيديكن ميزان اللطف والأدب
والشفقة والحلم وصنع الخير وسائر الفضائل البيئية فكيف نجعل
الرجال مرجعها ومقياسها ؟



كلا ثم كلا . ليس من أحد غير كين دعامة هذه الفضائل
في هذه الحياة . انن بيننا المربيات المبهذبات المسعدات المعزيات .
اذا رأى الانسان ان كل شيء في هذا العالم يسقط كمنازل
مبنية من الورق او بيوت مؤسسة على الرمال ، اذا رأى
الراحة خيالاً لا يُقبض عليه ، البشر وهم اخوان يتقاطعون
ويتذابحون كالذئاب الضارية ، الأصدقاء ينسى بعضهم بعضاً ،
الاقربون يقوم بعضهم على بعض ، العالم فوضى فيه شياطين
الظلم والطمع والغش والاعتداء والسلب تتسابق لافساد الأرض
ومن عليها ، اذا رأى الانسان كل ذلك لا يسعه الا ان يفتش
بنظره عن وتد يتمسك به في وسط هذه الزوابع الهائلة وكوة
يدخل منها اليه النور وسط ذلك الظلام الحالك ، فلا يرى
حينئذ الا وجهك الباسم ايتها السيدة ، يا ايتها الاخت والابنة
والزوجة والام والجدّة ، فبالحال ينقلب ذلك السواد بياضاً
والعناء هناءً بنظرة أو نظرتين من عينيك السحريتين وبسمة او
بسمتين من شفّتك الجميلتين . فانت اذاً ممثلة الكمال والهناء
والراحة والأدب والفضيلة في هذا العالم لا الرجل . لذلك نطلب
منك ان تكوني اكثر منه كمالاً لتكوني له قدوة وجمالاً
ومثالاً . ولذلك نقول مع روسو ولو غضب الرجال : « كما يريد
النساء يكون الرجال . »



تربية البنات

إذا أردتم إصلاح الهيئة الاجتماعية فاصالحوا النساء

أثبتنا سابقاً أهمية مقام المرأة في الهيئة الاجتماعية فثبت معنا يومئذ أن «الرجال يكونون كما تريد النساء» وأنه يجب أن يكنَّ عظيمات وفاضلات ليكون الرجال عظماء وفضلاء ، فبناءً عليه تكون تربية النساء أهم من تربية الرجال في الهيئة الاجتماعية .

وإذا كانت تربية النساء أهم من تربية الرجال فمن دلائل التأخر والانحطاط إهمال تربيتهم واعتبارها أمراً ثانوياً ، ومن دلائل الاستمرار في هذا التأخر الاستمرار في هذا الإهمال . وليس من غرضنا الآن تبيان وجوب تربية النساء ، فإن ذلك أصبح أمراً مسلماً به ، وإنما نود أن نشير إلى أصول هذه التربية . ذلك أننا نرى أن كثيرين يحسبون أنه يكفي لتربية النساء حتى الرجال أن تنشأ المدارس بصرف النظر عن حالتها ، ولذلك تراهم قد زعموا بالأوراق قصوا طرباً كما فتحوا مدرسة ، وهذا الأمر فاش في مصر والشام وفي كل البلاد الشرقية .



وسببه عدم معرفة الناس المهم من الأهم في مسائل التعليم والتربية . افترضوا اننا نفتح في القاهرة او الاسكندرية أو بيروت مائة مدرسة كل يوم ، اي ان يكون مجموع ما نفتحه في السنة ٣٦٥٠٠ مدرسة ، ولم يكن في كل هذه المدارس الكثيرة واحدة تعلم تعليماً صحيحاً وتربي تربية صحيحة ، فما هي الفائدة منها كلها ؟ فالأمر المهم اذاً في التعليم والتربية حسن اختيار المعلمين الذين يعرفون كيف يغرسون المبادئ العظيمة في نفوس الطلبة ، وحسن تأليف جدول الدروس (البروغرام) الذي هو بمثابة « الدفة » من المركب لأنه يوجه عقول الطلبة ونفوسهم الى حيث يريد ، والمعلم هو الربان الذي يدير هذه الدفة . فحسباً نحاولون النفع من هذه المدارس كلها ان لم يكن فيها معلمون يفهمون معنى التعليم ومعنى التربية . وهذا الكلام يُطلق على تربية الفتيان والفتيات معاً وقد أشرنا اليه هنا في عرض هذا البحث تمهيداً لما نريد ان نقوله في هذا الموضوع .

واول ما نقوله ان تربية النساء عندنا ناقصة ويجب سد هذا النقص عاجلاً ، والنقص في امرين : الأول عدم وجود مدارس كافية هنّ وعدم اقبالهنّ على التعلم ، والثاني اصلاح مدارسهنّ الموجودة .

أما الأمر الأول فليس من ينكر اهميته عندنا ، ولذلك أخذ

العاملون بفتح هذه المدارس تدريجاً ، على ان البحث في الأمر الثاني يتناول الأمر الأول ، ولذلك نقول :

أولاً : ما هي وظيفة المرأة ؟

الجواب : ان وظيفة المرأة ان تكون زوجة وأمّاً . لهذا خلقت في هذه الحياة لا لأمر سواه . فتربيتها اذاً يجب ان تعلمها واجبات الزوجية والأمومة .

وواجبات الزوجية نحصرها في أمرين : الأمر الأول تدبير منزله ، فانه من الواجب عليها ان لا تدع خادمتها في المنزل تعرف من هذا الفن اكثر منها ، ولا ان تعمل فيه أكثر منها ، ومن دلائل شرف المرأة ونشاطها ومعرفتها واجباتها ان لا تأنف من الأعمال البيتية بل تسرّ بعملها ، كما انه من دلائل صغر العقل وانكار الواجبات التنازل عن تلك الأعمال كلها الى الخدم لغير ضرورة لا بدّ منها . ولا يخلو من فائدة ان تعلم المرأة ان عظمتها متوقفة على نظام منزلها وحسن حاله وحال الساكنين فيه . فان هذا المنزل هو مملكتها الصغيرة ، فماذا يقول العقلاء في ملكة تهمل مملكتها او تتكل على غيرها في ادارتها وتديرها ؟

والأمر الثاني ارضاء الزوج وهو أمر لا يقل عن الأول أهمية لان عليه مدار سعادة العائلة ، ونحن الآن تجاه مسألة كبرى



وهي مسألة سلطة الزوج وسلطة الزوجة في العائلة . نعم ان
النزاع في هذه السلطة قليل في بلادنا خلافاً لما يحدث في الغرب ،
ولكننا نجد من الفائدة ان نشير الى آراء فلاسفة الغرب في هذا
الموضوع على سبيل المقابلة ، فائهم يقولون ان كل شركة وكل
هيئة وكل حكومة يجب ان يكون فيها ادارة تتولى الاهتمام
والتدبير ، واعضاء يخضعون لها مقابل اهتمامها وتدبيرها . والزواج
شركة فيه الرجل عامل قوي خشن لانه مخلوق للمعراك والرحام ،
والمرأة لطيفة نحيفة عملها في منزلها . الاول يكسب ويقوم بأور
العائلة ، والثانية تعطيه هذه العائلة . فمن الحق الطبيعي والناموس
الاجتماعي اذاً ان يكون الرجل هو مدير العائلة . واذا كان
الرجل هو المدير تحتمت الطاعة على المرأة وصارت سلطته فوق
سلطتها . بهذا النظام تقوم المنازل ، والا تنهدم ويتفرق من
فيها أيدي سبا .

فاذا كان هذا ما يقوله فلاسفة الغرب والمرأة عندهم ارقى
من المرأة عندنا وجب ان يقال مثله على الاقل في حالة منازلنا ،
فالرجل اذاً هو صاحب السلطة في الظاهر وان كانت المرأة في
الحقيقة هي صاحبة السلطة في الباطن كما مرّ بنا ، فترتب عليها
ارضائه ليرضيها هو ايضاً .

هذان الواجبان هما أعظم واجبات الزوجة ، بقيت واجبات

الأم ، وهي عندنا ثلاثة : الأول تربية أجسام الاولاد ، والثاني تربية عقولهم ونفوسهم ، والثالث القيام بأودهم .

أما الأمر الأول فهو عمل هيجيني محض ، ولذلك يجب ان تُعلم الفتاة منذ صغرها في المدارس التي تتعلم فيها كيف يجب ان تكون تربية الاولاد نظرياً وعملياً ، وما أحسن ان يُبنى بإزاء كل مدرسة للبنات ملجأ خيري صغير لاطفال الفقراء لتصرف فيه كل تلميذة ساعة او ساعتين من يومها تتعلم فيهما عملياً تربية الأطفال وتنمي في نفسها الميل الطبيعي الذي فيها لتلك المخلوقات الصغيرة الجميلة التي سيمناها الله منها .

والأمر الثاني عمل ادبي ببيكولوجي يقتضي معارف واسعة وخبرة وملاحظة ، وهو فن مستقل بنفسه بل هو الفن الأعظم الذي يسمونه فن التربية النفسية .

والأمر الثالث وهو القيام بأود الاولاد يقتضي ان تكون المرأة حين الحاجة نصف رجل ، لتكسب رزق اولادها حين الحاجة .

هذه هي واجبات المرأة في العائلة على وجه الاجمال ، ولكننا نرى هنا بعض السيدات يحملن ويقلن : ماذا ؟ أهذه أعمالنا فقط ؟ أيبلى بكم الظلم ان تضعوا على ظهورنا النخيفة كل هذه الأحمال دون ان تأذنوا لنا بشيء يخففها ؟ كلا أيتها



السيدات لا تقلن : « ان تأذنوا لنا » فان ذلك من حقكن ،
والحق مباح لا يقتضي إذناً . نعم من حقكن رئاسة المنزل
والعائلة في بعض الاوقات رئاسة عليا تكون فيها سلطتك
فوق سلطة الرجل نفسه . بل ان ذلك من واجباتكن لانه
عمل من الاعمال المنزلية المهمة .

ونريد بهذا العمل تحبيب المنزل الى زائريه .

اي نعم ، ان استقبال الزائرين واجب من الواجبات البيئية
الجميلة وعمل لطيف نحيف ، يملوء شوكاً كما انه يملوء زهراً .
اما الزهر فان السيدة تتصل بالعالم بواسطته وتتعرف بالاساس
وترأس مجالس الحديث في القاعات وتكون ملكة المنزل
الحقيقية ، ويا حبذا لو كان في الاستطاعة الآن نقل الفصل الجميل
الذي كتبه الفيلسوف جول سيمون في كتابه : « المرأة في
القرن العشرين » بخصوص هذه المجالس وهذه القاعات ، ولكننا
نكتفي بالإشارة ، فانه قال فيه : ان قاعة المرأة هي مصدر
التمدن في العالم اذا كانت قاعة حقيقية . والقاعة الحقيقية هي
مجالس يأتيها اصدقاء المنزل وجميع من لهم علاقة بالزوج من
الرجال وبالمرأة من السيدات فيقطعون أوقاتهم - عفواً ايها
السيدة - لا بلعب الورق ولا بالأرياء ولا بالكلام عن الناس
ولكن بالمسائل المفيدة والمفككة معاً من أدبية وسياسية وعلمية



وفلسفية . فهناك يتنافس الرجال ليظهر كل واحد منهم فضله في هذه
الامور الفاضلة أمام النساء ، وتتنافس النساء لتظهر كل واحدة منهن
معرفتها وأدبها وفضلها أمام الرجال ، فتكون القاعات التي على
هذا المنوال مدرسة سامية وحكماً عظيماً في الذوق وفي كل
الامور . القاعات حينئذ ترقى الى مرتبة الوزراء ، القاعات ترفع
الى عضوية الاكاديمي ، القاعات تنشر شهرة كل مستحق وتقلص
شهرة غير المستحق ، وفيها السيدات ملكات جالسات على عرش
الأدب واللفظ والظرف ، يرأسن الحديث فيها ، واذا خرج
واحد من الرجال في حركة أو اشارة أو كلمة عن حد الأدب
أو الحشمة فان الواحدة منهن ، على لطافتها وضخامته وضعفها
وقوته ، قادرة على ارجاف قلبه في صدره بكلمة واحدة ونبذه
من الهيئة باشارة واحدة .

هذا هو الزهر الذي تجده المرأة في هذه المجالس ، وهو
يقتضي ان تكون عارفة بأساليب الحديث تعطي كل ذي حق
حقه ولا تترك أحداً يملُ في قاعاتها . وهذا أمر لا يجب تعليمه
في مدرسة لأنه طبيعي في المرأة كما لا يخفى .

وأما الشوك فانه مؤلم وذو خطر عظيم . ونعني هنا بالشوك
تلك التجارب التي تعرض للمرأة في خلال هذه المجالس ، فان
كل الناس ليسوا من سوء الحظ أدباء كرام النفوس ، بل ان



كثيرين منهم يتخذون هذه الزيارات والمجالس حبالاً للاقتناص ،
وأنت تعلم ما هذا الاقتناص . فبإزاء هذا الخطر العظيم على
راحة العائلة وفضيلة المرأة يجب ان تُتربى المرأة تربية خصوصية
تقيها هذا الخطر ، وذلك بإيقافها على أخلاق الرجال وتدريبها
بدرع الفضيلة والدين والادب ومعرفة الواجبات .
والآن هل تمت واجبات المرأة بعد ما ذكرناه منها أم بقي
منها شيء ؟

إذا كان المراد التفاصيل فقد بقيت أشياء ، لأننا هنا نشير
الى أمهات المسائل إشارة فقط ، وإذا كان المراد هذه الامهات
فاننا نرى انه لم يبقَ الا مسألة واحدة ، ولكنها من أهم
المسائل النسائية .

وهذه المسألة هي : هل يجب ان تبقى المرأة داخل البيت
أم يجب ان تخرج منه للعمل كالرجل ؟
فتجيب على الفور ان المرأة قد خلقت لتكون زوجة
وامماً ، زوجة وامماً قبل كل شيء ، وبعد ذلك يأتي ما بقي ،
ومقام الزوجة والام هو في المنزل ، فعلى المرأة ان تبقى ملازمة
منزلها لزيادة النسل وتربيته وغرس الفضائل البيتية فيه لنشرها
منه في العالم .

هذه حقيقة يؤيدها جميع أنصار النساء الحقيقيين وكل محبي

خير الهيئة الاجتماعية ، ولكن لدينا مسألة مهمة تتفرع منها ،
وهي : ان امرأة خضعت للناموس الطبيعي والاهي القاضي بان
يكون عمل المرأة داخل المنزل وعمل الرجل خارجه ، فتزوجت
وأقامت تربي اولادها فرزقت ستة منهم . ثم في يوم من الايام
وهي مطمئنة الحاطر باسمه الثغر هبت على منزلها احدى زوابع
الاقدار الهائلة السوداء التي طالما هبت على المنازل فكسرت
قلوباً ونغصت عيشاً وسودت حياة وخربت عماراً فمات
زوجها ولم يترك من يعولها ولم يخلف لها سوى اولاد صغار على
يديها الضعيفتين ، فماذا تصنع حينئذ ؟

لا خلاف في انه يجب عليها حينئذ ان تشمر عن ساعد
النشاط والهمة ، وبرأس مرفوع عظمة كأنها تناطح الاقدار التي
تدلت عليها لسحقها ، تقوم الى العمل بشرف وجدٍ لتكسب
خبزها وخبز اولادها بعرق جبينها . فعلى المرأة اذاً ان تكون
مستعدة للعمل اذا انتدبتها العناية الالهية له متى انهدم سندها .
ويجب عليها ان تضع هذا الامر دائماً نصب عينها . وهي مسألة
خطيرة توجب الاهتمام بتعليمها عملاً تعمله يكون منطبقاً على
استعدادها النسائي وذوقها ومواهبها ، وجميع فلاسفة العالم
يجيزون عمل المرأة حتى خروجها من البيت لهذا العمل في حادثة
كهنه الحادثة .



هذه أهم واجبات النساء في الهيئة الاجتماعية ، فلننظر الآن
ماذا تعلم مدارس البنات منها .

ولكن قبل ذلك لا بد لنا من الإشارة الى أهمية
الأمور التي مرّت بنا والتصاقها بالنساء دون سواهن . فان
تدبير المنزل وتلطيف معيشة الزوج فيه وتربية الاولاد
التربية البدنية والادبية ورئاسة العائلة في ايام الاستقبالات
العائلية لتحبيب المنزل الى الزائرين وادارة الحديث ومراقبته
لئلا يُقال فيه ما لا يجب ان يُقال في منزل سيدة - كل هذه
أمور من شأن المرأة، والرجل لا يستطيع ان يعمل منها شيئاً.
فيا لجهالتنا وتعاستنا اذا أهملنا تعليم المرأة اياها ! يا لشقائنا
وشقاء اولادنا من بعدنا اذا تركنا النساء بلا علم ولا أدب ولا
فضيلة تقودهن بين صخور هذه الحياة الهائلة ! أتعرفون ما هي
المرأة ؟ كلا انكم لا تعرفونها وان كنتم ترونها كل يوم . المرأة
مخلوق يمرُّ أمامكم ضعيفاً نحيفاً باسم الشجر او مبهوتاً ولكن
بين جنبيه قلباً لا يعرف عمقه الا الله ، ونفساً متسعة أوسع من
الفضاء لتناقض الاميال التي فيها . وهذه الاميال تتجاذبها
وتتقاذفها كما تتقاذف الأمواج في البحر زورقاً صغيراً فوقها .
أفتسلمون الزورق للأمواج تذهب به كل مذهب وتطرحه على
الصخور فتكسره ام تضعون فيه « دفة » ورباناً لا يصاله بامن



وسلام الى برّ السلام ؟ وهذه الدقة وهذا الربان هما المعرفة
والضمير ، المعرفة التي تنير الضمير والضمير الذي يدير المعرفة ،
ونعني هنا بالمعرفة المعرفة الادبية التي 'تري المرأة انها اذا لم
تكن فاضلة فانها تكون تعيسة محتقرة مهما كانت جميلة ،
المعرفة بأصول تربية اولادها وتدريب منزلها ، المعرفة بأخلاق
الرجال لارضاء رجلها واجتناب اشراك سيئي الادب من الرجال ،
المعرفة التي تجلو عن النفس غياهب الجهل وتعلّمها كل فضيلة
وتدنيها من أبواب السماء ، المعرفة عدوة الظلمة وصديقة النور ،
عدوة التوحش وصديقة التمدن ، عدوة الضلال وصديقة الحقيقة ،
عدوة الرذيلة وصديقة الفضيلة ، هذه هي المعرفة التي نعنيها هنا ،
فوا أسفاه عليكم وعلى هيئتكم الاجتماعية اذا كنتم لا تعطون
النساء هذه المعرفة !



عمر الحيام

ترجمته

يسميه الافرنج عمر الحيام ويسميه العرب عمر الحيامي كما رواه بهاء الدين العاملي . واسمه الحقيقي شيعة الدين ابو الفتح عمر بن ابراهيم . سمي الحيامي نسبة الى ابيه الذي كان يصنع الحيام ويبنيها . وقد ولد في نيسابور سنة ٤٠٨ للهجرة ١٠١٧ للميلاد . وتوفي فيها سنة ٥١٧ هـ ١١٢٣ م اي انه عمر فوق المائة سنة . اما قبره فلا يزال في نيسابور ولكنه لم يُكشَف إلا بعد وفاته بمدة طويلة ، والذي اكتشفه تلميذه له يُدعى نظامي ، ولم يترك له استاذة من علامة يعرفه بها سوى قوله : ان قبري - يكون في مكان تهبُّ عليه ريح الشمال فتدفنه بالورد .

ومما رواه مؤلفو العرب والفرس من ترجمة عمر الحيام في صباه انه تلقى العلم على علماء نيسابور اخصهم الامام الموفق . وكان يتلقى العلم معه فتي يدعى حسن صباح وهو الذي صار بعد ذلك امام الاسماعيلية . وفتي آخر يدعى ابا علي حسن الطوسي وهو الذي رقي بعد ذلك الى دست الوزارة للدولة السلجوقية العظيمة وسمي نظام الملك . فهؤلاء الرفاق الثلاثة



اتفقوا وهم في المدرسة على ان الذي يسبق رفيقيه الى ولاية امر
او رفعة شأن يرفع شأن رفيقيه معه . فلما ارتقى نظام الملك
الى الوزارة ذكر عهده فاستدعى حسن صباح وقرّبه اليه ، ورام
تقريب عمر فأبى عمر ذلك لرغبته في الانقطاع الى درس
الرياضيات . وسواءً صحت هذه الرواية ام لم تصح فمما لا ريب
فيه ان ملكشاه الذي كان نظام الملك وزيراً له استدعى عمر
الحيام بعد ما سمعه عن علمه وحذقه في الرياضيات واطلاعه
على رسالته العربية في علم الجبر وفوض اليه ادارة مرصد
بغداد الفلكي .

وكان عمر قد اكتسب بانصبابه على الدرس والبحث علماً
واسعاً وشهرة بعيدة . فلما ولي ادارة مرصد بغداد دون علماء
وقته ازداد مقامه رفعة عند بني عصره ، وصارت مرتبته عندهم
مساوية لمرتبة الشيخ ابن سينا الفيلسوف المشهور الذي توفي
وعمر الحيام ٢٠ عاماً ، فكأنه كان خلفاً له .
وانقسم معارف الحيام الى ثلاثة اقسام : علمه ، وفلسفته ،
وشعره .

علمه

اما علمه فحسبنا ان نقول فيه انه كان اول عالم رياضي
بحث في مقاييس المكعبات واتخذها مقياساً خصوصياً . ورسالته

العربية في الجبر كانت مشهورة بين علماء الشرق حين كانوا
يعنون بدرس الرياضيات . وفي اثناء ادارته مرصد بغداد الفلكي
وضع خرائط فلكية سماها زيج ملكشاه نسبة الى هذا السلطان
الذي قربه اليه وولاه ادارة المرصد . وهو الذي وضع حساب
الوقت واصلاح التاريخ الفارسي باضافة سنة كبيسة الى كل اربع
سنوات من سني الحساب الفارسي . ويُعرف هذا الاصلاح
الحسابي بالاصلاح الجلاي نسبة الى جلال الدين وهو لقب لملكشاه .
قال المسيو سلمون الذي اعتمدنا عليه في هذه التفاصيل : ان
حساب السنة الجلالية التي اصلحها الخيام اصح من الحساب
الغريغوري الذي وُضع بعد ذلك بخمسة قرون .

ولا يقدح في فضل الخيام ان يوجد في معلوماته الرياضية
والفلكية اغلاط كثيرة ، فان العلم كالطفل ينمو ويشب شيئاً
فشيئاً . ولقد مرّ على الخيام سبعة قرون ونصف قرن والعلم لم
يشب عن طوق الصبي بعد مع جميع ما وجدوه حديثاً من
الاصول الجديدة ، لانه ، كما قال تولستوي في رده على اهل العلم
الذين يتكبرون بعلمهم الناقص ، متى صار العلم علماً حقيقياً لم
يبقَ لديه شيء مجهولاً . واذا كان الله قد قدر للانسان هذه
السعادة والكمال في الارض فذلك لا يكون الا بعد الوفاء
وعشرات الوفاء من السنين .



لا نقصد بقولنا فلسفته انه كان للخيام مذهب فلسفي خاص به ، ولكننا نقصد بذلك رأيه في الواجب والوجود والحياة والآداب والحكمة وما وراء الطبيعة . وهذا بمثابة قولنا انه لم يكن فيلسوفاً بل مفكراً وباحثاً ، لان الفيلسوف لا يدعى فيلسوفاً الا اذا كان له في تلك الامور مذهب فلسفي خاص به ، وهنا نصل في ترجمة الخيام الى آرائه الدينية .

يظهر ان الخيام لم يستطع ان يضع لعقله شكيمة تشكمه وحداً يقف عنده . ولذلك كان بينه وبين رجال الدين في حياته نزاع شديد . وكان الصوفية اشدّهم اضطهاداً له لانه كان يتهمهم على نقشهم وزهدهم في الدنيا تهكماً جارحاً . وكل ديوانه الفارسي رباعيات الخيام مداره على الغزل ووصف الخمر وصفاً غريباً مبهجاً والاستهزاء بالزهد والقناعة والدين ورجاله . واحياناً يجترى على الالهية نفسها . واليك بعض الامثلة من رباعياته ، قال ما ترجمته :

سمعت في الفجر صوتاً يصيح : اليّ اليّ يا اهل الشراب
والسرور . يا ايها الفتيان المجانين انهضوا واملأوا كأساً اخرى
من الخمر قبل ان يملأ القدر كأس حياتكم .
ومنها :



يا رفاقي الاحرار ، اذا مت فاعسلوني بنجر حمراء مشرقة
ولا تدفنوني الا في ظل كرمه .

ومنها :

اصبحت شاردأ عن الدين كدرويش . قبيح المنظر كالبعي .
ولم يبق لي دين ولا مال ولا امل في جنة .

فلا ريب ان قارىء هذه السطور يظن ان صاحبها سكير
معتوه يهذي بها في ابان نشوته . ولكنه في موضع آخر يسمعه
يقول راجعاً الى الله رجوع الضال الى الصراط المستقيم :

ليست هياكل الاصنام والكعبة سوى اماكن للعبادة . وما
اصوات الاجراس الا تسبيح بحمد القادر على كل شيء . وكذلك
محراب الجامع والكنيسة والهيكل والصليب كلها ليست في
الحقيقة الا اشكالاً مختلفة لحمد الله وعبادته .

فهذا القول ليس بقول رجل سكير معتوه يهذي بل هو
قول رجل حكيم طار باجنحة الحكمة الى ما فوق عادات البشر
وتقاليدهم . ومن العجيب ان يلتقي الحيام في هذا الموضوع
بالامام المشهور العارف بالله الشيخ محي الدين بن العربي الذي
يقول من قصيدة :

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي
اذا لم يكن ديني الى دينه داني

وقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف
والواح توراة ومصحف قرآن

ادين بدين الحب اننى توجهت
ركائبه ، فالدين ديني وإيماني

قوله فالدين يعني الدين المطلق وهو ما يسميه فلاسفة أوروبا
« الديانة الطبيعية ». فرحم الله الامام التقي الشيخ محي الدين على
هذا القول الجميل الذي اظهر به تساهلاً تطرب له عظام
الفيلسوف رينان في قبرها . وغفر الله للخيام بهذا كثيراً
من سيئاته .

كيف تصور الخيام

وكان الخيام مشهوراً في بلاد الفرس والعرب بعلم الرياضيات
والفلك ، ولكن شهرته بالشعر كانت اعظم واوسع . فان بني
عصره من الفرس على الخصوص كانوا يلتقطون رباعياته
ويتناقلونها من بلد الى بلد ومن منزل الى منزل فتملأ البلاد
سروراً بما فيها من الدعوة الى لذة الحياة والتمتع بالطيبات



والتغزل بالنساء والخمر والهوى النفساني الشديد الذي لم يصفه
 احد كما وصفه الخيام . وهنا موضع للسؤال عن غرض الخيام
 من شعره هذا . وقد انقسمت الآراء في ذلك الى ثلاثة : الرأي
 الاول ان الخيام كان يتغزله في الخمر ودعوته الى ملاذها لا
 يقصد الا مقاومة الشرائع الدينية . قال المسيو درمستتر
 المستشرق المشهور في حكمه على الخيام : ان اغاني اوروبا
 الخمرية ليست الا اغاني جماعة من السكويرين . اما اغاني الفرس
 الخمرية فهي بمثابة حرب تُشهر على التقاليد الدينية الضاغطة على
 طبيعة الانسان وحرية وثورة عليها . فشرب الخمر عندهم عبارة
 عن طلب الحرية . والرأي الثاني وهو رأي كثيرين من الفرس
 قالوا به بعد وفاة الخيام انه انما كان يتغزل بالخمر الالهية لا
 خمر الكرم . فان هذه الخمر عند الصوفية عبارة عن رمز الى
 الحمرة الالهية . ولكن يكفي لرد هذا الرأي ان الخيام كان
 والصوفية على طرفي نقيض . وما جاز قوله في ابن الفارض لا
 يجوز في الخيام . ولقد حكم المسيو باربيه دي مينار المستشرق
 المشهور في هذه الآراء حكماً مبهماً فقال : سواء كان هذا
 الكتاب ، يعني رباعيات الخيام ، اعتراضاً على التقاليد الاسلامية
 او كان ثمرة تصورٍ عليلٍ وخليطاً غريباً من الشك والتهم
 والنفي المؤلم فانه من الغريب المدهش ان نجد في بلاد الفرس



منذ القرن الحادي عشر رجلاً سبقوا جوت وهنري هين الى
كثير من افكارهما .

فبعد ما تقدم تظهر لنا صورة الحيام بعد ثمانية قرون من
وفاته واحدة من اثنتين : فاما انه رجل كبير من رجال العقل
والنقد كان يطلب محاربة التقاليد والالوهام ليطلق العقل البشري
من عقاله ويهدم النظام الاجتماعي الذي كان في عصره لانه قائم
على ظهور الصغار لمنفعة الكبار ، واما انه رجل منتفخ الجسم
دموي المزاج شديد الشهوة الى المسكرات وما وراءها ، اتخذ
حرية عقله سبيلاً الى اتباع شهواته حين لم يجد وراء هذه الحرية
شيئاً . وهذا شأن النفوس الصغيرة التي تطلب تحرير عقولها
والانطلاق من قيد المعتقد لتبيع لنفسها المرح في ميدان الملاذ
والشهوات في هذه الدنيا . وحينئذ يكون بين الحيام وبين أبي
العلاء المعري فيلسوف شعراء العرب وحكيمها من الفرق ما
بين التراب والتبر . فان المعري كان يبحث في تحرير عقله ونفسه
ليضعهما تحت نير اشد واصعب من نير الدين وهو نير الحكمة
وكرهه الشر والتقوى الادبية التي تقوم عند العقلاء المخلصين
متى كانت حقيقية مقام الشريعة الدينية والتقوى الدينية .

شهرته في اوروبا واميركا

ولقد عاصر الحيام كثيرين من علماء العرب وفلاسفتهم ،

اشهرهم الفيلسوف ابن سينا، وحجة الاسلام الامام الغزالي و ابو
العلاء المعري . ولم نعث في اثناء مطالعتنا انه التقى بابن سينا
ولا بالمعري . فان ابن سينا توفي وعمر الخيام ٢٠ سنة كما تقدم،
وانما وجدنا ان الخيام توفي وهو يقرأ الشفاء كتاب ابن سينا
المشهور . اما المعري فقد كانت وفاته في عام ٤٤٩ للهجرة كما
روى ابن خلكان . وحيث ان الخيام ولد في سنة ٤٠٨ فيكون
عمره يوم وفاة أبي العلاء ٤١ سنة . وانما ذكرنا هذه التفاصيل
للسبب التالي :

اطلع علماء اوروبا منذ سنة ١٧٤٢ للميلاد على معارف
الخيام الرياضية والفلكية بما نقله عنه المسيو جيرار ميرمان في
كتاب له نشره في لندن . وفي سنة ١٨٥١ م نشر سديلو
وشاسل ووبك ترجمة رسالة الخيام في الجبر وهي خمسة اقسام .
وفي سنة ١٨٥٧ نشر المسيو كارسين دي تاسي شرحاً على رباعيات
الخيام . وفي سنة ١٨٦٧ نشر المسيو نقولا الرباعيات نفسها
باللغة الفرنسية . والمسيو نقولا هذا يعتقد في الخيام انه كابن
الفارض متغزل بالحمرة الالهية . وقد قال في مقدمة كتابه انه
تلقى هذا الرأي من رجل تقي من طهران . وفي سنة ١٨٩٨
ترجم تشوفوسكي الرباعيات الى اللغة الروسية . غير ان الترجمة
التي اطارت شهرة الخيام في اوروبا واميركا والعالم اجمع هي

ترجمة الشاعر الانكليزي فيتس جرالڊ للرباعيات في سنة ١٨٥٩ .
فان جرالڊ ترجم الرباعيات شعراً انكليزياً وتصرف بالترجمة
فاعجب الانكليز والاميركان بشعر الحيام وانبلوا عليه اقبالاً
عجيباً لانهم وجدوا فيه ما يعجبهم بالاكثر في شاعرهم بيرون
وسوينبر من الآراء السامية في ذم الفساد في الدنيا وسطوة
الشر على الخير والقيبح على الجميل فيها . فقال المترجم جرالڊ
هذه الترجمة شهرة واسعة وراجت كتبه وشعره بواسطتها
رواجاً كثيراً . وقد بلغ ببعضهم الاعجاب بالحيام ومترجمه ان
اجتمعوا في لندن في سنة ١٨٩٦ وانشأوا نادياً خصوصياً دعوه
كلوب العمريين نسبة الى عمر الحيام . ولعل هذا الكلوب لا
يزال قائماً حتى اليوم . واول ما ظهرت الرباعيات في اوروبا
واميركا سمى قراؤها الحيام فولتير الشرق .

ويظهر ان الشهرة التي نالها الحيام في انكلترا على الخصوص
قد نال مثلها في اميركا ايضاً . وهنا وصلنا الى السبب الذي
جعلنا نقرن اسم الحيام باسم أبي العلاء المعري على ما تقدم . فان
احد الكتاب السوريين المجيدين في اللغة العربية والانكليزية في
نيويورك ظهر له ان الحيام مستمد كثيراً من افكاره وآرائه
الدينية من شعر أبي العلاء المعري ، ولذلك ترجم الى اللغة
الانكليزية شيئاً من شعر أبي العلاء بعنوان «رباعيات أبي العلاء»



ونشره في نيويورك . ومن المحتمل ان يكون كل من الخيام
وابي العلاء قد روي شعر صاحبه الا اننا لا نجزم بان الخيام قد
تحدثي المعري واقتبس شعره . والاصح انهما كلاهما كانا يتناولان
الهاماتهما من مصدر واحد وهو العقل وحب الحرية والبحث ،
ذلك الحب المشترك بين جميع النفوس وانما ينقطع اليه بعضها
دون بعض بحسب استعدادها والمؤثرات التي تؤثر فيها .

ابن رشد وفلسفته

بين الفلاسفة مسألة يسمونها مسألة انكار العدالة في العالم أو اثباتها . فمنهم فريق يرى ان العالم انما هو عبارة عن بطون تدفع وارض تبلغ فلا نظام ولا ناموس وانما الحياة عراك شديد بين البشر يتغلب فيه القوي ويسقط الضعيف . وليست الفضيلة والخير والصالح شرطاً للانتصار في هذا العراك وانما القوة هي الشرط الوحيد . وبناءً على ذلك كثيراً ما تسليحت الرذيلة بالقوة فانتصرت اعظم انتصار وانكسرت امامها الفضيلة اقبح انكسار . وكفى دليلاً على ذلك سقراط واريستيدس وابن الانسان سيد البشر . أفما سقى الاثينيون سقراط سمّاً لانه جهر بحقيقة من ابسط الحقائق وهي وحدانية الخالق ؟ اما اهانوا اريستيدس مثال الصدق والاستقامة ونفوه من وطنه من اجل صدقه ؟ فهل كانت الفضيلة تسقط هذا السقوط وتُداس بهذه الوقاحة لو كان في الكون عدالة ساهرة ؟

فيردّ على ذلك انصار العدالة بقولهم وهم يبتسمون : انحسبون ان سقراط كان مغلوباً مع الاثينيين ؟ كلا بل انه انتصر عليهم

وان كان قد شرب السم من ايديهم . ذلك ان الانتصار الحقيقي لا يتوقف على ظلم ساعة ولا على عذاب يوم . قال الفيلسوف بلوتين : مم تشكو ايها الانسان ؟ أمن ظلامه ؟ ولكن ما تأثير الظلامه في النفس الخالدة ؟ وظلامه الاثنيين لم تضر سقراط بل عاد شرها عليهم . ذلك ان كل فرد من افراد الانسانية منذ تلك الحادثة الفظيعة الى هذه الايام لا يُذكر على مسمع منه اسم سقراط واسم الاثنيين الا ويعظم الحكيم سقراط ويحقر اولئك الذين سموه . اذاً فمن الغالب ومن المقلوب من الفريقين ؟ أليس الغالب ذلك الذي يعيش ذكره مبيجلاً معظماً في نفوس بني البشر الى آخر القرون والاجيال ؟ وهل تريدون دليلاً افضل من هذا على انه ليس بالامكان ابداع مما كان ، كما قال الامام الغزالي ، وعلى وجود عقل عام يدبر الكون بمباديء ونواميس ثابتة ويجعل النصر فيه للفضيلة دائماً ولو بعد حين ؟

اذا رمت دليلاً آخر فاليكم ابن رشد فيلسوف الاسلام العظيم ، فان معاصريه كفروه ومنعوا كتبه واهانوه ونفوه . ولكن اي شأن لهذا كله في نظر العاقل الحكيم الذي ينظر الى جواهر الامور لا الى اعراضها ؟ الا ينسى ابن رشد كل تلك الهنات الصغيرة اذا تسنى له ان يشاهد من مكانه الابدي ما يقوله البشر عنه اليوم في اللغة العربية وغيرها ؟

واليك ترجمة هذا الفيلسوف العربي الذي يعتقد الافرنج انه
الفيلسوف الحقيقي الوحيد الذي نبغ في الاسلام :

ترجمته

هو ابو الوليد محمد بن احمد بن رشد، وكانت أسرته من
اكبر الاسر في الاندلس (اسبانيا) وقد ولي ابوه وجده منصب
قاضي القضاة فيها . وكانت ولادة صاحب الترجمة في قرطبة في
سنة ٥٢٠ هجرية ١١٢٦ مسيحية وتوفي في بلاد المغرب (مراكش)
في ٩ صفر من سنة ٥٩٥ هجرية وعمره ٧٥ سنة .

وقد تلقى ابن رشد في صغره علم الكلام وهو في الدين
الاسلامي بمنزلة اللاهوت في الدين المسيحي . غير ان عقله المطبوع
على طلب الحقيقة وحب التوسع في العلم لم يكتف بذلك فاقبل
برغبة شديدة ونشاط عظيم على درس الطب والرياضيات والفلسفة .
وكانت مدارس قرطبة والاندلس في ذلك الزمان مصابيح علم
وهدى لجميع الامم .

وما شبَّ ابن رشد فجعل قاضياً في قرطبة . وكانت دولة
الموحدين قد اسقطت دولة المرابطين في مدة شبابه وحلت محلها .

وكان ابن طفيل صديق ابن رشد من اعظم اخصاء الدولة الغالبة،
 فقرب صديقه من الخليفة يوسف الذي خلف الخليفة عبد المؤمن.
 وفي سنة ٥٤٨ هجرية عبر ابن رشد البحر بين الاندلس وبلاد
 المغرب (مراكش) واقام فيها مساعداً على انشاء مدارسها
 واثارة مصابيح العلم فيها. وفي عام ٥٦٥ هـ جعل قاضياً لاشبيلية
 في الاندلس. وفي عام ٥٦٧ هـ عاد الى قرطبة، ثم سافر الى بلاد
 المغرب في عام ١١٨٢ وقد استدعاه اليها الخليفة يوسف وجعله
 طبيباً الخاص مكان ابن طفيل. ثم رفاه الى منصب قاضي القضاة
 في قرطبة عاصمة الاندلس، فترجع ابن رشد في كرسي ابيه وجده.

تكفيره

وفي عام ١١٨٤ للميلاد ولي يعقوب المنصور بالله الخلافة في
 الاندلس خلفاً ليوسف ابيه فبلغ صاحب الترجمة لديه اسمى
 منزلة في بدء حكمه. واصبح في ذلك الزمان سلطان العقول
 والافكار لا رأي إلا رأيه ولا قول إلا قوله. ولكنه مكتوب
 لكل اصحاب العقول الذين يمتازون عن البله والبلداء واصحاب
 الدعوى في هذا العالم ان يتكاثر حسادهم لسبب ولغير سبب.
 ولذاك حسد ابن رشد جماعة من الذين قصرُوا عن شق غباره
 وبلوغ منزلته، فوشوا به لدى الخليفة يعقوب المنصور بانه يجحد

القرآن ويعرض بالخلافة وينشط الفلسفة وعلوم المتقدمين بدلاً
 من الدين الاسلامي . ولا غرابة في هذه التهمة بعد انصراف ابن
 رشد الى الفلسفة وطلبه الحقيقة من طريق العقل في زمن كذلك
 الزمن ، وانما الغرابة ان لا تحدث يومئذ تهم كهذه التهمة . ولذلك
 فكل فيلسوف اهل لان يلقب بهذا اللقب يحتمل هذا العدوان
 من المعاصرة احتماله امراً طبيعياً لا مفر منه ولا مهرب . وبناءً
 على ذلك يكون اولئك الكبراء العظماء الذين عذبوا في بدء
 نشأة العلم في كل امة لاعتقادهم اعتقادات تناقض اعتقاد بسلطانها
 بمثابة شهداء يحق لهم علينا اليوم كل اكرام واحترام لانهم كانوا
 طليعة جيش العلم الذي لم ينصر الا بمجهادهم وبدمائهم ، حتى
 كأنهم ما خلقوا الا لتلقى على ظهورهم احمال العلم والانسانية
 كلها .

نصبه امام الجامع للبصق عليه

اما الخليفة يعقوب المنصور فانه لما رفعت اليه الشكوى
 على ابن رشد امر فاجتمع لديه اعظم فقهاء قرطبة وقضااتها . ثم
 طرح عليهم الخليفة قضية ابن رشد وقد حضر ابن رشد نفسه
 هذا الاجتماع . فقرر الفقهاء ان تعاليمه كفر محض ولعنوا من
 يقرأها وقضوا على صاحبها بالنفي من قرطبة . ومن الاسف

العظيم ان لا يكون لدينا تفصيل هذه الجلسة التي جرت محاكمة
الفيلسوف فيها . فنفي ابن رشد الى لوسنه وهي بلدة قريبة من
قرطبة وقضي عليه بالتزامها وعدم الخروج منها . وهنا اختلفت
الرايات ، فمن قائل ان ابن رشد اقام فيها حتى رحل الخليفة
يقرب المنصور الى بلاد المغرب ، ومن قائل انه سار منها يروم
الخلاص من الاسر فقبض عليه في فاس واورق على باب الجامع
ليبصق عليه الناس في دخولهم وخروجهم . فاذا كان هذا الخبر
صحيحاً فقد اهينت الفلسفة والحكمة والعقل في شخص ابن رشد
انبح اهانة ، وذلك مما يجعل له حقاً جديداً في الكرامة والاحترام
فوق حقه الفلسفي الكبير .

ولسنا نزعم انه يجوز لكل واحد من العلماء ان يضع مذهباً
جديداً ويدعو الناس اليه وان كان مناقضاً لمعتقدات الناس ،
وهو دماً لاساسها . كلا فان ذلك امر لا يخلو من مضرة من بعض
الوجوه وان كان نافعاً من وجوه اخرى . ولكن كما انه لا
يجوز للعالم الجالس في غرفته وراء مائدته وهو يبحث باخلاص
وامعن عن الحقيقة او ما يظنه حقيقة ، ان يدعو الناس الى
ترك ما في ايديهم للتمسك بالامر الجديد الذي يظن انه قد وجده
وبحقت كل من لا يعتقد معتقده ، كذلك لا يجوز للناس ان يمنعوا
العقل البشري من الانطلاق في جو الفكر لطلب الحقيقة والعلم



والنور بالآلات العقلية التي منحه الله اياها دون تضيق على هذه
 الآلات او ايقافها في مجراها . ولا ريب ان الامر الاول ضرب
 من الغرور والطيشة اذ ليس في العالم احد قادراً على اثبات
 ان الحقيقة في يده ومعتقده . ولذلك يجب على كل واحد من
 البشر ان يحتمل رأي غيره وان كان مخالفاً لرأيه . وهذا
 واسفاه لقصور العقل البشري وضيق ذراعه عن الاحاطة بفضاء
 الاسرار الالهية التي امامه . ولكن اذا كان الامر الاول غروراً
 وطيشة فالامر الثاني ضرب من ضروب الكفر بنعم الله تعالى
 لانه يقتضي اطفاء نور العقل الذي خلقه الله ووضعه في الانسان
 كما توضع المنائر على شواطئ البحار . افتطفئون المنارة في
 الانسان ثم تقولون له سر واعتقد انك سائر في الطريق القويم ؟

عوده الى مقامه

وليس يسوء الحق شيء مثل اتخاذ الهوى مركباً في امور
 مقدسة كهذه الامور . فانه اذا كان كل معارض ومعترض
 يعارض ويعترض دفاعاً عن مبادئ مقررة في نفسه وهو يقوم
 بهذا الدفاع ولا غرض له غير طلب الحقيقة المجردة فهذه المعارضة
 وهذا الاعتراض امر مقدس يجب على كل عاقل ان يحترمه .
 ولكن من سوء حظ البشر انهم يقدمون الهوى دائماً على الحق .

وقلمما تجد شهيداً من شهداء العلم الذين بذلوا في سبيله كل من نخص
 وغال الا وتري انه كان للحسد اليد الطولى في معارضة
 واضطهاده . والذي يدل احسن دلالة على ان تكفير الفيلسوف
 ابن رشد كان من هذا القبيل ان المنصور لما عاد من قرطبة الى
 بلاد المغرب (مراکش) ووجد نفسه بعيداً عن اعداء ابن رشد
 الذين اثروا فيه فجعلوه يكفروه وينفيه ذكر فضل هذا الفيلسوف
 الكبير وعلمه وسعة صدره وحسن اخلاقه فامر من المغرب بالغاء
 الحكم الذي حُكم به عليه وباباحة الفلسفة والاذن للناس في
 الاشتغال بها . فعادت الى فيلسوف الاندلس كرامته ومنزلته ،
 ولكنه لم يتمتع بهما بعد ذلك مدة طويلة اذ ادركته المنية في
 بلاد المغرب فدفن فيها . وبعد ذلك نُقلت جثته الى قرطبة التي
 تفتخر به لانها مسقط رأسه .

مؤلفاته

كان ابن رشد مولعاً بالتأليف والمطالعة ولم يكن له لذة في
 غيرهما . ولقد تمنى ان ينقطع عن منصبه اليهما لو ان ذلك كان
 في امكانه . وكان يقول في كتبه انه يشبه رجلاً اتصلت النار
 بمنزله فاحذ يخرج منه اهم اثاره شيئاً فشيئاً .
 اما مؤلفاته فهي كثيرة يضيق المقام دون تعدادها كلها .

فكتفي اذاً بذكر كتبه الجلية التي جعلت له في عالم الفلسفة
والعلم هذه الشهرة الطاهرة . وهذه الكتب قسمان : قسم في
الطب وقسم في الفلسفة . فشهرته في العالم مبنية اذاً على هاتين
الصناعتين : الطب والفلسفة . على انه قد ألف ايضاً في علم
الكلام والصرف والفقه وعلم الفلك عدة مؤلفات ، منها في علم
الفلك مختصر المجسطي ، وفي الفقه كتاب دروس كاملة ، وفي
الطب الكليات وهو ستة اجزاء تتضمن دروساً كاملة في صناعة
الطب ، ولقد بقي لهذا الكتاب اهمية كبرى مدة طويلة ، على ان
اهم كتبه كلها شروح اريسطو التي بلغ بها مؤلفها اسمى منزلة .

شرحه اريسطو

ولقد قلنا مؤلفها ولم نقل مترجمها لان ابن رشد لم يترجم
فلسفة اريسطو ولكنه شرحها شرحاً . ولقد اخطأ من قال انه
ترجمها لان ابن رشد لم يكن يحسن اللغة اليونانية فضلاً عن انه
كان في دار الخلافة في الاندلس اطباء من النساطرة الذين كانوا
قد ترجموا كتب اريسطو الى اللغة العربية . وكان كثيرون
من علماء السريان والكلدان قد ترجموا هذه الكتب الى العربية
قبل عصر ابن رشد بثلاثة قرون . فلا ريب ان فيلسوف
الاندلس قد اعتمد في شرح اريسطو استاذه واستاذ فلاسفة العالم
الى عهد باكون على هؤلاء المترجمين .



وقد شرح ابن رشد فلسفة ارسطو بطرق ثلاث : الاولى
الشرح الوجيز . والثانية الشرح المتوسط او الواسطة . والثالثة
الشرح الكامل او المطول .

اما الشرح الصغير فان ابن رشد يتناول فيه مواضيع
ارسطو ويؤلف فيها من عند نفسه مقالات في غاية الاهمية .
فهو في هذا الكتاب مؤلف لا شارح . واما الشرح المتوسط
فانه يذكر في صدر كل فصل منه بضع كلمات من كتاب
ارسطو ، ثم ينطلق في الشرح والتأليف فيختلط قوله بقول
ارسطو حتى يصعب فصلهما . واما الشرح المطول فان ابن رشد
يذكر فيه فقرات ارسطو فقرة فقرة ثم يشرح اجزاءها شرحاً
كافياً . ومما لا ريب فيه ان ابن رشد لم يكن يضع الشرح
الكبير إلا بعد فراغه من الشرح الصغير . وقد قال فلاسفة
الافرنج ان ابن رشد اعظم فلاسفة القرون الوسطى الذين تبعوا
ارسطو وشرحوا اقواله .

ومن الكتب التي نقلها عن ارسطو ما يلي : الكون
والفساد ، وما وراء الطبيعة ، والبرهان ، والنفس ، والاخلاق ،
والسما ، والكون ، وغيرها . وله ايضاً كتاب التهافت وهو
رد على كتاب الامام الغزالي عنوانه : تهافت الفلاسفة .

وبما يحق لابناء اللغة العربية ان ينجلوا منه انهم اذا طلبوا
كتب هذا الفيلسوف بين ما طبع ونشر من الكتب بلغتنا في
النهضة الحديثة لم يجدوا شيئاً منها . ولما قامت شركة طبع الكتب
العربية في القاهرة لاحياء المؤلفات القديمة الجليلة الشأن اعرضت
عن مؤلفات هذا الفيلسوف كل الاعراض مع انه كان يجب جمل
كتبه في مقدمة الكتب التي طبعتها . وذلك لعدة اسباب ،
اولها ان القراء اكثر اقبالاً عليها منهم على سواها كما ظهر بعد
الاختبار . وثانياً لانها اهم الكتب العربية على الاطلاق وحسبك
انها كتب الفيلسوف الحقيقي الذي نبغ في الاسلام . وثالثاً
لانه كان يجب في هذا العصر الذي جاز العلم فيه كل ما قام في
سبيله من العثرات وظهر مصباحه ساطعاً من وراء الظلمات ان
يكون صوت ابن رشد الجمهوري ، ذلك الصوت الذي حاول
الناس خنقه ولم يفلحوا ، اول صوت يطرق مسامع الابناء
ليذكروهم بمجد الاجداد القديم لعلهم يذكرون عنده الاسباب التي
محت ذلك المجد فيجتنبونها والامور التي نقلته منهم الى تلامذتهم
الاوروبيين فيقتبسوها . فانه لا اعرف من ابن رشد بتلك
الاسباب وهذه الامور ولا ارشد من كتبه اليها وادل منها عليها .
اما الافرنج فانهم عنوا بترجمة كتب ابن رشد اشد عناية

فترجمت مؤلفاته كلها الى اللغة اللاتينية، لغة العلم والعلماء في ذلك الزمان : وكذلك الاسرائيليون فانهم ترجموا كتبه الى العبرانية لانهم كانوا من حملة العلم في اسبانيا واوروبا . وكان منهم اكثر تلامذة ابن رشد . ويكفي لبيان الاهمية التي كانت لهذا الفيلسوف لدى الافرنج في صدر تمدنهم ان نقول ان في مدينة البندقية وحدها اليوم اكثر من ٥٠ طبعة من مؤلفاته .

فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود

وقبل ايضاح فلسفة ابن رشد نأتي على آراء المتكلمين الذين عارضوها اذ في هذه المقابلة تمام الفائدة فنقول :
ان المتكلمين، اي علماء الكلام في الدين الاسلامي، قد وضعوا فلسفة خاصة بهم . وربما لم يكن من الصواب ان تُدعى تعاليمهم فلسفة لانها عبارة عن مباحث دينية محضة، ولكن كل ما جرى فيه كلام عن الخالق عز وجل وعالم الغيب وما وراء الطبيعة فهو فلسفة . ومن المعلوم ان كلمة فلسفة يونانية الاصل وهي مشتقة من كلمتين : فيلوس ومعناها محبة، وسوفيا ومعناها الحكمة . فالفلسفة معناها اذاً محبة الحكمة . وهل في عالم الفكر الذي هو اشرف العوالم شيء يستحق ان يُسمى حكمة غير البحث في اصل الحكمة ومصدرها الاعلى ؟

فلسفة المتكلمين هذه مبنية على امرين : الاول حدوث المادة في الكون اي وجودها بمخلق خالق . والثاني وجود خالق مطلق التصرف في الكون ومنفصل عنه ومدير له . وبما ان الخالق مطلق التصرف في كونه فلا تسأل اذاً عن السبب اذا حدث في الكون شيء لان الخالق نفسه هو السبب وليس من سبب سواه . اذاً ولا يلزم عن ذلك قطعياً ان يكون بين حوادث الكون روابط وعلاقات كأن ينتج بعضها عن بعض ، لان هذه الحوادث تحدث بأمر الخالق وحده . وفي الامكان ان يكون العالم بصورة غير الصورة المصور بها الآن وذلك بقدرة هذا الخالق .

روح جديد عصري

هذا لباب تعاليم المتكلمين ولسنا الآن في مقام البحث فيها بل اننا نبسطها لمقابلتها بتعليم ابن رشد . وانما نقول في معرض الكلام انه يلوح لنا ان كثيرين من علماء الكلام المعاصرين ومن اخواننا الكتّاب المسلمين قد ادخلوا شيئاً من النظام في تلك الفوضى . فانا نطالع بامعان لا مزيد عليه كل ما تنشره رصيفتنا مجلة المنار الغراء من الدروس التي يلقيها فضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في الجامع الازهر تفسيراً للقرآن فنجد في كل صفحة من صفحاتها روحاً جديداً اذا تم

انتشاره كان بمنزلة اصلاح عظيم في العالم الاسلامي . ومقتضى
هذا الروح الجديد تقييد الكون بنواميس طبيعية وضعها الخالق
له فلا يحدث شيء في العالم الا بها . غير ان الاستاذ لا يذهب في
ذلك مذهب الماديين الالهيين الذين يعتقدون ان الله سبحانه
وتعالى قد خلق نواميس الكون واجراها في مجراها الطبيعي
وقضى بان لا تخرج عنه ابداً . كلا لانه يعتقد ان الخالق الابدی
الذي وضع تلك النواميس قد ينقضها حيناً من الزمن كلما شاء
وذلك من اجل المرسلين الذين يختارهم لاصلاح حال البشر
وهدايتهم الى منافعهم . ومهما يكن من هذا الأمر فكفى هذا
الرأي اهمية وجلالاً انه يجعل للكون نظاماً طبيعياً ثابتاً يجري
عليه . فالبشر الذين يدرسون هذا النظام ويعملون به ينعمون
ويسعدون في هذه الحياة ، والذين يجهلون ويخالفونه استناداً الى
ان الخالق يفتقدهم وهم جالسون في بيوتهم سواء سعوا ام لم
يسعوا فانهم يشقون وينحطون . ولقد كان علماء الاديان في
العصور المتقدمة ينكرون هذا الرأي ويكفرون صاحبه لاعتقادهم
انه غير لائق بالخالق عز وجل . اما اليوم فلم يبق مجال لهذا
الانكار بعد الاكتشافات العلمية التي كشفت النقاب عن وجه
النواميس الطبيعية التي تحكم الكائنات كلها من جماد وحيوان
ونبات . واكن ليس الفضل للبشر اليوم في التسامح وقبول



هذا المبدأ الصحيح الجديد ، وإنما الفضل لأولئك الذين خاطروا
في العصور المتقدمة في كل ملة وامة بمناصبهم وحياتهم وكراماتهم
ولمن يجذو حدودهم في هذا العصر لا يصل عالمنا المطبوع على الجبل
والقسوة والتعصب الى هذه الدرجة من الاعتدال والتسامح
ومعرفة الحقائق الازلية الابدية .

فلسفته وزاوية في المادة وخلق العالم

أما فلسفة ابن رشد قائمها تشافض الفلاسفة التي تقدمت .
واليك خلاصة منها :

المادة وخلق العالم

إن أعظم المسائل التي شغلت حكيم قرطبة مسألة أصل
الكائنات . وهو يرى في ذلك رأي أريسطو ، فيقول : إن كل
فعل يُفضي الى خلق شيء إنما هو عبارة عن حركة . والحركة
تقتضي شيئاً لتحركه ويتم فيه بواسطتها فعل الخلق . وهذا الشيء
هو في رأيه المادة الأصلية التي صنعت الكائنات منها . ولكن
ما هي هذه المادة ؟ هي شيء قابل للانفعال ولا حد له ولا اسم
ولا وصف . بل هي ضرب من الافتراض لا بد منه ولا غنى
عنه . وبناءً عليه يكون كل جسم ابدياً بسبب مادته أي أنه



لا يتلشى ايداً لان مادته لا تتلشى ايداً . وكل امر يمكن انتقاله من حيز القوة الى حيز الفعل لا بدءاً له من هذا الانتقال وإلا حدث فراغ ورقوف في الكون . وعلى ذلك تكون الحركة مستمرة في العالم ، ولولا هذه الحركة المستمرة لما حدثت التحولات المتتالية الواجبة لخلق العالم بل لما حدث شيء قط . وبناء عليه فالعامل الاول الذي هو مصدر القوة والفعل ، اي الخالق سبحانه وتعالى ، يكون غير مختار في فعله لان الحرية والاختيار يقتضيان كونه محدثاً والخالق تنزه عن ان يكون محدثاً .

اتصال الكون بالخالق

هذا فيما يختص بخلق العالم . وهو مذهب قريب جداً من مذاهب الماديين كما ترى . ولكن كيف يستولي العامل الاول على الكون ويديره ؟

لابن رشد في ذلك تشيل يدل على حقيقة مذهبه في هذه المسألة الخطيرة . فانه يشبه حكومة الكون ، اي تديره ، بحكومة المدينة . فانه كما ان كل شؤون المدينة تتفرق وتتجه الى نقطة واحدة وهي نقطة الحاكم العام فيها فيكون هذا الحاكم مصدراً لكل شؤون الحكم ولو لم تكن له يد في كل شأن من هذه

الشؤون كذلك الخالق في الاكوان فانه نقطة دائرتها ومصدر
القوات التي تدبرها وان لم يكن له دخل مباشرة في كل جزء
من هذه القوات . فبناءً على ذلك لا يكون للكون اتصال
بالخالق مباشرة ، وانما هذا الاتصال يكون للعقل الاول وحده .
وهذا العقل الاول هو عبارة عن المصدر الذي تصدر عنه القوة
للكواكب . وعلى ذلك فالسما في رأي فيلسوف قرطبة كون
حي بل اشرف الاحياء والكائنات . وهي مؤلفة في رايه من
عدة دوائر يعتبرها اعضاء اصلية للحياة . والنجوم والكواكب
تدور في هذه الدوائر . اما العقل الاول الذي منه قوتها وحياتها
فهو في قلب هذه الدوائر . ولكل دائرة منها عقل اي قوة
تعرف بها طريقها كما ان للانسان عقلاً يعرف به طريقه . وهذه
العقول الكثيرة المرتبطة بعضها ببعض والتي تلي بعضها بعضاً
محكومة بعضها ببعض انما هي عبارة عن سلسلة من مصادر القوة
التي تحدث الحركة من الطبقة الاولى في السماء الى ارضنا هذه .
وهي عالمة بنفسها وبما يجري في الدوائر السفلى البعيدة عنها .
وبناءً على ذلك يكون للعقل الاول الذي هو مصدر كل هذه
الحركات علم بكل ما يحدث في العالم .

طريق الاتصال

وان قيل ما هي علاقة الانسان بالخالق ، فالجواب عن ذلك



يأخذه ابن رشد أيضاً عن أرسطو من الفصل الثالث من كتابه
النفس . وخلاصة ذلك ان في الكون عقلاً فاعلاً وعقلاً منفعلاً .
فالعقل الفاعل هو عقل عام مستقل عن جسم الانسان وغير قابل
للامتزاج بالمادة . واما العقل المنفعل فهو عقل خاص قابل للفناء
والتلاشي مثل باقي قوى النفس وانما يقع العلم والمعرفة باتحاد
هذين العقلين . ذلك ان العقل المنفعل يميل دائماً للاتحاد بالعقل
الفاعل كما ان القوة تقتضي مادة تنفذ فيها والمادة تقتضي شكلاً
توحد به . واول نتيجة تحصل من هذا الاتحاد تدعى العقل
المكتسب . ولكن قد تتحد النفس البشرية بالعقل العام اتحاداً
اشد من هذا فيكون هذا الاتحاد عبارة عن امتزاجها جد
الامتزاج بالعقل القديم الازلي . ولا يتم هذا الاتحاد بالعقل
الاكتسابي الذي تقدم ذكره فانما وظيفة العقل الاكتسابي ايصاله
الى حرم الخالق الازلي دون ان يدغمه به . واما ادغامه
واتصاله به فذلك امر لا يتم الا بطريق العلم . فالعلم اذاً هو
سبب الاتصال بين الخالق والمخلوق . ولا طريق غير هذا
الطريق . ومتى اتصل الانسان بالله صار مثله عارفاً بكل شيء
في الكون ولم يعد يفوته شيء . ولكن كيف يتصل الانسان
بالله ؟ يتصل به بان ينقطع الى الدرس والبحث والتنقيب ويحرق
بنظره حجاب الاسرار التي تكتنف الكون، فانه متى خرق هذا



الحجاب ووقف على كنه الامور وجد نفسه وجهاً لوجه امام الحقيقة الابدية .

اما المتصوفة فـانهم يقولون ان هذا الاتصال يتم بواسطة الصلاة والتأمل والتجرد وليس العلم ضرورياً له .

وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادي قاعدته العلم . والكون في رأيه كما مر بك انما صنع بقوة مبادئ قديمة مستقلة محكومة بعضها ببعض وكلها مرتبطة ارتباطاً مبهماً بقوة عليا . ومن هذه المبادئ شيء يستولي على العالم ويضع فيه العقل ، فهو عقل الانسانية . وهذا الشيء الذي يسميه عقلاً ايضاً هو عقل ثابت لا يتغير ، اي انه لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص . والناس يشتركون فيه ويستمدون منه بكميات متباينة . على ان من كان منهم اكثر استمداداً منه كان اقرب الى الكمال والسعادة .

الخلود

ولكن هل ان نفس الانسان خالدة ام لا في هذا المذهب ؟

وهل كان ابن رشد يعتقد بحياة ثانية ؟

ربما كان لابن رشد جوابان على هذه المسألة الخطيرة التي هي

الآن دعامة عظيمة من دعائم الانسانية . فانا في اثناء مطالعتنا

لبعض كتبه قبل الاقدام على ترجمته رأينا له في عدة مواضع كلاماً يدلُّ اصرح دلالة على اعتقاده بالحياة الثانية حتى بالعقاب والثواب ايضاً . فعجبنا كل العجب من تكفير الناس رجلاً يرى هذا الرأي . ولكننا لما وصلنا الى مذهبه الفلسفي ورأينا متابعته لارسطو فيما يختص باعتقاده بالنفس وخلق الكون تغير وجه المسألة . ذلك ان ابن رشد كان يكتب هنالك كرجل مؤمن خاضع لتقاليد آباءه واجداده ، فهو يكتب بقلبه لا بعقله . اما عند بحثه بالعقل عن مصدر العقل وعلة العلل فقد كان يكتب كفيلسوف يدخل بجرأة الاسد الى كهف الحقيقة المحجبة ولا يبالي . ولذلك قلنا انه ربما كان له في ذلك جوابان .

اما الجواب الاول فيما يختص بالعقاب والثواب فهو قول مشهور وانما يزيد عليه ابن رشد وجوب التأويل . واما جوابه الثاني ، اي الجواب الفلسفي الذي طلبه بالعقل دون سواه ، فاليك خلاصته :

قال : ان العقل الفاعل العام الذي تقدم ذكره من صفاته انه مستقل ومنفصل عن المادة وغير قابل للفناء والملاشاة . والعقل الخاص المنفعل من صفاته الفناء مع جسم الانسان . وبناء عليه يكون العقل العام الفاعل خالداً والعقل المنفعل فانياً . ولكن ما هو العقل الفاعل العام الذي هو خالد في رأي

ابن رشد ؟ ان هذا العقل الخالد هو العقل المشترك بين الانسانية .
فالانسانية اذاً هي خالدة وحدها دون سواها . وبناء على ذلك
لا يكون بعد الموت حياة فردية ولا شيء مما يقوله العامة عن
الحياة الثانية .

فلسفته الادبية

اما الفلسفة الادبية فلم تشغل سوى حين ضئيل في مذهب
هذا الفيلسوف بازاء فلسفته المادية . وقد صرف همه في تلك
الفلسفة الى نقض مذاهب المتكلمين الذين يقولون ان الخير في
يد الله وانه يصنعه بالبشر حينما يشاء وكيفما يشاء وبقدر ما
يشاء من غير علة ولا سبب بل لان ارادته تقتضي ذلك . فمن
رأي ابن رشد في ذلك ان هذا المبدأ ينقض كل مبادئ العدل
والحق لان ذلك يجعل حكومة العالم فوضى ربما شقي فيها الحكيم
الفاضل وسعد الشرير اللئيم .

اما حرية الانسان فهو يذهب فيها مذهباً معتدلاً . فانه
يقول ان الانسان غير مطلق الحرية تماماً ولا مقيداً تماماً .
وذلك انه اذا نُظر اليه من جهة نفسه وباطنه فهو حر مطلق
لان نفسه مطلقة الحرية في جسمه ، ولكن اذا نُظر اليه من جهة
حوادث الحياة الخارجية كان مقيداً بها لما لها من التأثير في
اعماله .



وإتماماً للفائدة نلخص في هذه المقالة كتاباً لابن رشد عنوانه « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » ليقف القارئ على مذهب هذا الفيلسوف لفظاً ومعنى خصوصاً لأن هذا الكتاب متعلق بالموضوع الذي بحثنا هنا عنه . وغرض المؤلف في هذا الكتاب ثلاثة أمور : الأول اثبات أن الشرع الإسلامي يميز اعتبار الموجودات بالعقل وطلب معرفتها به ، أي النظر فيها نظراً فلسفياً . والثاني وجوب تأويل آيات القرآن التي ظاهرها يخالف البرهان والعقل . والثالث وجوب عدم ذكر هذه التأويلات في الكتب التي تكتب لعامة الناس لأن ذلك يجر العامة إلى الكفر . ولا ريب أنه بهذا القيد الأخير قد دل على اعتداله ورزاقته واضعف به حجج أعدائه اللهم إلا أن يكون غرضه فيه الخط من مقام الامام الغزالي الذي كان مقاماً للفلسفة اليونانية كما تقدم . وذلك لأن هذا الامام قد بسط تلك التأويلات في كتبه .

وقد ابتدأ المؤلف الكتاب الذي نحن في صده بقوله : أما بعد حمد الله بجميع محامده والصلاة والسلام على محمد عبده المطهر المصطفى ورسوله . وبذلك اعترف اعترافاً صريحاً بالأصلين

العظيم من اصول الدين الاسلامي الذي كان يتهمه حساده
بالمروق منه والزيغ عنه . ثم انه بعد ذلك يقول :

وجوب النظر بالقياس العقلي والاخذ عن غير المشار كين :
ان الموجودات انما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها . وانه كلما
كانت المعرفة بصنعتها اتم كانت المعرفة بالصانع اتم . وقد جاء
في القرآن : اعتبروا يا اولي الابصار . وهذا نص على وجوب
استعمال القياس العقلي او العقلي والشرعي معاً . وقوله : اولم
ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء ؟
وهذا نص بالحث على النظر في الموجودات . وقوله : وكذا
نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض ، الآية . وايضاً : افلا
ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت .
وايضاً : ويتفكرون في خلق السموات والارض .

قال : واذا تقرر ان الشرع قد اوجب النظر بالعقل في
الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتبار ليس شيئاً اكثر من
استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه ، وهذا هو القياس
او بالقياس ، فواجب ان نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس
العقلي . وليس لقائل ان يقول ان هذا النوع من النظر في
القياس العقلي بدعة اذ لم يكن في الصدر الاول من الاسلام ،
فان اكثر اصحاب هذه الملة مثبتون القياس العقلي الا طائفة



من الحشوية قليلة وهم محبوجون بالنصوص . وان كان لم يتقدم
احد ممن قبلنا بفحص عن القياس العقلي وانواعه فيجب علينا ان
نبتدىء بالفحص عنه وان يستعين في ذلك المتقدم بالمتأخر حتى
تكمل المعرفة به . وان كان غيرنا قد فحص عن ذلك فيسِّنْ
انه يجب علينا ان نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا
في ذلك . وسواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا او غير مشارك
في الملة فان الآلة التي تصحُّ بها التزكية ليس يُعتبر في صحة
التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملة او غير مشارك اذا
كانت فيها شروط الصحة . واعني بنير المشارك من نظر في هذه
الاشياء من القدماء قبل ملة الاسلام . ولما كان القدماء قد
فحصوا عن امر المقاييس العقلية اتم فحص فينبغي ان نضرب
بايدينا الى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك ، فان كان جواباً
قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منه غير
موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم .

نقول اما كلمة عذرناهم هنا فانها في الحقيقة كلمة فيلسوف
وهي اجمل ذلك القول الجميل .

ثم قال : لو فرضنا صناعة الهندسة في وقتنا هذا معدومة
وكذلك صناعة علم الهيئة (علم الفلك) ورام انسان واحد من
تلقاء نفسه ان يدرك مقادير الاجرام السماوية واشكالها وابعاد

بعضها عن بعض لما أمكنه ذلك ولو كان أذكى الناس طبعاً
 إلا بوحى أو شيء يشبه الوحي . وهذا أمر يتن بنفسه ليس في
 الصنائع العلمية فقط بل وفي العملية فإنه ليس منها صناعة يقدر
 أن ينشئها واحد بعينه ، فكيف بصناعة الصنائع وهي الحكمة ؟
 قد تبين من هذا أن النظر في كتب القدماء ، يعني الكتب
 اليونانية ، واجب بالشرع إذا كان مغزاهم في كتبهم ومقصدهم
 هو المقصد الذي حثنا الشرع عليه . وإن من نهى عن النظر
 فيها من كان أملاً للنظر فيها ، وهو الذي جمع امرين أحدهما
 ذكاة الفطرة والثاني العدالة الشرعية والفضيلة العلمية والخلقية ،
 فقد صدّ الناس عن الباب الذي دعا الشرع منه الناس إلى معرفة
 الله ، وهو باب النظر المؤدي إلى معرفته حق المعرفة ، وذلك غاية
 الجهل والبعد عن الله تعالى .

وجوب التأويل

ثم انتقل من هذه القضية بعد اثباتها إلى قضية التأويل فقال :
 وإذا كانت هذه الشرائع الإسلامية حقاً وداعية إلى النظر المؤدي
 إلى معرفة الحق فإننا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدي
 النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد
 الحق بل يوافقه ويشهد له . أي أن العلم موافق للدين كما أن

الدين موافق للعلم . وبناء على ذلك قال الفيلسوف : ونحن
نقطع قطعاً ان كل ما ادى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع ،
ان ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي ، واذا
اعتبر الشرع وتصفحنا سائر اجزائه وجد في الفاظ الشرع ما
يشهد بظاهره لذلك التأويل او يقارب ان يشهد . ولهذا المعنى
اجمع المسلمون على انه ليس يجب ان تحمل الفاظ الشرع كلها
على ظاهرها ولا ان تخرج كلها من ظاهرها بالتأويل . والسبب
في ورود الشرع فيه الظاهر والباطن هو اختلاف نظر الناس
وتباين قرائنهم في التصديق . والسبب في ورود الظواهر
المتعارضة فيه هو تنبيه الراسخين في العلم على التأويل الجامع
بينهما . ولهذا المعنى ورد في القرآن : هو الذي انزل عليك
الكتاب منه آيات محكمات . الى قوله : والراسخون في العلم .
وكثير من الصدر الاول قد نقل عنهم انهم كانوا يرون ان
للشرع ظاهراً وباطناً ، وانه ليس يجب ان يعلم بالباطن من ليس
من اهل العلم به ولا يقدر على فهمه مثلما روى البخاري عن
علي رضي الله عنه انه قال : حدثوا الناس بما يعرفون ، اتريدون
ان يكذب الله ورسوله ؟ ونحن نعلم قطعاً انه لا يخلو عصر من
الاعصار من علماء يرون ان في الشرع اشياء لا ينبغي ان يعلم
بحقيقتها جميع الناس .



ولكن هل أجماع الآراء في التأويل ممكن؟ قال الفيلسوف:
كلا. اذاً فما تقول في الفلاسفة من اهل الاسلام كابي نصر
وابن سينا، فان ابا حامد الغزالي قد قطع بتكفيرهما في كتابه
المعروف بالتهافت في ثلاث مسائل: اولاً في القول بقديم العالم.
ثانياً بانه تعالى لا يعلم الجزئيات، تعالى عن ذلك. ثالثاً في تأويل
ما جاء في حشر الاجساد واحوال المعاد. قال الفيلسوف في
ذلك: ليس تكفيره في ذلك قطعاً اذ قد صرح في كتابه
«التفرقة» ان التكفير بخرق الاجماع فيه احتمال. ثم تناول ابن
رشد مسألة علم الله بالجزئيات وهي المسألة الثانية فقال:

علم الخالق بجزئيات الامور

وقد نرى ان ابا حامد الغزالي قد غلط على الحكماء المشائين
فيما نسب اليهم من انهم يقولون انه تقديس وتعالى لا يعلم
الجزئيات اصلاً، بل يرون انه تعالى يعلمها بعلم غير مجانس
لعلمنا بها. وذلك ان علمنا معلول للمعلوم به فهم محدث بحدوثه
ومتغير بتغيره. وعلم الله بالوجود على مقابل هذا فانه علة
للمعلوم الذي هو الوجود، فمن شبه العلمين احدهما بالآخر فقد
جعل ذوات المتقابلات وخواصها واحدة وذلك غاية الجهل.

ونظر بعد ذلك في المسألة الاولى اي قدم العالم فقال ان فيها ثلاثة اقوال: طرفان وواسطة بين الطرفين . وقد اتفقوا في تسمية الطرفين واختلفوا في الواسطة . فاما الطرف الواحد فهو موجود وجد من شيء غيره وعن شيء اعني عن سبب فاعل ومن مادة . والزمان متقدم عليه اعني على وجوده ، ويدخل في ذلك النبات والحيوان والارض والهواء والماء وقد اتفق الجميع على تسميتها محدثة . واما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء ولا تقدم زمان . وهذا ايضاً اتفق الجميع من الفرقتين القدماء والاشعريين على تسميته قديماً وهو الله تبارك وتعالى فاعل الكل وموجده والحافظ له . بقيت الواسطة وهي: موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان ولكنه موجود عن شيء اعني عن فاعل وهذا هو العالم بأسره . والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم . والمتكلمون علماء الكلام متفقون ايضاً مع القدماء (اليونان) على ان الزمان المستقبل غير متناه وكذلك الموجود المستقبل وانما يختلفون في الزمان الماضي ، فالمتكلمون يرون انه متناه .

واصحاب هذه المذاهب ، من غلب عليه ما في الزمان من شبه

القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديماً ، ومن غلب عليه
ما فيه من شبه المحدث سماه محدثاً . وهو في الحقيقة ليس
محدثاً حقيقياً ولا قديماً حقيقياً ، فان المحدث الحقيقي فاسد ضرورة
والقديم الحقيقي ليس له عاقبة . ومنهم من سماه محدثاً ازلياً وهو
افلاطون وشيخته لكون الزمان متناهيّاً عندهم في الماضي .
فالمداهب في العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها
ولا يكفر .

وهذا كله مع ان هذه الآراء في العالم ليست على ظاهر
الشرع ، فان ظاهر الشرع اذا تُصَفَّح ظهر من الآيات الواردة في
الانبياء عن ايجاد العالم ان صورته محدثة بالحقيقة وان نفس
الوجود والزمان مستمر من الطرفين اعني غير منقطع ، وذلك ان
قوله تعالى : وهو الذي خلق السموات والارض في ستة ايام
وكان عرشه على الماء ، يقتضي بظاهره وجوداً قبل هذا الوجود
وهو العرش والماء ، ورمائاً قبل هذا الزمان اعني المقترن بصورة
هذا الوجود الذي هو عدد حركة الفلك . وقوله تعالى : يوم
تبدّل الارض غير الارض والسموات ، يقتضي ايضاً بظاهره
وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود . وقوله تعالى : ثم استوى الى السماء
وهي دخان ، يقتضي بظاهره ان السموات خلقت من شيء .
ولكن اذا كان التأويل واجباً فهو لا يكون في الاصول



مثل الاقرار بالله تبارك وتعالى وبالنبوات وبالسمعة الاخرية
والشقاء الاخروي، بل يكون في الفروع، وان كان في الاصول
فالمأول له كافر مثل من يعتقد انه لا سمعة اخروية ههنا ولا
شقاء، وانه انما قصد بهذا القول ان يسلم الناس بعضهم من بعض
في ابدانهم وحواسهم، وانها حيلة، وانه لا غاية للانسان الا وجوده
المحسوس فقط .

واذا تقرر هذا فقد ظهر لك من قولنا ان ههنا ظاهراً من
الشرع لا يجوز تأويله، فان كان تأويله في المبادئ فهو كفر،
وان كان فيما بعد المبادئ فهو بدعة . وههنا ايضاً ظاهر يجب
على اهل البرهان تأويله، وحملهم اياه على ظاهره كفر، وتأويل
غير اهل البرهان له واخراجه عن ظاهره كفر في حقهم او بدعة .
وفي هذا الصنف آية الاستواء وحديث النزول، ولذلك قال عليه
السلام في السوداء اذا اخبرته ان الله في السماء اعتقها فانها
مؤمنة اذ كانت ليست من اهل البرهان . والسبب في ذلك ان
الصنف من الناس الذين لا يقع لهم التصديق الا من قبل التخييل،
اعني انهم لا يصدقون بالشيء الا من جهة ما يتخيلونه، يعسر
وقوع التصديق لهم بوجود ليس منسوباً الى شيء متخيل .

المعاد وحملته على الغزالي

ثم انه بعد هذا التمهيد تناول المسألة الثالثة من مسائل

الغزالي ، اي مسألة المعاد ، فقال : يشبه ان يكون المخطيء في هذه المسألة من العلماء معذوراً والمصيب مشكوراً او مانحوراً . ثم قال : ان التأويل في هذه المسألة الخطيرة يجب ان يكون في صفة المعاد لا في وجوده على شرط ان يكون التأويل لا يؤدي الى نفي الوجود لان جحد الوجود في هذه كفر لانه في اصل من اصول الشريعة . واما من كان من غير اهل العلم فالواجب حملها على الظاهر ، وتأويلها في حقه كفر لانه يؤدي الى الكفر .

وهنا حمل حملة شديدة على الامام الغزالي فقال ما نصه : ولذلك ما نرى ان من كان من الناس فرضه الايمان بالظاهر فالتأويل في حقه كفر لانه يؤدي الى الكفر ، فمن افشاه له من اهل التأويل فقد دعاه الى الكفر ، والداعي الى الكفر كافر . ولهذا يجب ان لا تثبت التأويلات الا في كتب البراهين لانها اذا كانت في كتب البراهين لم يصل اليها الا من هو من اهل البرهان ، واما اذا ثبتت في غير كتب البرهان واستعمل فيها الطرق الشعرية والخطابية او الجدلية كما يصنعه ابو حامد فيخطأ على الشرع وعلى الحكمة وان كان الرجل انما قصد خيراً وذلك انه رام ان يكثر اهل العلم بذلك ولكن كثر بذلك الفساد ليس بدون كثرة اهل العلم . وتطرق بذلك قوم الى ثلب الحكمة وقوم الى ثلب الشريعة وقوم الى الجمع بينهما . ويشبه



ان يكون هذا احد مقاصده بكتبه . والدليل على انه رام
بذلك تنبيه القارئ انه لم يلزم مذهباً من المذاهب في كتابه بل
هو مع الاشاعة اشعري ومع الصوفية صوفي ومع الفلاسفة
فيلسوف وحتى انه كما قيل :

يوماً يمان اذا لاقيت ذا يمن وان لقيت معدياً فعدناني

نقول وكأن الفيلسوف قد خشي ان يؤخذ بما آخذ به
الامام الغزالي لبسطه هو نفسه مبادئ الفلسفة والتأويل في
كتب تقع بين ايدي العامة كما في هذا الكتاب ، فقال تبوءة
لنفسه : ولولا شهرة ذلك عند الناس وشهرة هذه المسائل التي
ذكرناها لما استخرننا ان نكتب في ذلك حرفاً لان شأن هذه
المسائل ان تذكر في كتب البرهان . ولكن لو عاش الفيلسوف
في هذا الزمن ورأى السكك الحديدية التي قربت الابعاد
واختصرت المسافات ، والصحافة التي هي السكك الحديدية
المعنوية للأفكار لسرعة نشرها اياها ومزجها بعضها ببعض من
جنوب الكرة الى شمالها ومن شرقها الى غربها ، لنحقق ان الطريقة
التي أشار بها من ستر وجه الفلسفة عن الفئة الكبرى من البشر
طريقة لم تكن الكرة الارضية قادرة على التزامها وقتاً طويلاً .

ثم عاد الى مسألة التأويل التي هي دعامة هذا الكتاب فقال
انه اذا وقع إشكال في ظاهر القول الديني ولم يكن ظاهراً
بنفسه للجميع وجب ان يُصرح ويقال انه متشابه لا يعلمه الا
الله . وان الوقف يجب هنا في قوله عز وجل : وما يعلم تأويله
الا الله . وبمثل هذا يأتي الجواب بالسؤال عن الامور الغامضة
التي لا سبيل للجمهور الى فهمها ، مثل قوله تعالى : ويسألونك عن
الروح ، قل الروح من امر ربي ، وما اوتيتم من العلم الا قليلاً .
ولذلك ليس يجب ان تثبت التأويلات الصحيحة في الكتب
الجمهوريّة فضلاً عن الفاسدة . والتأويل الصحيح هي الامانة التي
حملها الانسان وابى ان يحملها واشفق منها جميع الموجودات ،
اعني المذكورة في قوله تعالى : إنا عرضنا الامانة على السموات
والارض والجبال ، الآية .

وهذه التأويلات في الشرع هي التي كانت سبباً في نشأة فرق
الاسلام حتى كفر بعضهم بعضاً وبدع بعضهم بعضاً وبخاصة
الفاسد منها ، ومن اتى بعدهم لما استعملوا التأويل قلّ تقواهم
وكثر اختلافهم وارتفعت محبتهم ، فيجب على من اراد ان يرفع
هذه البدعة عن الشريعة ان يعتمد الى الكتاب العزيز فيلتقط

منه الاستدلالات الموجودة في شيء مما كُلفنا اعتقاده ويجتهد في نظره الى ظاهرها ما امكنه من غير ان يتأول من ذلك شيئاً الا اذا كان التأويل ظاهراً بنفسه اعني ظهوراً مشتركاً للجميع .

ويعني الفيلسوف بذلك ان يُستخرج من القرآن في كتاب خصوصي كل العقائد الواجب الاعتقاد بها من دون تأويل او بتأويل ظاهر اجلي ظهور للخاصة والعامة لتكون اساساً مشتركاً لجميع المسلمين يبنون عليه معتقدهم بلا نزاع ولا جدال فلا تؤثر فيه مجادلاتهم في التأويلات الاخرى المفهومة وغير المفهومة . قال : وبودنا لو تفرغنا لهذا المقصد وقدرنا عليه . وان انسا الله في العمر فسنثبت فيه قدر ما يتيسر لنا منه . فعسى ان يكون ذلك مبدأ لمن يأتي بعد . فان النفس في غاية الحزن والتألم مما تخلل هذه الشريعة من الاهواء الفاسدة والاعتقادات المحرفة ، وبخاصة ما عرض لها من ذلك من قِبل من ينسب نفسه الى الحكمة ، فان الاذية من الصديق هي اشد من الاذية من العدو ، اعني ان الحكمة هي صاحبة الشريعة والاخت الرضية ، فالاذية ممن ينسب اليها اشد الاذية .

هذا ما رأينا تلخيصه من هذا الكتاب للدلالة على مبادئ ابن رشد وعلى منهجه في التأليف واسلوبه في المناظرة ، وقد جمعنا في هذه الخلاصة كل اغراض المؤلف .

كان من المنتظر بعد ظهور ابن رشد في الاندلس ان يقوم بعده نوابغ من بني قومه يتوسعون في الدروس الفلسفية ويستفدون بالشروح التي وضعها ابن رشد على اريسطو وبذلك يكملون الحركة الاجتماعية والفلسفية ويقومون مقام فلاسفة الافرنج الذين جاؤوا بعدهم فآخذوا عنهم وكملوها . وانما كان ذلك منتظراً لانه من الصعب على العقل البشري ان يصدق ان تلك البذور الفلسفية التي بذرها هذا الفيلسوف تجف ذلك الجفاف في التربة الاندلسية وتختنق هذا الاختناق .

ومع ذلك فقد جفت واختنقت . جفت واختنقت لان شبهة الكفر كانت تقع بعد ابن رشد على كل مشغل بالفلسفة . وبناء على ذلك انصرفت العقول عن صناعة الحكمة ولم يقم بعد ابن رشد فيلسوف كبير مثله ليكمل عمله .

على ان تلامذة ابن رشد الذين نشروا مبادئه بعده وتوهموا كتبه الى العبرانية واللاتينية كان اكثرهم من اليهود والنصارى ، ولقد انتشر في اوروبا مذهب ابن رشد في ذلك الزمان انتشاراً عظيماً حتى اضطر احد البابوات ان يحرم من الكنيسة كل من يعتقد بمذهب ابن رشد في الفلسفة .

بقي ان نذكر شيئاً عن اخلاق هذا الفيلسوف ، فنقول انه كان لطيفاً عفيفاً ميالاً للعزلة منقطعاً الى الدرس والمطالعة . واليك منه عبارة تدل على مبلغ شغفه بالدرس والتأليف . قال : ان الدين الخاص بالفلاسفة هو درس الوجود والكائنات ، ذلك ان اشرف عبادة تُقدم لله تعالى هي معرفة مخلوقاته ومصنوعاته لان ذلك بمثابة معرفته . هذا اشرف الاعمال التي يرضى الله عنها في حين ان اقبح الاعمال عمل من يكفر ويخطئ الذين يقدمون لله هذه العبادة التي هي خير العبادات ويتقربون منه بهذه الديانة التي هي خير الديانات .

وكان بسيط المعيشة متقشفاً في حياته كارهاً للظلم . ولقد تولى القضاء سنوات عديدة دون ان يحكم قط بالاعدام على احد من الذين حوكموا لديه ، بل انه كان حين وجوب الحكم بالاعدام يتنازل عن ذلك لسواه ، فكأنه يفرّ من الدماء لكي لا تقع في عنقه .

هل مذهب ابن رشد صحيح ؟

هذا ما رأينا ذكره عن ابن رشد ، ولقد آن ان نختتم هذه المقالة لانها قد طالت ومع ذلك فقد رأيناها قصيرة ونحن نكتبها

لان القلم لو ملأ كل صفحات هذا الجزء عن هذا الفيلسوف لما
اروى غليله .

ولكن قبل الختام لا بد ان يحضر القارئ سؤال وهو :
هل مذهب هذا الفيلسوف صحيح ؟ فالجواب عن ذلك ان
القارئ يخطئ اذا كان يسأل عن صحة كل مذهب من مذاهب
الفلاسفة او عن فسادده . فان لكل واحد من الفلاسفة الذين
يقفون حياتهم للبحث في ما وراء الطبيعة مذهباً خاصاً وفلسفة
خاصة يناقضان مذهب الآخر وفلسفته . فمثلهم في ذلك مثل
قوم يجلسون على شاطئ البحر يأخذون في بناء بيوت من
الرمل والصخر والحجارة التي على الشاطئ ، ولذلك نجد في بناء
كل واحد منهم رملاً وصخراً ، اي ضعفاً وقوة . وذلك اما
لان الحقيقة المحجبة قد آلت على نفسها ان تبقى محجوبة عن
ارض فيها ما في ارضنا من الصغائر والدنايا ، او ان العقل البشري
خلق محدوداً ، وما كان محدوداً لا يحده ما لا حد له .

الفيلسوف باكون والشاعر شكسبير

مشاهير الناس آلهة للناس في هذه الحياة . ولكنهم آلهة لا تُعبد في أكثر الأحيان الا بعد ان تلقى الممات . فمثلهم مثل تلك الجبال الشامخة كالمقطم وجبل لبنان ، فانك اذا كنت قريباً منها او مقياً فوقها ظهرت لك صغيرة منخفضة ولا تظهر لك شامخة كبيرة الا اذا بعدت عنها .

ومن اشهر هؤلاء المشاهير الذين رفعتهم الانسانية بعد موتهم الى أعلى عليتين الفيلسوف باكون اشهر فلاسفة الانكليز والمؤلف شكسبير اشعر شعرائهم . ويسرنا ان نترجم هذين الرجلين لما في ترجمتهما من الفوائد الفلسفية والادبية لاسيما اذا صيغت بقالب بسيط سهل يحلّ اعقد عقد الفلسفة ويجلو غوامضها فيجعلها سهلة المنال لعقول الشيوخ والاطفال كما قال صاحب الزبور عن اصول الحكمة .

ونبدأ اولاً بترجمة باكون لان للفلسفة حق التقدم .



فرنسيس باكون

ترجمة باكون

هو الفيلسوف الشهير فرنسيس باكون بارون دي فاردلام وفيكونت دي سان البانس وأحد وزراء المملكة الانكليزية ، ولد في لندن من نقولا باكون المحامي المشهور في ٢٢ كانون الثاني من عام ١٥٦١ . ولما بلغ السنة الثالثة عشرة من عمره دخل كلية كمبريدج حيث تلقى العلم ثلاث سنوات ثم أُلحق بالسفارة الانكليزية لدى البلاط الفرنسي فزار باريس وباقي المدن الفرنسية الكبرى وأخذ يجمع شذرات عن حالة أوروبا في ذلك الزمان . وفي عام ١٥٧٩ توفي أبوه فعاد الى لندن وكان المال الذي ورثه منه لا يقوم بمحاجاته للنفقات الكثيرة التي كان ينفقها تأييداً لمركزه ، فعمد الى درس الحقوق فنجح فيها نجاحاً سريعاً فعين في عام ١٥٨٧ مستشاراً خاصاً للملكة اليبابات . وكان عصر هذه الملكة في انكلترا شبيهاً بعصر لويس الرابع عشر في فرنسا من حيث النهضة العلمية والادبية . وكفى عصر اليبابات فخراً أن يكون قد نبغ فيه رجلان كباكون وشكسبير .



ولكن باكون رأى انه لا يكسب من وظيفته لدى الملكة
كسباً يسد نفقاته الطائلة، فرام احترام المحاماة، وطلب وظيفة
تمكنه من الكسب فلم 'يجب' الى طلبه ولكن جاءه الكونت
ديسه ووهبه املاكاً ذات دخل كافٍ فرضي باكون وسكت .
ولكن لماذا ووهبه الكونت هذه الاملاك وهل ان الملكة هي التي
او عزت اليه بان يهبه اياها ؟ الله اعلم .

وفي عام ١٥٩٢ اختارته مقاطعة ميدلسه نائباً عنها في البرلمان
فكان هذا الزمن اشد الازمان عليه لان باكون كان فيه اشد
اضطراباً ، فانه كان تارة يتملق الشعب وطوراً يتملق الوزارة
وآونة يبعث بقصائد المدح الى الملكة اليصابات تزلفاً وتعلقاً .
وفضلاً عن ذلك فانه اضطر أن يكتب يومئذ عريضة ببيان
التهم التي وجهت الى الكونت ديسه الذي أحسن اليه . وبعد
ذلك اشتدت الحاجة به حتى صدر الأمر بالقبض عليه وسجنه مرتين
من أجل ديون عليه . ولم يسترح من هذه المصائب حتى ارتقى
جناك الاول الى العرش . وبعضهم يزعم ان الملكة اليصابات
كانت تقصد اضطهاده لتخلص منه بناء على أسباب سئد كرها
في ما يلي .

ولما ملك جاك الاول قرَّب باكون اليه ووهبه ما كان قد
طلبه، فاحترف باكون المحاماة وكسب منها اموالاً طائلة ، ثم

تزوج بفتاة ذات غنى واسع وتراكت الرتب على رأسه فجعل
في عام ١٦١٧ وزيراً للعدلية ثم جعل في رتبة بارون وفيكونت .
وسبب هذه النعم كلها نشره في أثناء ذلك كتباً في الادب
والفلسفة وجهت اليه انظار الناس في جميع اقطار العالم وجعلته
في اعلى ذرى المجد العلمي .

ولكن هذا الفيلسوف الذي هدم اساس الفلسفة القديمة
بقوة عقله ووضع اساساً حديثاً للادب والفلسفة كان عاجزاً عن
تدبير نفسه وحفظ قواعد الادب والفلسفة . فانه لما عين وزيراً
للعدلية جعل يبيع بعض الوظائف بيعاً بالثمن لحاجته الى المال
الكثير بناء على اسرافه . وكان يقبض كثيراً من الاموال من
أصحاب الدعاوي والقضايا ليسرع في انجاز قضايهم . وجاءه
يوماً صديقه وحاميه بكنكهام يسأله وظائف لصناعته والمقربين
اليه ، فاضطر الى اجابته مكرهاً ولم يقدر على رفض طلبه . فبناء
على ذلك أخذ المظلومون يصرخون ويشكون ، ورفعوا شكاوهم
الى مجلس العموم فأمر المجلس باجراء تحقيق في هذه التهم فثبت
بعضها على باكون فصدر الامر بمحاكمته لدى مجلس اللوردات .
اما بكنكهام والملك فانهما خشيًا عاقبة الامر لتدخلهما فيه ،
فاوعزا الى باكون ان يتوارى فراراً من المحاكمة . ولكن
باكون رفض الفرار وقال انه يستسلم الى عدالة المجلس . فحاكمه



مجلس اللوردات في ٣ أيار من عام ١٦٢١ وحكم عليه بغرامة قدرها ٤٠ ألف جنيه وبتجريدته من كل وظائفه ، وقضى عليه بأنه غير أهل لأن ينوب في البرلمان بعد تلك الحادثة ولا أن يولى منصباً عمومياً وبأن لا يقيم في مدينة يقيم البلاط الملكي فيها ، وبسجنه في سجن لندن ، فسجن بالكون ولكن الملك لم يطل مدة سجنه بل عفا عنه واعاده الى لندن. ولما ارتقى الملك شارل الاول الى العرش اعاد الى بالكون شرفه وارجعه في عام ١٦٢٥ الى البرلمان . غير ان بالكون لم يُضع هذه السنوات التي صرفها بلا عمل لانه انصرف في اثناءها الى مراجعة كتبه الفلسفية واتمامها ، وهذه الكتب اساس مجده ودعامة فخره ولولاها لما كان شيئاً مذكوراً . وقد توفي بالكون بعد مرور سنة على عودته الى البرلمان ، اي في ٩ نيسان من عام ١٦٢٦

ولا يسعنا بعد ما تقدم من فساد تدبير بالكون وسوء تصرفه الا ان نلقي هذا السؤال على القارئ : ايّ أوجب للاستغراب : انزال فيلسوف عظيم كباكون نفسه في هذه المنزلة من اخذ الرشوة وافساد الاحكام ، ام قيام طبقة عالية من نفس الامة الانكليزية سوراً كثيفاً دون البلاط ومقربيه حتى ان الملك نفسه يخافها ويدارها لمعرفة بانها تحمي شرف الدولة وتمنع حدوث الشر فيها ؟ لا ريب ان هذه الطبقة ، طبقة

النبل ، هي التي حفظت انكلترا الى اليوم ورفعت شأنها في
اقطار الارض . واذا اسقطت الديموقراطية في انكلترا هذه
الطبقة العالية في هذا القرن او الذي يليه ولم تضع مكانها
ديموقراطية حقيقية لا « سطحية » كالديموقراطيات التي في اوروبا
اليوم فان انكلترا تسقط يومئذ عن قمة مجدها سقوطاً حقيقياً .

آراؤه الفلسفية التي احيت الفلسفة

اما فلسفة باكون فقد تضاربت الاقوال فيها ، ففريق
الفلاسفة الماديين يعتبرونه هو وديكارت زعيمين للفلسفة الحديثة
وواضعين لاصولها وينزلون باكون في اسمى منزلة بين فلاسفة
العالم . وفريق الفلاسفة الالهيين ولا سيما الكاثوليك لا يرونه
شيئاً مذكوراً ولا يجدون في فلسفته كما يقولون الا غموضاً .
وقد طعن عليه زعيمهم جوزف دي ماستر الفرنسي طعناً
شديداً . اما الفلاسفة الانكليز وعلمائهم فلا يعرفون لهم زعيماً
ورئيساً غير باكون مهما قيل فيه .

والسبب الذي جعل خصوم باكون يجترئون عليه ان هذا
الفيلسوف لم يضع فلسفة جديدة ولم يكتشف امراً جديداً
ولكنه اقتصر على وضع قواعد فلسفية جديدة تنقض القواعد
القديمة ، فكأنه اقتصر على الهدم دون البناء . ولبيان ذلك نقول :



ميزان أريسطو - كانت الفلسفة قبل باكون وديكارت
مبنية على الفلسفة اليونانية التي وضعها أريسطو وهي المعروفة
بالفلسفة المدرسية (سكولاستيك) . وكان يكفي ان يقال
« قال أريسطو » لينحسم كل جدال . فكانت العقول خاملة
لا تصرف بشيء ولا تجترى ان تحدث شيئاً حذراً من الخروج
عن القواعد المقررة . وكان رأس هذه القواعد « القياس » وهو
المعروف « بآلة أريسطو » او ميزانه ، لان الحقائق لا تدرك
بدونه . مثال ذلك اذا اخذت النار ووضعت فيها ماء فان الماء
يتبخر . فكرر هذه التجربة عدة مرات فاذا تبخر الماء في كل
مرة وجب ان تجزم بان التبخر ناموس من نواميس الطبيعة .
ثم انك تقيس اللبن على الماء فتقول : بما ان اللبن سائل كالماء
فهو يتبخر ايضاً مثله . وبناء عليه تكون قد عرفت طبيعة
اللبن من قياسه على الماء . هذا هو القياس .

فلما جاء باكون وجد ان هذه القواعد متعضضة فأخذ على
نفسه اصلاحها . فكتب في ذلك عدة كتب منها كتابه
« الاصلاح العظيم » وهو اهم كتبه ولم يصدر منه سوى جزئين
وذلك في عام ١٥٩٧ و كتابه « كتاب في الادب » وغيره من
المؤلفات الفلسفية . واليك خلاصة الآراء التي نشرها في كتبه:
رأيه في التمدن اليوناني وفلسفته - يحمل باكون في كتبه

على الفاسفة السكولاستيك اليونانية حملات شديدة . ومن
اعتراضاته ان كل ما يدرسونه اليوم (اي في ايام باكون)
يدرسونه بناء على اقوال اليونان ولا سيما اريسطو مع ان اليونان
لم يعرفوا شيئاً من نواميس الطبيعة ولم يقرأوا شيئاً في كتابها
السامي ، فكيف يريد الفلاسفة تقييد العقل البشري بمعارف
اليونان اذا كان هؤلاء لم يدرسوا الطبيعة نفسها ؟ وفضلاً عن
ذلك فان اليونان امة قديمة وقد كان البشر في عصرهم في دور
الطفولية ونحن الآن في دور الشيخوخة . فلمن نسمع ؟ ومن
نتعلم ، من الاطفال ام من الشيوخ ؟ فالواجب علينا اذاً ان
نُطلق العقول من قيود فلسفة اليونان ونترك كل واحد منا
يتبحر الامور بنفسه ويشاهد نواميس الطبيعة بعينه ويوزن
احكامها بعقله . ومع ذلك فان الفلسفة اليونانية لم تُثمر شيئاً
الى الآن ولم نحصل بواسطتها على فوائد ومنافع عملية . وكل
ما استفدناه منها انها تعلمنا طرقاً سفسطائية في الجدل تجعلنا
لا نطلب الحقيقة في مباحثنا ولكن حب الفوز والغلبة . فيجب
تغيير هذه القاعدة التي جعلها العلم دعامة ووضع دعامة عملية
جديدة له ليثمر ثماراً عملية . وقد جرب اليسوعيون واستبدلوا
دعامة اريسطو بدعامة جديدة فنجحوا في تعليمهم . فليجرب
العلم ذلك ايضاً ، فانه لا بد ان ينجح .



ولكن قبل هدم القاعدة القديمة يجب انشاء « ترتيب » جديد
للعلم اصولاً وفروعاً لوضع اصول كل فرع منه على الترتيب ،
وبناء على ذلك وضع باكون « الترتيب » المنسوب اليه وعليه
يعتمد العلماء .

الترتيب المشهور بترتيب باكون - قسم باكون قوى نفس
الانسان في هذا الترتيب الى ثلاثة اقسام : « الذاكرة .
والتصور . والعقل » وجعل اصول العلم وفروعه تتفرع من
هذه الكلمات الثلاث . فمن « الذاكرة » يشتق التاريخ . ومن
« التصور » يشتق الشعر . ومن « العقل » تشتق الفلسفة .

ثم ان باكون يأخذ « التاريخ . والشعر . والعقل » كلاً
بفردة ويفرع منه فروعه : فالتاريخ طبيعي وبشري . والطبيعي
يشمل درس الطبيعة ما فوق وما تحت من علم الهيئة (علم
الفلك) والجيولوجيا والجغرافيا الخ . والتاريخ البشري
يشمل التاريخ الديني والتاريخ الاجتماعي (غير الديني) وتاريخ
الادب والفنون . واما الشعر فانه يكتفي بقسمته الى ثلاثة
اقسام وهي : الشعر للوصف . والشعر للروايات . والشعر
للامثال . واما الفلسفة فهي ثلاثة فنون : فن معرفة الله .
وفن معرفة الطبيعة . وفن معرفة نواميس الانسان . ثم يفرع
باكون من كل واحد من هذه الفروع فروعاً عديدة يضيق

المقام دونها ، ولو اتينا عليها كلها لوجد القارىء انه لا يبقى
اصل للعلم ولا فرع خارج هذه الدائرة .

ميزان باكون ضد ميزان اريسطو - فبعد وضع باكون
هذا الترتيب للعلم وشرحه كل اصوله وفروعه شرحاً كافياً وافياً
وجه همته الى وضع قاعدة لبنائه ، فقال بوجوب ترك قواعد
اليونان واريسطو والاعتماد على العقل في ذلك البناء . وكانت
قاعدة اريسطو تقضي كما تقدم الكلام بان كل امر يُجرب عدة
مرات ويفضي الى نتيجة واحدة يجب ان يُعدّ ناموساً طبيعياً .
وقد ذكرنا مثال ذلك في تجربة تبخير الماء وقياس اللبن عليه .
اما باكون فانه قال ان التجربة عدة مرات لا تكفي بل يجب
معها امران : اولاً اعادة التجربة والامتحان الى ما شاء الله
حتى لا تبقى زيادة مستزيد واستئناف التجربة في كل جزء من أجزاء
المادة ومطاردة الاسرار الطبيعية الى ابعد مكانها . وثانياً عدم
الاكتفاء بالامتحان الايجابي بل اجراء امتحان سلبي معه . مثال
ذلك بخار الماء بالنار يتبخّر ، فأعد التجربة عدة مرات تجده يتبخّر
دائماً . هذا هو الامتحان الايجابي ، اما الامتحان السلبي فهو
ان تأخذ بخار ذلك الماء وتبرده فاذا عاد ماء كان العمل صحيحاً
وجاز لك ان تعد التبخر ناموساً طبيعياً .

واليك مثلاً آخر وهو اضرب ٢ في ٢ في ٢ فان الحاصل



٨ ، ولكن اياك ان تعتقد ان الحاصل دو ٨ قبل اجراء الامتحان
السلي اي قسمة هذا العدد على ٢ ثم قسمة الخارج على ٢ ايضاً
وعلم جراً . ولا يخفى ان ذلك يهدم قياس اريستو من اساسه
لانه يوجب عليك في المثل الذي تقدم عن الماء واللبن ان تأخذ
اللبن وتفحصه بنفسك فحسباً ايجابياً وسلبياً عدة مرات بدلاً من
قياسه على الماء ، وان لا تعتمد الا على مشاهدتك وامتحانك .
ويُعرف هذا الامتحان بامتحان باكون وقد اطلق به واضعه
عقول العلماء والفلاسفة من قيود الماضي واعدت للعلم ميداناً
فسيحاً قرن فيه المعرفة بالعمل فنشأت عنه الاكتشافات
ولاختراعات التي عرفتها في عالم العلم والصناعة والزراعة .
فكّنه روح الحرية بُث في العقل والعلم فاحياهما معاً .

باكون وحجر الفلاسفة - ويعتقد باكون اعتقاداً غريباً ،
فانه يرى ، كما تشهد بذلك عدة سطور من كتبه ، ان غرض العلم
والفلسفة البحث عن حجر الفلاسفة اي المادة التي تحول المعادن
الى ذهب . وهو لا يذهب هذا المذهب طلباً للذهب ولكن
استناداً الى درسه المادة . فانه رأى من درسه المادة الطبيعية
ان اصلها واحد وان المادة التي صنعت منها الحصى شبيهة بالمادة
التي رُكب منها الذهب . ولذلك يقول : اننا متى حصلنا على
المادة المشتركة بين جميع المواد (وهي هـا) يسمونه حجر



الفلاسفة (فاننا نتحقق حينئذ ان اصل المادة واحد ونقدر
بسهولة على تحويل اي معدن كان الى ذهب .

اعتقاد باكون بالله وبالنفس

هذا ما رأينا اثباته عن اكبر فلاسفة الانكليز فرنسيس
باكون ، ومنه يرى القارىء انه لم يكتشف أمراً جديداً عظيماً
ولكنه هدم عالماً قديماً . وسبب شهرته الواسعة انه قام في زمن
كانت فلاسفته مستعدة لخلق نير اريسطو ، وكان اعلام صوتاً
واقدرهم على ترجمة ما في نفوسهم فنجح النجاح الذي مر ذكره .
بقي علينا ان نذكر معتقد هذا الفيلسوف ، فنقول انه كان
يؤمن بالخالق سبحانه ، وله في ذلك كلمته المشهورة :

« القليل من العلم يُبعد الانسان عن الله
والكثير منه يقربه اليه »

يعني بذلك ان من درس نواميس الطبيعة ونظام الكائنات
درساً صحيحاً لا يسعه إلا أن يعجب بذلك الترتيب البديع
الساكن في كل شيء حتى في ذرات الرمل ونقط الماء وأوراق
النبات ، وحينئذ يسلم بالطبع من غير بحث ولا سؤال بوجود
صانع حكيم ويقول مع فنلون وفولتير عن تشبيه الأرض

ونظام كائناتها بساعة وجدت دائرة في رمل الصحراء : « هل
يمكن وجود هذه الساعة من غير ساعاتي ؟ »

وكان باكون يعتقد بوجود النفس ايضاً ويقول ان من
قواها علم الغيب اي معرفة الحوادث قبل حدوثها والتأثير في
نفس أخرى اذا تسلطت عليها كما يحدث في التنويم المغنطيسي .
هذا ما نقوله عن باكون فلننتقل الآن الى شكسبير :

وليم شكسبير

تمهيد في فن الروايات

اشتقت الروايات من اصل ديني اي انها وضعت حين نشأتها
لغرض ديني . فان الفرس والآشوريين واليونان كانوا يمثلون
بها قصص آلهتهم . ولكن لما قامت النهضة اليونانية في الادب
والفلسفة والشعر خرجت الروايات من الحيز الديني الى الحيز
الاجتماعي فنبغ في هذا الفن كثيرون من اليونان اخصهم اشيل
الذي يلقبونه ابا التراجيدية اليونانية ، وقد أخذ عنه مولير
وراسين وكورنيل وغيرهم من الروائيين . وقد ارتقى هذا
الفن عند الرومانين ايضاً ، ومن مؤلفيهم بلوت وترانس الشاعران
المزليان الشهيران .

اما النهضة الاوروبية في هذا الفن فهي حديثة العهد . وقد
 كان شأنها في ذلك شأن النهضة الروائية اليونانية والرومانية اي
 انها كانت في بدء امرها عبارة عن تمثيل ديني . وذلك ان رجال
 الدين المسيحي كانوا يمثلون الاعياد المسيحية التي يعيدونها اليوم
 تمثيلاً . وكان هذا التمثيل على نوعين : نوع محزن ونوع مضحك .
 ومن النوع المحزن تمثيل رواية صلب السيد المسيح في جمعة الآلام
 بما فيه من المحاكمة امام بيلاطس وصعود السيد الى الجلجلة
 ووقوف النساء يبكين لصلبه . ومن النوع المضحك تمثيل
 العادات والتقاليد الدينية كحادثة اليهودي التائه وحادثة برباس
 ونطق اثنان بلعام . ومما يُستغرب ذكره انهم كانوا اذا راموا
 تمثيل حادثة الاثنان جاؤوا بحمار حقيقي الى مكان الاحتفال اي
 الى المعبد وجعلوا يعالجونها لتصرخ . وكانوا ينشدونها قصيدة منها :

غني يا جلالة الحمار

يا ايها الفم الجميل غني

فنقدم لك كفاية من التبن

وقدر ما تطلبين من الشعير

وكان بعضهم ينشد هذا النشيد والشعب يجابون عليه بفرح
 وابتهاج بلازمة ملازمة .

ولما اعتاد الشعب هذا التمثيل ألفه فتألفت منه جمعيات للقيام به في أيام الآحاد والاعياد في خارج المعابد. فكان الشعب يُقبل على حضور هذا التمثيل ويشترك فيه. وكانت الروايات مكتوبة بشعر عامي. وقد روي ان أحدهم كان يمثل الصلب فصلب نفسه بالفعل لاقام الشبه وكاد يلقي حتفه لو لم يتداركه رفاقه. ولما تمادى الشعب الفرنسي في هذا التمثيل اصدر البرلمان في ١٧ تشرين الثاني من عام ١٥٤٨ قراراً بمنع تلك الجمعيات من التمثيل الديني واباحة ما سواه. ومنذ هذا الحين دخل التمثيل في دور جديد وانتقل من الحيز الديني الى الحيز الاجتماعي، ونشأ من الكتاب والشعراء شكسبير وكوث وشيلر وراسين وكورنيل وموليير وفولتير وفيكتور هيغو ودوماس الكبير والصغير وهين وغيرهم فأبلغوا بمؤلفاتهم هذا الفن الى المقام السامي الذي صار اليه في اوروبا في هذه الايام.

وقد قابل الامبراطور غليوم الممثل الفرنسي الشهير كوكاين الكبير فقال له انه من انصار الروايات وكتابتها لانه يعرف ما لهم من الفضل والتأثير في آداب الامة وفي اخلاقها. وكفى ذلك شهادة بفائدة فن التمثيل اذا أجاد مؤلفوه وممثلوه وكان غرضهم نشر الآداب والسرور معاً في المسارح لا اثارة عواطف العامة والحاضرين بمناظر واقوال تشبه فقاقيع الصابون بسرعة زوال تأثيرها.

ولا ريب ان في ترجمة شكسبير من هذا الوجه عبرة وفائدة
لجميع نحبي هذا الفن الجميل .

ترجمة شكسبير

ولد ولیم شكسبير من اب تاجر في قرية سترتفورد (القائمة
على ايفون) في ٢٢ نيسان من عام ١٥٦٤ . وكان له اخوة
ثلاثة فدخل معهم في احدى المدارس المجانية وتلقى فيها شيئاً
من اللغة اللاتينية . ولكن لم تأت عليه السنة الثالثة عشرة
حتى اخرجته ابوه من المدرسة لاختلال اشغاله التجارية واستخدمه
في أحد البيوت التجارية . ومن ذلك يظهر ان شكسبير لم
يتلقن في المدارس شيئاً من الدروس العليا التي ظهرت ثمارها
في رواياته بعد ذلك .

ولما بلغ شكسبير السنة الثامنة عشرة اقترن بفتاة عمرها
٢٦ عاماً وتُدعى مس حنه هاتاواي ، وقيل انها كانت عشيقته .
وبعد انقضاء ستة اشهر على زواجهما ولدت له هذه الزوجة
ابنة ، وبعد ثلاث سنوات ولدت له توأمين فدعاها همنت
وجوديت . ولكن الاولاد جاؤوه بالضيق الى البيت لانه لم
يكن يكسب من خدمته شيئاً يذكر ، ففر من سترتفورد في عام
١٥٨٣ وعمره ٢١ عاماً . ولما صار بعيداً عن أهله رام الصيد

والقنص في الاحراج التي حرم الصيد فيها ، فطلبه الحفراء
للقبض عليه ففر من وجههم وسار مشياً الى لندن وانخرط في
سلك الممثلين فيها .

وبعد ان صرف شكسبير مدة في التمثيل جمع جوقاً وتولى
ادارته . اما الروايات التي كان يمثلها فكان بعضها من الروايات
القديمة يتصرف بها جرياً مع ذوق العصر ، وبعضها من تأليفه .
ويقال ان اول رواية ظهرت من قلمه كان ظهورها في عام
١٥٩١ اي بعد انقضاء ٨ سنوات على فراره من وطنه . وقد قال
شراح هذه الرواية ان شكسبير اظهر فيها من المعرفة بعبادات
الطبقات الاجتماعية يومئذ والتلميح الى بعض الحوادث العصرية
اللندنية ما وجه الانظار اليه ودل على عظيم استعداده . نقول
فهل كانت تلك السنوات الثماني التي صرفها في لندن كافية لجعل
ذلك الفتى الطائش الذي لم يتلقن علماً في مدرسة ، في ذلك
المقام من المعرفة والاستعداد ؟

ومنذ هذا الحين بدأت شمس شهرة شكسبير تطلع في سماء
الادب فصار له اصدقاء في البلاط ، ورغبت الملكة اليصابات في
حضور احدى رواياته ، فمثل في البلاط احداها في ليلة عيد
الميلاد من عام ١٥٩٧ ، فاعجب الملكة هذا الجوق ووعده
ب حمايتها ، فازدادت بذلك شهرته انتشاراً .

وكان المال يرد عليه مع الشهرة لكثرة مكاسبه من رواياته، فعاد شكسبير الى وطنه سترتفورد فوجد احوال عائلته في اختلال تام فتلافى تلك الحالة وزاد على ذلك ان ابتاع احسن قصر في المدينة (سنة ١٥٩٧) . ثم اخذ يبتاع كثيراً من الاراضي ويؤجرها للفلاحين من ابناء وطنه فضلاً عما كان يقرضهم اياه من الأموال تحسناً لاهوالهم . ولكنه مع مساعدتهم على هذا الوجه كان شديد الوطأة عليهم فيما يختص باستيفاء امواله وكثير التفنن في طرق كسب المال . ولذلك يتخذ فلاسفة العمران شكسبير مثلاً حينما يرومون بيان المزايا التي نخصت بها الامة الانكليزية من حيث المعرفة بطرق الكسب والتزام هذه الطرق ، فانهم يقولون ان اسمى رجالهم فكراً لا يهتمون الامور المادية ويطلبون الكسب من كل وجوهه المشروعة . اما الفرنسيون فانهم يغارون من هذا القول لانهم مشهورون بعدم اعتدادهم بالمال وتفضيلهم الشرف والمجد عليه ، ولذلك يذكرون شاعرهم فيكتور هيغو كلما ذكر الانكليز شكسبير لان فيكتور هيغو كان شبيهاً بشكسبير من حيث الجمع بين سمو الفكر والمعرفة بطرق الكسب .

وفي عام ١٦٠٣ توفيت الملكة اليبصابات التي كانت حامية لصاحب الترجمة فلم يخسر صاحب الترجمة شيئاً بوفاتها لان الملك

شارل الاول شمله بعنايته وحمايته . فابرز يومئذ شكسبير
افضل رواياته وهي « كما تريد » و « همليت » و « اوتلو »
و « مكبث » و « الملك لير » فبلغ بها شكسبير ما لم يبلغه
في انكلترا شاعر ولا مؤلف لا قبله ولا بعده . ولكن بعد
هذه الروايات الجميلة خمد فكر المؤلف او فرغت جمعبته فصار
يكتب فصولاً متقطعة . وفي عام ١٦١١ احس بمحاجته الى
الراحة فعاد الى وطنه سترتفورد فازوج ابنتيه سوسان وجوديت
وانصرف الى اداة الاموال وشراء الاراضي حتى ادركته الوفاة
في ٢٣ نيسان او ٣ أيار من عام ١٦١٦ وعمره ٥٢ عاماً فقط ،
فدفن في كنيسة سترتفورد . ويقال ان وفاته كانت بسبب
السكر ، وهو حديث خرافة على الأصح .

اما عائلة شكسبير فقد انقرضت بعده اذ مات كل اولاده
وحفدته دون ان يتركوا عقباً . ولكن من ترك مؤلفات
كمؤلفاته فان اسمه لا ينقرض ما دام الانسان انساناً .

مؤلفات شكسبير ومواضيعها

وهذه المؤلفات كثيرة يضيق المقام دون ذكرها بالتفصيل
فكتفي بالاختصار فنقول انها ظهرت بين عام ١٥٩١ وعام
١٦١١ اي بين السابعة والعشرين من عمره والسابعة والاربعين ،

فيكون شكسبير قد اشتغل بعد سن الأربعين سبع سنوات فقط . ولا يخفى ان سن الأربعين هي السن التي تنضج فيها مواهب الانسان وتبلغ فيها قوى نفسه اشدها فيظهر حينئذ بما خلقه الله من القوة .

وكانت اولى رواياته رواية « شقاء ضائع في الحب » مثلها في عام ١٥٩١ وهي التي اشرنا اليها آنفاً وموضوعها غرامي هزلي انتقادي . وتلتها رواية « كريم فيلونه » في سنة ١٥٩١ ايضاً وقد أخذ موضوعها من رواية هزلية قديمة . وكذلك رواية « الخطأ » . اما رواياته المحزنة (التراجيدية) فقد كانت اولها رواية « روميو وجوليت » وقد مثلها في عام ١٥٩٢ بعد رواية « الخطأ » فكان لها تأثير عظيم ولا سيما في السيدات لما حوته من العواطف الرقيقة التي يتبادلها الحبيبان روميو وجوليت . وفي عام ١٥٩٢ ايضاً وضع روايته التاريخية « هنري السادس » ثم تلتها في عام ١٥٩٣ رواية « ريشار الثالث » التي وردت فيها العبارة المشهورة المذكورة بالتفصيل في روايات « نهضة الاسد » وهي : « عليّ بجواد ، عليّ بجواد ! فاني اهب مملكتي لمن يعطيني جواداً . » وفي عام ١٥٩٤ ابرز روايته « طيطس اندرونيكوس » وبعضهم يرى ان هذه الرواية لم تكن من قلمه . وفي عام ١٥٩٤ كتب رواية « تاجر

البندقية » ومدارها على رجل اسرائيلي يقرض الاموال . ثم كتب رواية الملك حنا» في عام ١٥٩٤ ورواية «لو كريس» ، وكلاهما الروايتين نتيجة دخول المباديء اليونانية الى انكلترا في تلك الايام . وفي عام ١٥٩١ و ١٥٩٤ مثل « الشذرات او المقاطيع » وهي رواية ودادية اظهر فيها فضل الصداقة على الحب ، وبما قاله فيها عن لسان صديق يوبخ صديقه لانه خطف عشيقته :

« خذ كل حب لي ايها الصديق . نعم خذه كله . وقل لي الآن ماذا زاد على ما كان عندك . اعلم ان كل حب لي وكل خير لي ليس لي فيه شيء لانه لك من قبل ان تأخذه . وانا اصفع لك عن سرقتك ايها اللص اللطيف وان كنت قد سلبتني كل ما ملكت يداي . »

وبما يجب ذكره هنا ان شكسبير كان يشير بهذا الكلام على ما يظهر الى اللورد سوتنتون او اللورد بيمبروك لانهما فعلا تلك الفعل ، اما المرأة ذات العينين الدعجائين التي ورد ذكرها في هذه الرواية فلم يُعرف لها خبر .

وفي عام ١٥٩٥ ابرز روايته الجميلة « حلم في احدى ليالي الصيف » فكانت خير ذيل « لمقاطيعه » التي تقدم ذكرها . واليك ما قاله في هذه الرواية البديعة في وصف الحب :

« ولما رأى كوبيدون الملكة العذراء تناول سهماً ورشقها به . اما أنا فتبعته السهم بنظري فوجدته قد طاش وانطفأ في نور القمر الطاهر الذي كان يحف بها . ولذلك نجت العذراء المكلمة من الحب واتمت سيرها وهي تفكر افكاراً طاهرة . غير انني بحثت عن المكان الذي وقع السهم فيه فوجدت انه وقع على زهرة صغيرة من أزهار الغرب كانت بيضاء اللون كاللبن فجعلها السهم حمراء من شدة الطعنة . وتسمي العذاري هذه الزهرة زهرة لا تنسني . »

وفي عام ١٥٩٥ برزت روايته « كل ما حسنت خاتمه فهو حسن » وفيها قصة امرأة باسلة تكره الاستسلام الى حوادث الحياة وتنشئ لنفسها مركزاً باجتهادها ونشاطها . وفي العام التالي ١٥٩٦ مثل رواية من أحسن رواياته وفيها اظهر انه يكره اعطاء المرأة حقوق الرجال ، ومن قوله عن لسان النساء : « لماذا نرى اجسامنا ضعيفة واعضاءنا واهنة لا تحمل متاعب الحياة واضطرابات العالم ؟ الجواب لان اجسامنا واعضاءنا يجب ان تكون على اتفاق تام مع عاداتنا وحالة نفوسنا الداخلية . »

وفي عام ١٥٩٧ ابرز شكشير رواية « هنري الرابع » ، وفي عام ١٥٩٨ رواية « هاذيات وندسور » وفيها طبيب فرنسوي يتكلم باللغة الانكليزية كلاماً مشوهاً مضحكاً وكاهن

فرنسوي يقول اقوالاً مضحكة . وفي عام ١٥٩٩ وضع « هنري الخامس » ومنذ هذا الحين بدأت أحاسن رواياته .

فوضع أولاً رواية « غناء كبير بشيء صغير » ومدارها على رجل آلى على نفسه ان يكره النساء وامرأة لا تطيق رؤية الرجال ولكن الرواية تجعلهما بطرق مضحكة يحب بعضهما بعضاً في النهاية حباً شديداً . وبعد هذه الرواية ظهرت روايته « الليلة الحادية عشرة » وذلك في عام ١٦٠٠ ومدارها على امرأة تتزيا بزي رجل وتخدم حبيبها وتحببه وتسهر عليه على غير علم منه ، وهي بذلك تمثل الحب الحقي السكوت الذي يكمن في النفس كمن النار في حجارة الزناد .

وفي عام ١٦٠١ برزت رواية « يوليوس قيصر » واهم ما فيها وصف اخلاق بروتوس قاتله وصفاً بديعاً . وفي عام ١٦٠٢ مثل « هملت » اشهر رواياته ، وهي رواية فلسفية تسمو عن مدارك الشعب ومع ذلك فقد طرب الشعب الانكليزي لها اشد طرب واختارها على ما يُقال على جميع رواياته . ومدار هذه الرواية على فتى يكره الحياة لمصابه بامه التي قتلت اياه لتستبد بالملك بعده . ومن ينسى صراخه في وسط احزانه ويأسه وهو يستعد للانتقام : « الله يا ملاذ الحياة كم تظهرين لي فارغة باردة ! » وهذه الحالة هي نتيجة استغراق الفكر والهم كل عواطف النفس وايباسها ايباساً .

وبعد «هملت» كتب شكسبير «تروالوس و كريسيد» وذلك في عام ١٦٠٣ . وقد وصف في هذه الرواية حرب تروادة وجعل مدارها على حب فتى صادق في حبه . وفيها تقول إحدى نساء :

« ليست السعادة واللذة إلا في الطلب ، وهى بلغ الطالب غرضه مما فكل شيء قد ذهب . فلتعلم ذلك الحبيبات ، فان التي لا تعلم ذلك لا تعلم شيئاً . ان الرجال يخضعون ويدلون لنا قبل استيلائهم علينا ، ولكنهم يصيرون اسياداً لنا بعد الاستيلاء . »

وفي عام ١٦٠٤ كتب شكسبير «قياس للقياس» . ثم كتب في هذا العام ايضاً روايته « اوتلو » فبرز فيها كل قوى نفسه ، ولذلك قالوا انها ابلغ رواياته وان كانت « هملت » اشهرها . ومدار « اوتلو » على حب شديد يغار من نسمات الريح من جهة وعلى الخيانة من جهة اخرى . ولكن الحب لا يجيز لنفسه اقل شكوى ولا ضجر مع معرفته خيانة الحبيب له . وتلك غاية في الحب ما بعدها غاية .

وبعد « اوتلو » برزت « مكبث » وذلك في عام ١٦٠٥ ومدارها على درس بيسيكلولوجي في تأثير الرذيلة والجناية في نفس مجبولة على الفضيلة . وفي عام ١٦٠٦ برزت روايته « الملك لير » وموضوعها مصائب وفضائع تصيب شعباً بأسره ، وهي من افضل

رواياته ايضاً . وبعدها ظهرت في عام ١٦٠٧ « تيمون الاثينوي »
و « بريكليس » ولكنهما احط من الروايات الكبيرة التي
تقدم ذكرها لا سيما وان شكسبير ارتكب فيهما كثيراً من
الاغلاط فيما يختص بتاريخ اليونان لاقتباسه تفاصيله من الكتب
الخرافية التي كانت تطبع بومئذ . وفي عام ١٦٠٨ مثل رواية
« انطونيوس وكليوباتره » و « كوريولن » ، وفي عام ١٦١٠
« سمبلين » ، وفي عام ١٦١١ « حكاية الشتاء » والرواية البديعة
التي ختم بها مؤلفاته وهي « الزوبعة » كأنه قصد جعلها مسك
الختم .

شهرة شكسبير في العالم ومناظروه

واذا كان في العالم كاتب يصدق فيه قول شاعرنا العربي :

لا يعرف القوم الفتى إلا إذا

قضى فيعطى حقه تحت الثرى

فإنما ذلك الكاتب هو ولیم شكسبير صاحب الترجمة ، فإن
مناظريه من الكتاب لم يعرفوا له فضلاً كبيراً في حياته لأنهم
أخذوا عليه الابتداع في التأليف وترك الاتباع . ومما كانوا
يأخذونه عليه عدم مراعاته وحدة السياق في رواياته ، وما دروا

ان ذلك الاختلاف كان سرّاً من اسرار نجاحها . وهكذا الناس في التأليف وسواء متى كانوا لا يحسنون الابتداع اضعف قواهم أو لالفة أذواقهم للقديم البالي انقلبوا على المبتدع ونادوا بفضيلة الاتباع .

ولكن شمس شكسبير لم يطل انجذابها بهذه السحب في انكلترا اكثر من قرنين . فانه ما اتى آخر القرن الثامن عشر حتى سكنت جميع أصوات المنتقدين ولم يبق غير المعجبين والمستحسنين وبذلك انتصر اسم شكسبير انتصاراً تاماً .

اما اوروبا فانها كانت اسرع من انكلترا في اعطاء شكسبير حقه . ففي عام ١٦١٤ ، اي قبل وفاته بسنتين ، انتشرت شهرته في المانيا . وفي عام ١٧٦٧ وضعه لسنغ فوق كورنيل وراسين اللذين كانت اوروبا تعجب بهما في ذلك الزمان . وفي عام ١٧٦٢ ترجم ويلند كل رواياته ، واقتبس منها « كوثر » المشهور في سنة ١٨٠١ رواية روميو وجوليت ، وأخذ شيلر رواية مكبث ، وكتب هنري هين كتبه عن « أبطال روايات شكسبير » . اما فرنسا فقد كان فولتير اول مترجميه فيها سنة ١٧٣١ ، وقد قال في الكلام الذي بسطه للجمهور الفرنسي عنه : « انه كورنيل لندن ولكنه مجنون كبير ومع ذلك فله اقوال بديعة في غاية السمو . » اما شاتوبريان فانه كان يقول انه لا « يذوقه » اي



لا يستحسنه . ولكن لما جاءت مدام دي ستايل وقالت ما قالته
 عنه انتصر اسم شكسبير واقبل الجمهور الفرنسي عليه . وقد
 اجمع الناس اليوم على ان شكسبير اعظم مؤلفي الروايات في
 العالم . والصفة التي يميزونه بها عن باقي المؤلفين ما ظهر منه من
 سعة الاطلاع في كل شؤون الحياة . فاذا مثل ملكاً مثلاً
 عرف ما يحتاج في نفس الملك ، واذا مثل صعلوكاً عرف ما يناجي
 الصعلوك به نفسه . وقس على ذلك باقي حالات البشر من
 الحب والبغض والرديلة والفضيلة والحلال والحرام والغنى والفقر
 وكل ذلك مكتوب بأسلوب يسحر الالباب . وبذلك كان
 لشكسبير تأثير عظيم في فن الروايات وفي الحركة الادبية في
 جميع اقطار العالم لا في انكلترا فقط . وقد نقلت بعض
 رواياته الى اللغة العربية .

هل كان باكون كاتب روايات شكسبير ؟

ولكن كانه قدر لشكسبير ان لا يكمل مجده ابداً . فانه
 قام منذ مدة عدة من انصار باكون يزعمون ان الروايات التي
 تقدم ذكرها ليست من تأليف شكسبير وانما كان هذا ممثلاً لها
 فقط . واذا سألتهم فمن الف اذاً تلك الروايات البديعة فانهم
 يجيبون ان مؤلفها هو الفيلسوف باكون .

وبناء على ذلك تألف في انكلترا حزبان عظيمان اكبر من
حزبي المحافظين والاحرار أحدهما ينتصر لباكون والآخر
ينتصر لشكسبير . ولكن انصار شكسبير أشد غضباً وانكى
سهماً وافرغ صبراً من رفاقهم الباكونيين لان هؤلاء هم
المهاجمون .

اما الادلة التي يتخذها الباكونيون لاثبات ان باكون هو
الذي كتب روايات شكسبير فهي كثيرة منها: اولاً ان شكسبير
لم يتلقن في المدرسة دروساً تجعله قادراً على كتابة روايات
فلسفية سامية كملك الروايات بل كان من أصله رجلاً جاهلاً
ولم يذكر التاريخ عنه شيئاً . ثانياً ان في اكثر تلك الروايات
تلميحات وإشارات الى حوادث الطبقات العالية في لندن ولا سيما
حوادث حياة باكون التي مرّ تفصيلها . وقد سألت الملكة
اليصابات شكسبير غير مرة اذا كان أحد يساعده في تلك
الروايات . ثالثاً ان باكون كتب الى احد اصدقائه كتباً
خصوصية يقول له فيها انه يؤلف تلك الروايات ويدفعها الى
شكسبير ليمثلها باسمه . هذه بعض ادلة الباكونيين . واما
الشكسبيرون فانهم يقولون لهم: ان أقوالكم هذه مزاعم لا ادلة،
فهااتوا شهودكم ان كنتم صادقين .

وبينما كان الفريقان في هذا الجدل اذا بصوت رنثان من

اميركا يقول : « قد وجدت الدليل الذي لا يُودُّ على ان باكون هو الذي كتب روايات شكسبير . »

فالتفت الجميع فابصروا مسز غالوب الاميركية قادمة من نيويورك الى لندن ويدها مفتاح ذلك السر ، وهذه السيدة تقول انها وجدته في كتب باكون ، واليك التفصيل :

من المعلوم ان باكون هو الذي وضع اصول المخابرات الحفية بالارقام التي تستخدمها الدول في مخابراتها الرسمية . وكل من وقف على نسخ من الطبعة الاولى التي نشرت من كتبه في حياته وجد في بعض صفحاتها ارقاماً عديدة مختلطة اختلاطاً لم يظهر الغرض منه . فلما وقفت مسز غالوب على تلك الارقام قام في نفسها ان تستعمل الارقام السرية التي وضعها باكون في قراءة هذه الارقام المختلطة في كتبه الاولى ، فجربت ذلك ، وعند اول تجربة صاحت كما صاح ارخميدس : « وجدتتها وجدتتها . »

ذلك ان مسز غالوب تقول انها استخرجت بواسطة مفتاح الارقام السرية من تلك الارقام المختلطة العبارة التالية :

« ان امي الحقيقية هي الملكة اليبصابات وانا وارث العرش الحقيقي . تعقَّب تاريخي السري المنشور بالارقام في كتيبي تجد فيه اسراراً عظيمة لو بحث باحداها لباتت حياتي في خطر . »
التوقيع : فرنسيس باكون

فلما ظفرت مسز غالوب بهذا التفسير الغريب استأنفت
 القراءة بالمفتاح السري الذي وجدته فاستخرجت من ارقام
 اخرى في مكان آخر العبارة التالية :
 « ان فرنسيس دي فاردلام هو الذي ألف كل الروايات
 التي نشرت الى الآن باسماء مارلو وغرين وبيل وشكسبير . »
 ولما نشرت مسز غالوب هذا الاكتشاف قامت له الجرائد
 الانكليزية وقعدت وانبرى الشكسيرون يوسعون الباكونيين
 طعناً وتقريعاً حتى غصت الجرائد بمناظرات الفريقين . ولكن
 الطعن والتقريع لا يقومان مقام الدليل والبرهان ، ولذلك رأى
 احد مراسلي جريدة التيمس امتحان اقوال مسز غالوب فاخذ
 الصفحات التي زعمت هذه السيدة انها اكتشفت فيها تلك
 الاقوال وصار يبحث في ارقامها بواسطة المفتاح السري الذي
 ذكرته ويضيق المقام عن بيانه . ولا يخفى ان ذلك عمل شاق
 لما فيه من جمع الارقام المختلفة الشكل فضلاً عما يستغرقه من
 الوقت . ولما فرغ هذا المراسل من عمله ظهر له انه ينقص
 الفقرة الاولى التي ذكر فيها باكون ابناً لالصابات مائة حرف
 ايطالي لتكون كلماتها منطبقة كل الانطباق على الكلمات التي
 ذكرتها مسز غالوب ، وينقص الفقرة التالية التي ذكر فيها ان
 باكون مؤلف روايات شكسبير ١١٩ حرفاً ايطالياً ليكون
 المعنى تاماً كما ذكرته هذه السيدة .



فاستنتج كل واحد من الفريقين من هذا الامتحان نتيجة
تؤيد رأيه . فالشكسبيرون قالوا ان هذا الاكتشاف باطل
لنقص الحروف والباكونيون قالوا ان هذا الاكتشاف صحيح
لان باكون لم يكن يُطلب منه ان يذكر سره كاملاً، فاذا ترك
بعض حروف ناقصة فانما ذلك من خوفه ان يكتشف احدٌ هذا
السر في حياته .

وتأييداً لهذا الزعم يقول الباكونيون ان باكون كان ابناً
للملكة اليبابات من اللورد ليستر ، وانها عندما وضعتهُ أَلقت
به الى المحامي نقولا باكون الذي تقدمت الاشارة اليه بعد ان
شملته بالنعم فتبناه نقولا باكون وسماه باسمه . ولما شبَّ هذا
الغلام ظهر انه نابغة عصره فدارته الملكة في بدء الامر وسهرت
عليه ، ولكنه لما درى بانه ابنها انقلبت عليه وصارت تروم
التخلص منه لان وراء امره اموراً سرية اخرى تضرب صفحاً
عن ذكرها . فكبر هذا الامر على فرنسيس باكون واخذ
يكتب روايات يلمح فيها بحوادث حياته وحوادث البلاط
ويدفعها الى ممثلي عصره كشكسبير وغيره . وكان قد ورث
عظمة النفس من امه وابيه فطلب العلى من طريق العلم والفلسفة
فنبغ فيهما وكتب كل الكتب المنسوبة اليه والى رجال النهضة
الادبية الانكليزية في ذلك العصر كشكسبير وماريو وبيل

وغرين . فبناء عليه يكون فرنسيس باكون ملكاً وابن ملك
من حيث النسب ومن حيث العقل والوارث الحقيقي للعرش
الانكليزي . فليحذر جلالة الملك ادوار على عرشه من ورثة
باكون وليطأطأ الفلاسفة والعلماء والادباء رؤوسهم امام
ملك العلم والادب والشعر والفلسفة الذي اجتمع فيه هوميروس
وافلاطون والبيصابات وغرين وشكسبير .

هذا ما يزعمه الباكونيون . ولا ريب ان باكون جدير
بهذا الشرف العظيم ولكنهم لم يثبتوه له بحجة قاطعة لا تقبل
الرد . بقي لتمام هذا البحث ان نقول ان كثيرين من اعاضم
الانكليز وفي جملتهم بيرون وبالمستن وببيكنسفيلد وبريت
وكاريدج وايمرسن يعتقدون ان الروايات المنسوبة لشكسبير
ليست من قلمه استناداً الى ان شكسبير كان اجهل من ان
يؤلف مثلها . ولا تزال الحقيقة ضائعة بين الفريقين .

سوريا حلقة التمدن

جمع صاحب كتاب التمدن الاسلامي اسباب عظمة العرب واتساع فتوحهم في احد عشر سبباً وهي : نشاطهم وخفة احمالهم ، اعتقادهم بالقضاء والقدر وان الانسان لا يموت الا اذا جاء اجله ، مهارتهم في ركوب الخيل ورمي النبال ، نبوغ رجال عظام في صدر الاسلام ، صبرهم ومطاولتهم في الحرب ، انجادهم بعضهم بعضاً ، حفظهم خط الرجعة ، واقعة اليرموك التي شددت عزائمهم ، انقسام الروم والفرس يومئذ وفساد اخلاقهم ، انحياز اليهود اليهم ، عدلهم ورفقهم وزهدهم .

وبديهي ان هنالك اسباباً اعظم من هذه الاسباب لم ينتبه المؤلف اليها ، منها مسألة التوحيد التي كانت كهوق خلّاب تحطف الابصار . ومنها ، وهو اهمها كلها ، النفس السامية العربية التي صاغت عوامل بلاد العرب الطبيعية وغير الطبيعية . ولو ان امة غير امة العرب اجتمعت فيها كل الاسباب التي ذكرها المؤلف لما استطاعت ان تقوم بما قامت امة العرب به اذا لم تكن سامية . ولذلك قال رينان وجميع المستشرقين ان



النسل الذي صدر عنه الدين والحرية والنزاهة والاخلاص
وتصورات النفس الغزلية انما هو نسل هنود اوروبا والساميين .
اما الساميون فهم جميع الشعوب التي كانت تتكلم بلغة من
اللغات التي يسمونها سامية وهي العربية والسريانية والعبرانية
والآرامية والكلدانية والآشورية والحميرية . فمن هذين النسلين
هنود اوروبا والساميين خرج تمدن العالم واديانه الواقية . اما
هنود اوروبا فقد كانت ثمار عقولهم تصورات رقيقة وحناناً
وعواطف جديّة اي عواطف من ألزم لوازم الآداب والدين ،
ومع ذلك فان الدين لم يخرج منهم لانهم كانوا شديدي التمسك
بتقاليدهم الدينية القديمة ، وانما خرج من الساميين الذين كان لهم
في ذلك فضل عظيم على الانسانية . فالذين اعدوا اذاً سبيل الدين
للانسانية في العالم هم اوائك البدو الذين كانوا سارحين في بلاد
المشرق تحت الخيام والاطناب بعيدين عن فساد العالم واضطراباته ،
يعني رينان بذلك القبائل الاسرائيلية التي خرجت منها الديانة
اليهودية والديانة المسيحية ، والقبائل العربية التي خرجت منها
الديانة الاسلامية .

نقول وكما ان الساميين ، اي الشرقيين في عرفنا اليوم ، كان
لهم فضل عظيم على الانسانية من حيث خروج الاديان منهم
كذلك كان لهم فضل عظيم عليها من حيث تعزيز الصناعة



والتجارة وانتشار الفنون والمعارف . ولا ريب ان القارىء قد ادرك من هذا القول اننا لا نعني به احداً غير الفينيقيين .

والذي انخطر هذا الموضوع في بالنا كتاب علمي كبير نشره العالم الفرنسي فيكتور برار وعنوانه : الفينيقيون والاولديسه . وقد قصد به الكاتب امرين : الاول تأييد ما قاله سترابون من ان هوميروس الشاعر اليوناني المشهور اعتمد على الفينيقيين في وصف البلاد الخارجية التي وصفها في قصيدته الاولديسه ، فهم اذاً اساتذته . والثاني ان حوادث الاولديسه المبنيّة على نكبات البطل اليوناني عولس ابي تليماك بعد خروجه من جزيرة كاليبسو ليست بحوادث خرافية . وقد ذكر المؤلف انه اكتشف البلاد التي حدثت فيها تلك النكبات ونشر رسومها . اما الامر الاول فيؤيده المؤلف باقامة عدة ادلة على ان الفينيقيين هم الذين مدّّوا اليونان وعلى الخصوص جهات الارخبيل ، وذلك ان قرصان اليونان كانوا يخطفون الفينيقيين ، اي سكان صور وصيدا وغيرها من الثغور الفينيقية السورية ، ويأخذونهم الى بلادهم فينشرون فيها الميل الى الفنون والتجارة . وإليهم ، اي الى هؤلاء الاسرى الذين نبغوا في اليونان وعاشوا فيها ، ينسب المؤلف نفائس الفنون اليونانية التي ظهرت في النهضة اليونانية . وعلى ذلك فان فينيقية او سوريا تكون الوصلة الكبرى بين

التمدن القديم والتمدن اليوناني الذي تلاه . بل انها تكون استاذ
اليونان واصل نهضتها .

ولا يخفى ان هذا القول لا يُرضي انصار التمدن اليوناني لانه
ينفي عن النفس اليونانية صفة الابداع ، ولذلك اكثروا من
الصياح بالمؤلف واستهزأوا به . ولكن الصياح والاستهزاء لا
ينقضان الدليل والبرهان .

واما اثبات صحة الحوادث التي نسبها هوميروس الى عولس
في الاوديسة فلسفنا في صدره الآن . ونكتفي بان نقول ان
المؤلف ذكر في كتابه ان جزيرة الالهة كاليبسو التي سافر
منها عولس هي جزيرة واقعة في المدخل الشرقي لجبل طارق
وتُدعى اليوم جزيرة بريجيل ، وان الشاطئ الذي قُذف عليه
عولس بعد سفره منها هو شاطئ جزيرة كورفو في بلاد اليونان .
وقد وصف المؤلف مواقع هذه الجزيرة التي زارها بنفسه وصفاً
ينطبق على وصف هوميروس .

ولكن اذا ثبت ان هوميروس لم يكن قادراً من تلقاء
نفسه على وصف البلاد البعيدة التي وصفها وانه اقتبس وصفها
من الفينيقيين الذين كانوا يعيشون في بلاد اليونان بقي علينا ان
نعلم السبب الذي اوجب على الفينيقيين تعليمه اياه وجعله يرضى
بتنظيمه ، فنقول ان هنالك واحداً من ثلاثة : فاما ان هوميروس

اراد بذلك خدمة بني جنسه اليونان وافادتهم بمعلوماته الجديدة .
واما انه اراد باغراء من الفينيقيين تحذير قومه اليونان من اخطار
السفر التي اكثر من ذكرها ووصفها في قصيدته صرفاً لهم عن
البحر ليقى الفينيقيون منفردين فيه فلا يزاخمهم اليونان عليه .
واما ان الفينيقيين راموا اتخاذ شعره البليغ بمثابة اعلان لبضائعهم
وفضائلهم . وفي هذه الحالة تكون الاوديسه ، تلك القصيدة
البليغة السامية التي يقتبس منها شعراء الافرنج افكارهم واساليبهم ،
عبارة عن اعلان تجاري ، ويكون الفينيقيون اول من اخترع
هذه الاعلانات البليغة التي كثرت في هذا الزمان .

واذ ذكرنا الحلقة الفينيقية التي ربطت التمدن القديم بالتمدن
اليوناني وكانت اساساً له فاننا نذكر معها مدنية اخرى كانت
سوريا حلقة لها ايضاً ، واليك البيان :

لما دبّ سوس الفناء في التمدن اليوناني والروماني على اثر
الانقسامات والمشاحنات الدينية التي قامت بين اهله قامت في
العالم دولة جديدة لتجديد شباب العالم وهي دولة العرب . فقيامها
كان طبقاً للنظام الازلي الذي تديره اليد الازلية . وكان روم
القسطنطينية وروم رومة في تلك الازمان في نزاع شديد بشأن
طبيعتي المسيح الالهية والبشرية . ففي اوائل القرن الخامس
اظهر نسطوريوس بطريرك القسطنطينية رأيه في ان طبيعة المسيح

البشرية منفصلة عن طبيعته الالهية ، ولذلك لا يجوز تسمية العذراء
مريم والدة الاله بل يجب ان تدعى والدة يسوع ، فعارضة في
ذلك البطريك الاسكندري واسقف رومة لاغراض خصوصية
غير الاغراض الدينية مما يطول شرحه . ثم اجتمع مجمع في
افس وقرر تكفير نسطوريوس وعزله من غير ان يحضر هذا
المجمع اساقفة سوريا والشرق لانهم كانوا من حزب نسطوريوس
وكان انصار البطريك الاسكندري يخشون من ارتفاع كلمتهم .
ولما عزل نسطوريوس ونُفي الى وطنه سوريا تفرق حزبه
السوري في انحاء آسيا كلها وراح رجاله ينشرون معارفهم
اليونانية وعقائدهم في جميع الاقطار ، فبلغوا الهند والصين وبلاد
العرب . وقد عرف صاحب الشريعة الاسلامية وابو بكر
الصدّيق بعضاً منهم .

ولما قويت شوكة العرب كانوا يحمون هؤلاء النساطرة لان
اعتقادهم بالسيد المسيح كان قريباً من اعتقاد المسلمين به من
بعض الوجوه . وربما كان يومئذ بين الاعتقادين شيء من العلاقة .
فكان النساطرة يستخرجون علوم اليونان ومعارفهم وهم آمنون
في حمى الاسلام وراتعون في قصور خلفائه . وهم الذين كانوا
اول من ترجم الفلسفة اليونانية الى اللغة العربية . وهم الذين
أنشأوا في مدينة ادسيس الواقعة في ما بين النهرين المدرسة

المشهوره التي خرج منها العلماء للنهضة البغدادية . وقد ذكر
مؤرخو العرب هؤلاء النساطرة فقالوا انهم قوم يحكمون في كل
شيء بعقولهم ويفحصون كل الآراء بانفسهم . وقد ذكرنا في
ترجمة ابن رشد ان هذا الفيلسوف لم يعرف فلسفة ارسطو إلا
من الكتب التي ترجموها . فكأنه كتب لسوريا ان تكون
حلقة ثانية بين مدنية اليونان ومدنية العرب كما كانت حلقة بين
المدنية القديمة والمدنية اليونانية .

اسكندر الكبير

في لبنان وفلسطين

بعد تغلب اسكندر الكبير على الفرس في معركة ايسوس الكبرى اراد ان يذيق جنوده لذة النصر فأرسل فريقاً منهم الى دمشق الشام ليأتوا بالاموال والنقائس التي كان داريوس قد وضعها فيها قبل رحفه اليه . وبعث اسكندر في جملة هؤلاء الجنود فرسان تساليا مكافأة لهم على ما اظهروه من البسالة والشجاعة في ساحة القتال حتى قيل عنهم انهم سبب النصر . فاغتنى الجنود الذين ساروا الى دمشق لفرط ما نالوه من النقائس والأموال ، ودب الطمع في نفوس المكدونيين فاصبحوا يرغبون في طلب الفرس حيثما وجدوهم للتمتع باموالهم ونقائسهم . وبذلك كان اسكندر كأنه زاد حمية جنوده ورغبتهم في القتال .

غير انه رأى وجوب الاستيثار من الثغور البحرية قبل الايغال في داخلية البلاد . وكانت قوى هذه الثغور في قبضة الفرس وهي مؤلفة من اساطيل المدن الفينيقية صور وصيدا وجبيل وارواد وقبرص ، فخضعت له هذه البلاد لما رآته من بأسه وبطشه ولأنها كانت تطلب التخلص من نير الفرس ، ولكن



صيدا ابت الخضوع وطلبت ان تكون على الحياذ بين الفريقين
المتحاربين . فكبر ذلك على اسكندر لاسيا وان بلاد اليونان
اخذت تتحرك وصارت سبارطة تستعد للقتال فقصد اسكندر
صيدا لاختضاعها . الا ان اخضاع صيدا كان يقتضي اسطولاً
بحرياً لحصرها من البحر ، فأمدّه ملوك قبرص بأسطول مؤلف من
٢٥٠ مركباً حربيّاً . ولو لم تده قبرص بهذه السفن واتحدت
عمارات فينيقية كلها لما كان لاسكندر سبيل اليها ، ولكن المدن
الفينيقية وامارات قبرص كانت يومئذ في تحاسد وشقاق عظيم ،
ولذلك تمكن منها الفاتح باستعمال بعضها في محاربة البعض الآخر ،
وهذا شأن الشقاق في كل زمان ومكان ، فهو يفرق القوى ويحكم
الغريب الأجنبي في رقاب ابناء البلاد .

ولما حصل اسكندر على تلك السفن حصر بها مرفأ صيدا
واقام في البحر استحکامات كبيرة ثم اخذ يقاتل الصيداويين
البواسل قتالاً متتابعاً ، فثبتوا امامه ثباتاً عظيماً حتى كاد يعيل
صبره . وقد ورد في التقاليد اليونانية ان اسكندر رأى في
نومه وهو مقيم على هذا الحصار ان هرقل وقف على اسوار
صيدا وأشار اليه بيديه ان يذهب اليه . ففسر ذلك مفسرو
الأحلام بقرب استيلاء الاسكندر على المدينة . وروى
الصيداويون ان بعضهم سمع تمثال ابولون اله الشمس الذي كان

في المدينة يصيح بهم انه عازم على الفرار من مدينتهم الى الاسكندر وذلك لما صنعوه فيها من الشرور . فكبر هذا الأمر على الصيداويين فجاؤوا بسلسلة وقيدوا بها التمثال المذكور انثلاً يفر من عندهم ، ثم سمروا التمثال بقاعدته ولقبوه «اسكندري» اشارة الى انه من حزب الاسكندر .

ولما خسر الاسكندر من حصر صيدا اراد الذهاب الى جبل الكرمل لمقاتلة العرب الذين كانوا نازلين فيه . فسار مع قسم من جيشه وأبقى القسم الثاني في الحصار . وقد صعب في هذه الحملة مؤدبه لينزما كوس صاحب الجسم الضخم والحركات الثقيلة . فلما وصل اسكندر الى ذلك الجبل اراد ان يصعده راجلاً لا راكباً ، فقدم جنده امامه وتأخر مع مؤدبه المذكور وشرذمة منهم . ولكن ما لبث ان امسى المساء وادرك بعض العرب اسكندر وشرذمته . فجعل اسكندر يبحث مؤدبه على السير السريع للنجاة من العرب ومؤدبه يلهث من التعب لانه لا يستطيع السير لضخامة جسده . فاوشك اسكندر يومئذ ان يقع في شر عظيم . ولما مد الليل اطنابه واضرم العرب النيران رأى الاسكندر انه لا ينجيه شيء غير الشجاعة ، فتناول حسامه وهجم على اقرب النيران اليه فطعن اثنين من العرب فجندلها ثم تناول من امامهما عوداً من الحطب مضطرباً وعاد الى رجاله فأوقد



معهم نيراناً عظيمة ولبشوا ليلهم بحرسون ، فلما رأى العرب تلك
النيران العظيمة ظنوا ان عدوهم كثير العدد والعدد ، فارتد
اكثرهم تاركين اسكندر وشأنه واقدم بعض منهم على جنوده
ففرقهم المكدونيون ، ثم ساروا في اليوم الثاني ولحقوا بسواد
الجيش . هكذا ورد في رواية المؤرخ شاريس .

ثم عاد اسكندر الى صور ، وكانت جنوده ترسل الى حاميتها
شراذم من الجند لماوشتها في كل يوم رغبة في ان تتعبها ولا
تترك لها سبيلا للراحة . فذات يوم وقد طال الحصار لانه
قد تجاوز ستة شهور قال العراف اريستاندر لاسكندر وجنوده :
انني اتنبأ لك بانك ستفتح المدينة في هذا الشهر . فجميع
الحاضرين لانهم كانوا يومئذ في اليوم الاخير من الشهر . فرأى
اسكندر ان يغتنم هذه الفرصة شأنه في اغتنام كل فرصة وقال
للحاضرين : لا تضحكوا فان عرافنا صادق الا انني اطلب اليكم
ان لا تحسبوا هذا اليوم اليوم الاخير من الشهر بل احسبوه
الثامن والعشرين . ثم نفخ في الابواق وجمع جنده وهجم بهم
على المدينة هجمة شديدة لم يهجم مثلها قبل ذلك اليوم حتى انه
كان كانه جمع قوة جميع جيشه في تلك الهجمة فاستطاع ابلاغ
استحكاماته الى الاسوار فاخذت الآلات تعمل فيها ففتحت فيها
ثغرة فصد الصيداويون اعداءهم عن الدخول الى المدينة في المرة

الأولى ، ولكن ما أثبت قلوبهم ان ضعفت فدخلها المكدونيون
عنوة واقتداراً وصدقت نبوءة العراف . وقد قتل من
الصياديين في تلك المعركة ثمانية آلاف رجل وباع اسكندر منهم
ثلاثين ألفاً . وبذلك قتل هذا الفاتح صيدا الجميلة عروسة
البحار يومئذ وهدم مدينتها .

وكانت العمارة الفارسية في خلال هذا الحصار قد تفرقت
وعادت السفن الى مدينتها الا فريقاً منها هاجمه انتيباتر احد قواد
الاسكندر وقهره فعفا اثر العمارة الفارسية .

وبعد صيدا قامت غزة فرفض حاكمها الحصي باتيس الخضوع
للاسكندر ، فقصده اسكندر على عجل واقام ابراجاً شامخة تحت
الاسوار لتوازيها في الارتفاع ثم اقام على حصرها . فطال الحصر
وكان شديداً كما كان في صيدا . وفي احد الايام مر عصفور
فوق رأس اسكندر فوقع منه على كتفه قليل من طين الارض ،
ثم ذهب العصفور فوقع بين الجبال المنصوبة للآلات
والاستحكامات . فاستدعوا المفسر اريستاندر ففسر ذلك بان
اسكندر سيصاب بجرح في كتفه ثم يأخذ المدينة . وبعد أيام
والمكدونيون يحصرون اهل غزة خرج المحصورون اليهم وردوهم
عن المدينة في معركة دموية جرح فيها اسكندر في كتفه
فاستشاط غيظاً لانه خاف ان ترى باقي امم الشرق هذا الشبان

الشديد الذي ثبتته صيدا وغزة امامه فتقوى قلوبها على مقاومته
وبذلك يمتنع عليه ما اراده من فتح الشرق، فهاجم غزة بعد ذلك
هجمات متتالية وفتحها ثم دخلها بجنده مستشيطاً غيظاً للسبب
الذي مرّ بنا، فامعن في اهلها قتلا حتى في شوارع المدينة، ثم
قبض على حاكمها وربطه بفرسه وسار بحره عدواً حول المدينة.
وكان ما رآه اسكندر كان حقيقة، فان اليهود كانوا مترددين
قبل فتح صيدا وغزة بين ان يكونوا مع الفرس او مع
اسكندر، ولكنهم ما لبثوا بعد فتح غزة ان خضعوا له. وهم
يقولون انه سار الى اورشليم باحتفال عظيم فخرج رئيس
احبارهم وبشره بانه يقهر كل خصم له لانه رأى آية النصر
مكتوبة على جبهته. ويقولون أيضاً انه دخل الى هيكلهم وذبح
ذبيحة فيه.

وبعد الاستيلاء على غزة بعث اسكندر الى امه اولمبيا
وكليوباتره وبعض اصحابه كثيراً من التحف والنفائس التي
وجدتها في هذه المدينة وفي جملتها نحو ٦٠ ليبرة من البخور بعث
بها الى مؤدبه القديم ليونيداس. ولذلك قصة لا تخلو من فكاهة،
فان مؤدبه هذا رآه يوماً في صغره يقبض البخور ملء راحته
ويحرقه في النار، فقال له: يا اسكندر ليس لك ان تبذر هذا
البخور الثمين بهذا القدر الا متى فتحت البلاد التي يرد منها.

فذكر اسكندر قول مؤدبه حين فتحه غزة وبعث اليه بالبخور
كما مرّ بنا مع كتاب قال له فيه : انني مرسل اليك الآن كمية
كثيرة من البخور لكي لا تكون شديد التقير على الآلهة . ذلك
لان البخور يحرق لها .

ويروى عنه في حصار غزة حكاية ثانية ، وهي انهم جاؤوه
بصندوق ذهبي اغلى ثمناً من جميع النفائس التي وجدوها الى ذلك
اليوم ، فاتخذوه بين يديه وقال لاصحابه والمحيطين به : فليقل كل
واحد منكم كلمة في اي شيء احق بان يوضع في هذه الصندوقة .
فقال كل واحد كلمة حتى اتت نوبة الاسكندر فقال : اما انا فاني
اضع فيها الايلياذة . والايلياذة كما مرّ بنا قصيدة الشاعر
هوميروس البليغة التي يصف بها حروب تروادة . قال
فلوطرخوس : فاذا صحت هذه الرواية التي رواها ثقات المؤرخين
ومنهم هيراكليدس كان هوميروس قد افاد اسكندر ودربه في
حروبه هذه لانه لا بد انه كان يطالع هذه القصيدة .

ثم برح اسكندر غزة بعد ان انزل فيها نزاله يونانية تستعمرها
وسار الى مصر .

عبادة الإنسان النبات

كان العالم الطبيعي الشهير دروين يسبح في سنة ١٨٣٣ في افريقيا الجنوبية . ففي ١١ آب من هذه السنة كان قاصداً بونس ايرس فنظر في سهل فسيح هنالك منظراً عجيباً وصفه بما يلي ، قال : بعد انقضاء بضع ساعات على مروري بالبئر الأولى لمحت شجرة شهيرة في ذلك السهل الفسيح . وكان الوقت شتاء . فدنوت من الشجرة فلم أجد فيها ورقاً ولكنني وجدت مكان الورق خيوطاً لا يحصى لها عدد معلقة بها وقد ربطت بهذه الخيوط هدايا كثيرة من السكاكر والحبز واللحم والانسيجة وما اشبهها . وهذه الهدايا يقدمها اليها الأغنياء ، اما الفقراء الذين لا يستطيعون ان يقدموا مثلها فيكتفون بان يسحبوا من ملابسهم خيطاً ويربطوه بها . واما الممتازون في الغنى فانهم يصبون في ثقوبها المشروبات الروحية المصنوعة من الحبوب او من نبات عندهم يُدعى «ماته» ثم يقفون تحت اغصانها ويدخنون مرسلين دخانهم فوق رؤوسهم لاعتقادهم ان تلك الشجرة التي هي إلههم ترتاح الى ذلك . وحول هذه الشجرة شيء كثير من عظام الخيل التي كانوا يقدمونها ضحايا لها .



وقد سأل دروين بعض الهنود هناك عن اسم هذه الشجرة فقالوا له أنها إههم «واليشو»، ولكن دروين يعلم أن الشعوب مهما انحطت أخلاقها الدينية فإن الألوهية تبقى لديها في مقام سام، فذلك ولما كان يعلمه من أن الإله واليشو إنما يقيم في بطن الأرض ويتمثل أحياناً في النباتات قال أن الهنود كانوا يعتبرون تلك الشجرة بمثابة هيكل لواليشو لا واليشو نفسه.

غير أنه مهما يكن من أمر هذا القول فإن عبادة هذه الشجرة وسواها من النباتات التي روى المؤرخون أن الشعوب قد عبدوها لا تخرج عن كونها مسألة علمية في غاية الأهمية يجب النظر فيها لمعرفة الأسباب التي دعت إليها. وتوصلاً لذلك يجب النظر في تاريخ بعض النباتات التي عبدتها الأقدمون.

مقاومة الإسلام لها

على أن هذه العبادة كانت عامة في الدنيا كلها، فإن قبائل الآشانتى في جهات النيجر كانت تذبح منذ بضع سنوات الذبائح لأشجار مقدسة عندها تدعى «الميموزا المقدسة»، وهي الشجرة المستحبة، ويعلقون الهدايا باغصانها. وكان سكان الداومي في القرن الماضي يضعون المرضى في ظل أشجار عندهم ليشفوا من أمراضهم. وروى مونغو براك أنه وجد في إحدى سياحاته



شجرة قال له الدليل عنها ان الانسان اذا مرَّ من امامها دون
ان يلقي اليها شيئاً فانها تغضب عليه . وقد نقل ريشارسون انه
كان يوجد في مملكة البورنو غربي بحيرة تشاد اشجار يعدم
الاهالي تحتها المجرمين ، وكانوا يعبدونها قبل دخولهم في الديانة
الاسلامية . وكان عدد هذه الاشجار خمساً او ستاً . والسلطان
ملك البلاد كان يخرج اليها مرة في السنة للاحتفال باكرامها
وعبادتها وذبح البقر والغنم ضحايا لها . فلما دخل اهليها في الاسلام
بطلت هذه الخرافات كلها ..

وروى العالم قسطنطين الذي نعتمد عليه في كتابة هذه
المقالة انه لا يزال يوجد في القطر المصري اثر لعبادة النبات .
قال . منذ بضع سنوات كان الانسان يستطيع ان يشاهد في
ضواحي القاهرة شجرة كبيرة يعتبرها اهل القاهرة مقدسة
ويسمونها الحكيم الكبير لانها تشفي من الأمراض ، وهم
يقصدونها افواجاً افواجاً للاستشفاء من الحمى وغيرها من
الأمراض الالتهابية . وطريقة استشفائهم انهم يجثون لدى
جذورها ويتلون الصلوات . وهذه الشجرة قديمة العهد ضخمة
الجذع والأغصان وعلى فروعها امتهة كثيرة يلقيها الناس اليها
على سبيل الهدية . ومن فرط احترامهم لها يتمتعون الناس من
تصويرها .

انتهى قول الراوي وكان بودننا ان لا يتسورط المسير
قسطنطين في هذا القول ، فانه اذا كان بعض البسطاء في بلد
يعتقدون ان الزيارة لاحدى الأشجار والصلاة عندها مما يشفي
المريض من مرضه فليس يصح ان يطلق ذلك على جميع اهل
البلد .

وكما وجدنا عبادة النبات في افريقيا فأننا نجدتها في آسيا .
فان السائح بولوارو في سنة ١٤٧١ والسائح بطرس دل فال في
سنة ١٦٢٢ قد وجدا في بلاد الفرس اشجاراً كثيرة عليها
الانسجة المختلفة . ويقال ان هذه العادة لا تزال موجودة هناك
الى هذه الأيام . على ان العرب كانوا يقطعون كثيراً من هذه
الاشجار ابطالاً لبدعها وربما قطعوا معها رؤوس بعض المعارضين
في قطعها .

مقاومة المسيحية لها

وقد قاومت الديانة المسيحية هذه البدع كما قاومتها الاسلامية ،
فقد كان في القرن الرابع للميلاد المسيحي قرب او كسر على
مسافة ١٧٥ كيلومتراً من باريس شجرة كانوا يعلقون بها
الاسلاب التي يغنمونها من العدو في ساحات القتال والأسلحة
المختلفة التي كانوا يزينون منازلهم بها . وكان الشعب يكرمها الى



حد اعتبر عنده قتلهم فورا نسيدين المسيحي الذي كان يومئذ
يضطهد انصاره . وكان أهل الجهات الجنوبية في فرنسا يعبدون
المغاور والأشجار في عهد القديس اماندوس . وكان من الفضائل
المسيحية يومئذ تخريب هذه المغاور وتقطيع هذه الأشجار . وقد
قررت بجامع أرل وتور وننت قراراً تحرم فيه اكرام الأشجار
والينابيع والحجارة ، وقس على ذلك في الهند وبلاد اليونان
والاقطار الاميركية بما يصح ان يقال فيه مع العالم لانج : ان
الانسان قد عبد النبات منذ أزمنة المصريين الاولى الى ازمنة
المتوحشين في هذا الزمان .

فما اصل هذه العبادات كلها ؟ وهل ان الانسان عبد النبات
اتفاقاً ام وجدت اسباب حملته على هذه العبادة ؟ وما هي هذه
الاسباب ؟ ان البحث في هذا الموضوع الطبيعي الجليل في غاية
الاهمية لما فيه من الفائدة واللذة .

اما الاتفاق فليس له وجود في الطبيعة حقيقة بل لكل
معلول علة ولكل نتيجة مقدمة ، ولذلك ننظر في الاسباب
والمقدمات التي حملت الانسان على عبادة النبات .

اصل عبادة الدبق والسنديان

فتنظر اولاً في نباتات الدبق واشجار السنديان التي كان

يعبدها سكان غالبا في الصخور المتقدمة . فقد يقال المورخ بنين
ان كتيمة الغالين كانوا يحتفلون انفسهم احتفال بقطف امار الدبق
ويقدسونها ويعززون اليها مزايا دينية كثيرة ، وهم يقطفونها عادة
بواسطة سكين من الذهب ، ومن المحرم عليهم قطفها بآلة حديدية
لئلا ينجسها الحديد . وهذا الأمر الاخير يدل على ان عبادة
نبات الدبق كانت قديمة جداً ، اي أنها سبقت العصر الحديدي حتى
حرم الحديد في قطفها . ولكن ما اصل هذه العبادة ؟

اصلها ان هذا النبات حلمي يعيش بلا جذور على الأشجار
التي يعلق بها . وقد كان يعلق في بلاد غالبا بأشجار السنديان
فيمرُّ الانسان الاول فيجد على هذه الشجرة نباتاً مستقلاً عنها
وهو يعيش عليها ، فيتساءل من اين اتى هذا النبات المستقل . ثم
انه يأخذ بمراقبة مصدر هذا النبات فيجد ان عصفوراً يأتي ببذور
منه ويلقيها على أغصان بعض الأشجار فتنبت عليها وتنمو .
ولا يخفى ان الاقدمين كانوا يعززون الى المشيئة الالهية كل ما
يقع تحت حواسهم من الأعمال العجيبة التي يعملها الحيوان
والنبات ، فأخذوا يعتقدون منذ ذلك الحين ان ذلك العصفور
الذي يأتي ببذرة الدبق الى تلك الشجرة مرسل من الآلهة وتلك
الشجرة مختارة منها فهي مقدسة . وبناء عليه عبد الغاليون القدماء
شجرة الدبق اولاً ثم السنديانة التي تحملها . وقد جاء في الأمثال



الرومانية قوتهم : ان العصفور يأتي هو نفسه بالدبق الذي يؤخذ به .

هذا اصل عبادة الدبق والسنديان في غالبا ، اي ان استغراب الانسان الأول النبات الحلبي الذي يقع على السنديانة باختيار طائر غريب مُرسل هو الذي نبه العقل البشري الى تقديس ذلك النبات ، ثم انتقل التقديس من النبات نفسه الى الشجرة التي ينمو عليها . هذا هو الاصل الاول .

اصل عبادة التين الهندي

والأصل الثاني نجمه في عبادة شجرة مقدسة شهيرة في الهند معروفة « بشجرة التين الهندي المقدس » او تين الهياكل . وقد كانت عبادة هذه التينة من اهم العبادات الاسيوية . اما صفتها فهي شجرة ضخمة تنتشر اوراقها وفروعها انتشاراً بعيداً حتى انها قد تظل لسعة انتشارها مئات من الناس . ولكن ليست هذه مزيته الكبرى ، وانما مزيته الكبرى بروز اغصان من وسطها وتدليها الى الأرض على شكل الجذور ثم غوصها في الأرض كما تغوص الجذور وقيامها مقام هذه من حيث امتصاص الغذاء . وقد تبلغ هذه الجذور البارزة مئات كما تشهد ذلك في اشجار من هذه الفصيلة موجودة في حديقة الأزبكية في القاهرة .



وقد ورد لهذه الشجرة ذكر في الكتب الهندية المقدسة ، فانهم
يسمونها شجرة الحكمة التي جذعها فوق واغصانها تحت تستند
اليها الأرض ومن عليها . وقد جاء في التقاليد البوذية ان ولادة
بوذه كانت بمثابة بروز جذر عظيم في وسط شجرة العالم . وروي
أيضاً عن امه مايا انها لما نقلت من فراشها لتلدته نُقلت الى احدى
قمم جبال حملايا ووضعت تحت شجرة منتشرة الأغصان
والأوراق ، فكانت اذا مدت يدها لتقطف ثمر الشجرة تدلت اليها
اغصانها من نفسها . ولا يخفى ما في ذلك من الرمز الى التينة
الهندية .

فهذه الأمور اذا اضيفت اليها مزية بروز الجذور من فوق الى
تحت ، وهي المزية التي تميز هذه الشجرة عن سائر العالم النباتي ،
وجدت انها كافية لاكرام الهنود اياها والاهتمام بها . وفضلاً عن
ذلك فقد كان لهذه الشجرة مزية اخرى على باقي الاشجار مما
جعل الانسان الأول يزداد بها اهتماماً ، وهي ان بذور هذه التينة
كانت كثيراً ما تنبت بازاء شجرة فتلتف عليها وتستند اليها .
ولكنها لا تشب وتقوى حتى تأخذ جذورها الظاهرة التي اشرنا
اليها بالتدلي الى الأرض فتضخم التينة وتنمو وتزداد التفافاً على
تلك الشجرة حتى تخنقها وتقتلها . ولذلك سميت خانقة الاشجار
أيضاً ، فكانت ذات مزية غريبة .



وكما ان الريح القت بذرة التين بازاء شجرة فنبئت وحنقتها
بعد بلوغها اشدها كذلك قد يحتمل ان يحمل العصفور تلك البذرة
الى هياكل الهنود فتنبت على سطوحها أو في جدرانها فيحسب
الهنود ان الآلهة قد انبتتها هنالك . وقد وجدت نقوش كثيرة
في الهياكل البوذية في الهند تمثل نمو شجرة التين المذكورة في
جدران الهياكل وبروزها من نوافذها .

هذا هو اصل تقديس الهنود شجرة التين الهندي . وزد على
ذلك ان ورق هذه الشجرة كثيف ثخين يقي المستظل بها من
هبوب الرياح وانهمار المطر الشديد في تلك البلاد فضلاً عن
اعتقادهم بان الصاعقة لا تسقط عليها لأن الآلهة تحميها . ولعل
سبب ذلك اذا صح ، وجود كهربائية دافعة فيها .

القضبان السحرية

ثم انه ورد في التقاليد الاسوجية ذكر لقضبان سحرية
يكشف بها الانسان المخبات . وطريقة الحصول على هذه
القضبان الثمينة مذكورة في اوراق وجدت في القرن السابع
عشر ومنها هذه العبارة : متى لقيت على جدار او على صخرة
او في جوف شجرة نبتة « السوبريه » نابتة من بذرة تكون قد
سقطت من منقار عصفور فاذهب اليها في مساء اليوم الثالث من

عيد نوردام واقطاف قضيباً منها فيكون له مزية اكتشاف
المخبات ومعرفة الاراضي التي فيها ينابيع . فانت ترى من
ذلك ان هذه الشجرة التي لها مزية الاكتشاف انما هي من النباتات
الحلمية او النباتات التي تبرز من جذعها جذور على طريقة التينة
الهندية .

تولد عبادة الاشجار من عبادة النار

ويمكن الاستدلال على تقديس الأشجار بمسالة النار . فان
الأقدمين كانوا يحترمون النار ويقدمون انواعها . فقد ورد عن
الرومانين انهم كانوا يضعون النور المقدس في الهياكل ويقدمون
عليه العذاري حارسات ويسمونهن الفستال . وورد عن اهل
المكسيك قبل اكتشاف الاسبانين بلادهم انهم كانوا يقدمون في
كل سنة حفلة عظيمة على جبل فيه اشجار كثيرة من
اليوكاستين فيأتي كاهنهم باضخم رجل من اسرى الحرب الذين
لديهم ويلقيه تحت الشجرة ثم يضع على صدره شيئاً مثقوباً ويأتي
بغصن شجرة ثم يأخذ بحكه في ذلك الثقب حكاً عنيفاً شديداً
متتابعاً حتى تظهر النار ويلتهب العود بشدة الاحتكاك فيشق
حينئذ صدر الاسير ويستخرج قلبه ليكون هدية للنار المقدسة
الجديدة . ويكون الشعب مجتمعاً في سفح الجبل ، فعندما تظهر له



النار الجديدة يتعالى هتافه وصراخه لانه يتخذها في كل عام علامة لعدم انطفاء الحياة في هذا العالم .

وقد ورد في كتب الفيدا الهندية ان احترام النار امر مقدس وله عند البراهمة حفلة عظيمة ولا سيما النار المقدسة التي يضرمونها باحتكاك غصنين يؤخذان من شجرة معلومة . ويقول الفيدا : ضع رباطاً في احد الغصنين كما يوضع اللجام في رقبة الجواد . هذا هو الذي يعيد الحياة . ثم جيء بسيدة النسل وحك الغصنين لتوليد « اني » وهي النار . ان اني كامن في الغصن كما يكمن الجنين في جوف امه .

وقد عثرنا على تفسير بديع للذبائح التي كان يذبحها الهندو وغيرهم من الأقدمين ويستخرجون احشائها . فانهم كانوا يرمزون بالحيوانات المذبوحة الى مبدأ الحياة العظيم ، فيقولون ان غيوم السماء هي البقر التي في احشائها النار ، ومتى اضطربت النار وانفجرت في الغيوم بشكل صاعقة اتخذت شكل الماء ثم نزل الماء مطراً الى الأرض فتحول الى عصير النبات ، ثم متى جف العصير ويبس النبات بقيت النار فيه وهي موجودة في كل حي لانها مبدأ الحياة . ومن اغرب الفرائب ان يكون العلم الحديث قد توصل الى شبه هذه النتيجة ، فانه يقول ان كل جرثومة حية تفرز الحرارة ولا تبرد الا متى عدمت الحياة .

فالنتيجة التي تظهر من كل ما تقدم عن تقديس النار بسيطة وهي انه اذا كانت النار مقدسة فالاشياء التي تتخذ لاضرامها يجب ان تكون مقدسة . وهكذا قدست الاشجار . والغريب ان النار المقدسة التي مر ذكرها عند المكسيكيين والهنود انما كانت تستخرج باغصان من النباتات الحلمية والاشجار التي يبرز من جذعها جذور الى الارض على طريقة التينة الهندية . وهذا مما يزيد الاقوال السابقة ثبوتاً .

عبادة الاشجار لمنفعتها

وفي استطاعتنا ان نضع في جملة اسباب تقديس الاشجار انتفاع الانسان بها . فان من اثار بعض الاشجار ما يعصر منه شراب طيب مسكر كشراب «الصومه» الهندي الذي يقده الهنود . ثم ان الانسان الاول كان يقات من اثار الشجر فقط فكان عليه بحكم الطبع ان يكرم مادة رزقه . ومعلوم ان من الاشجار ما هو مشمر كثير الاقبال وما هو عاقر لا يشمر او قلما يشمر . فبديهي ان الانسان الاول قد انتبه الى ذلك واکرم المثمرة واهمل العاقرة . وانما يصح هذا القول بالخصوص على اشجار آسيا التي كانت جبالها واوديتها تغص بها في الزمن القديم وكلها مشمرة تكفي البشر . وقد اثبت الباحثون ان في اذهان



البشر في كل البلاد المتوحشة والمتمدنة ذكرى وطن قديم فيه
خضرة دائمة وجنات لا يجف لها ماء ولا يفنى لها ثمر ، فاستنجوا
من ذلك ان الانسان انما يذكر بذلك جنات آسيا التي كان يعيش
فيها في بدء أمره ومنها هاجر بعد ذلك الى البلاد القاصية .
وبعضهم يسمي تلك الجنات عدناً .

الشجرة المدافعة والتي تخلق الحيوان

ومن الاشجار المقدسة شجرة تعرف باسم « سكروبيا » كان
لها شأن عظيم في اميركا الجنوبية ، وليس ذلك فقط لأن اهل
تلك البلاد كانوا يستخرجون النار منها بحك عود في ثقب يكون
في جذعها ، بل لأنها كانت ذات مزية اخرى عظيمة .

ذلك ان النمل كما هو معلوم يكون خطراً شديداً على
النبات في الاقاليم الحارة لهجومه عليه جيوشاً جيوشاً وقطعه
اوراقه مما يوقف نموه وينتهي بايأسه . وهكذا كان شأن النمل
في اميركا الجنوبية مع اشجارها الا مع شجرة « سكروبيا » ،
فقد كانت هذه الشجرة وطناً دائماً لنوع من الحشرات يشبه
النمل ولكنه عدو لدود له . فاذا صعد النمل الى السكروبيا
ليؤذيها هاجمته الحشرات الصغيرة التي فيها وحدث بين الفريقين
قتال ينتهي دائماً بانغلاب النمل وارتداده ، فكأن تلك الحشرات
نحراس للشجرة .

ثم ان الغريب في امر هذه الشجرة سوى ما ذكر انها تجازي
هذه الحشرات عن دفاعها عنها احسن جزاء . فانه يتولد على
اطراف غصونها العليا حويوانات او هذات نباتية صغيرة تتخذها
تلك الحشرات طعاماً لها . فكأن الشجرة تهىء لها الطعام جزاء
عن دفاعها عنها . وقد اعجب علماء النبات بهذا الاتفاق بين
الشجرة والحشرات .

ومعلوم ان الانسان الطبيعي الاول كان شديد الملاحظة
لما حوله اذ لم يكن لديه شيء يشغله عنه كما لديه الآن في الاجتماع،
فلا بد ان يكون قد انتبه الى هذا الاتفاق . ولا بد انه يكون
حين انتباهه اليه قد حكم بان الشجرة تخلق من تلقاء نفسها هذه
الحشرات للدفاع عنها . فهي اذاً مباركة اذ لو لم تكن كذلك
لما كانت لها هذه المزية العجيبة . وهكذا قدسها وعيها .

ثم انه يوجد امثلة اخرى على الاشجار التي كان يعتقد
الأقدمون انها تخلق حيوانات . فان السائح نورتنفور شاهد في
سياحته في الشرق في القرن الثالث عشر طريقة كان يتخذها
اليونان لزيادة غناء ثمار التين عندهم . وذلك انه كان يوجد لديهم
نوعان من التين : التين الجيد ، والتين الرديء البري . فكانوا
يقطفون التين الرديء في شهري حزيران وتموز ثم يربطون ثماره
بخيوط ويعلقونها في التينة الجيدة فتعطي ثماراً كثيرة، وربما تجاوز



حاصل التينة ٢٨٠ ليبرة على حين انهم اذا لم يضعوا التين الرديء عليها مربوطاً بالحيط فان التينة لا تأتي برقع هذه الكمية .
 فما سبب ذلك ؟ سببه ان ثمار التين الرديء تحمل الى التينة الجيدة لقاحاً لتلقيح ثمارها ، ومن غير هذا اللقاح لا ينضج للتين ثمر . وقد كان هذا التلقيح يتم في العصور الماضية بواسطة الحشرات التي كانت تنتقل من الثمار الرديئة الى الجيدة فتلقحها . فالظاهر ان متوحشي ذلك الزمان قد راقبوا ذلك وشاهدوا ان الحشرات تخرج من جوف الثمرة فاستنتجوا منها انها تخلقها فاكرموا التينة وعبدوها .

شجرة الخلد المصرية

ويوجد في تاريخ المصريين مثال مهم على اشتقاق الحيوان من النبات . فانهم قد وجدوا في كتاب الأموات الذي يعتبرونه دليل النفوس النائمة بعد الموت قولاً غريباً يؤيد ذلك ، وهذا نصه : ان الميت يحمل عصاه في يده ويذهب في الآفاق مفتشاً عن خالته ، ولكنه لا يلبث ان يصل الى طرف الدنيا الحقيقية فيجد نفسه تجاه جميزة ممتلئة من اثمار تين الجميز وعليها امرأة نابتة من جذعها وفي يدها اناء يتضمن ماء الحياة ، فاذا رفض ان يأخذ منها عجز عن اتمام سيره لأن هذه الشجرة شجرة الخلد



وهذه المرأة هي الالهة نوت إلهة الخلد التي تحمل في يدها كوز
ماء الحياة فالذي يشرب منه يحيا والذي لا يشرب يموت .
وقد بحث المسيو ماسيرو في سبب عبادة المصريين القدماء
لشجرة الجميز وتقديسهم اياها فقال انهم في بدء الاجتماع كانوا
يستغربون انفراد شجرة من اشجار الجميز في سهل فسيح دون
ان يكون لها رفيقة في الحياة فيكرمونها ويعتقدون البركة فيها،
وكانت السهول الواقعة قرب الجميزة تدعى مكان الجميز، وكانت
مصر نفسها تدعى في ايام الفراعنة ارض الجميز .

اشتقاق الانسان من النبات

هذا ولاشتقاق الانسان من النبات مثال آخر ادل بما تقدم،
وهو ان كثيرين من متوحشي اميركا وآسيا يعتبرون انفسهم
انهم اخوان للاشجار والنباتات التي حولهم ويعتقدون ان لها ارواحاً
تحس وتشعر بها . وقد وجدت في الهند وغيرها رسوم كثيرة
تمثل اشجاراً معلقة بها رؤوس بشرية . وكانت العادة في اوربا
منذ القديم ان يزينوا الاشجار بوجوه صناعية من جلد ملون .
وكان سكان جزائر بحر ايجه يعبدون البحر ويزعمون انه مصدر
كل شيء اذ فيه كل ما في الارض . ففي الارض افراس وبشر
وامثال كالحبار وما اشبه وكذلك في البحر . وانما قالوا هذا



القول لما وجدوه من الشبه بين مخلوقات البر والبحر . وفي
تقاليد كثير من الشعوب ان زبد البحر الطافي على وجهه هو
مادة الحياة الأولى ومنها خلق كل ذي حياة . وكان الرومانيون
والهنود والمصريون أيضاً وغيرهم من المتقدمين يعتقدون كما قال
المسيح لتورماند : ان العالم شجرة عظمى الارض جذعها والسماء
اغصانها وثمرتها النار . ولما قام الرجل الأول الذي علم الناس
كيف تستخرج النار من الشجرة حسبته الآلة كافراً لانه سرق
من الشجرة المقدسة ثمرتها الممنوعة . وهو قول يقرب مما جاء في
التوراة .

ولكن اين الشجرة التي اعتقدت شعوب كثيرة ان الانسان
مشتق منها ؟ الجواب الذي تجيب به كل تلك الشعوب انها
كائنة في قعر البحر . فمن البحر يخرج كل شيء . البحر هو
مصدر الحياة وصانع المخلوقات . وقد كان هذا الاعتقاد شائعاً
كل الشيوع في الهند والصين واليونان . ووجدت في هياكل
بوده والبراهمة في الهند والصين رسوم كثيرة تمثل الشجرة
الحالقة العظمى نابتة من قعر البحر ورافعة فروعها فوق
الامواج ومنها مشتق الانسان . ومما ينطبق على هذا الاعتقاد
ما رواه فلو طرخوس نقلاً عن عامة اليونان ، فقد روى انهم كانوا
يعتقدون ان سنديانة زوس نبتت من قعر البحر بعد الطوفان .

وقوله بعد الطوفان يدل على الزمن الذي تلاشى فيه البشر وقام
بشر غيرهم . فكأنه قال ان الانسان الجديد نبت من تلك
السديانة الجديدة .

هذا اهم ما عثرنا عليه في موضوع عبادة الانسان النبات ،
ومنه يستدل القارىء ان البشر الأول لم يعبدوا اشباههم من
المخلوقات الا لما كانوا يرونه فيها من المزايا ويشاهدونه فيها من
الرموز او المقدرة او المنفعة ، وفوق كل ذي علم عليهم .

خطبة لدى شلال نياغرا

سلام أيها الشلال . حدثني لأحدثك فقد جئتك من مكان بعيد . لقد جئتك من البلاد الشرقية البعيدة التي سمعت بك وانت لم تسمع بها . ولقد قرأت عنك فيها في صباي ما أدهشني ، فلما وطئت قدماي بلادك العظيمة هذه كانت زيارتك احدي أماني نفسي . ولما بلغت مساء أمس بلدتك المسماة باسمك وسمعت في الفندق صوتك يملأ الفضاء لم استطع الرقاد مع ان الليل كان في منتصفه ، وكان صوتك مع كونه شبيهاً بصوت أم تهمهم في اذني طفلها لتنومه يهيج أعصابي في فراشي ويمنعها من السبات بدل ان يسكنها ، وخيل لي مراراً انه يدعوني اليك وان لا أؤجل زيارتك ومصافحتك الى الغد . فنهضت الى ملابسي فلبستها وانحدرت في ظلام الليل الى الحديقة التي على شاطئك بين حبال الأنوار الكهربائية التي زينوا بها الطريق اليك زينة تتجدد كل يوم بجمال وسلامة ذوق كأنهم يحتفلون بك احتفالاً أبدياً . ولما صرت على شاطئك في الحديقة بين اصوات قبلات العشاق في الحمايل ولففات بنات أميركا

ليرين هل يرى أحد تلك القبلات المسروقة من وجناتهم هبطت
الى مائك بسرور ولذة لا مزيد عليهما كأنني هابط الى ماء
أعظم من ماء الاردن وغمست فيك كفتي اصافحك قائلاً :
سلام يا صاحب الماء .

اي نعم سلام وألف سلام ، لقد جئت اسألك سرّك
العظيم ، انا تعبت ولم اتجاوز ثلث قرن وانت لم تعب وقد
تجاوزت مئات قرون ، فما السر في ذلك ايها الشلال ؟

ولم يكن تعبي من الحياة وحياتك ، فقد كنت تعباً منها
من قبل حين كنت في زمن الشباب ، اعني شباب الروح لا
شباب الالهاب . أما الآن وقد بدأت أفهمها ، عفواً ولا تبترسم
ان كنت تستطيع الابتسام ، فقد أصبحت احبها كحب الانسان
لشيء لا مفرّ له منه فان حضر تمتّع به وان غاب لم يسأل
عنه ... وانما تعبت لانني أركض وراء شيء وهو يركض
أمامي .

فلعلّ هذا سبب تعبي بعد ثلث قرن وعدم تعبك أنت مع
انك ابن مئات قرون .

أنت لا تركض وراء شيء ولا تطمع في شيء . مياهك
تجري من حيث لا تدري الى حيث لا تدري مندفعة بقوة
الصواعق وأصوات الرعود ، وهي لا تبالى بمصيرها ولا بما يصيبها



أو تصيبه في طريقها . فلا غرض لك ولا غاية . وأما أنا فمع
ان لا غرض لي ولا غاية اريد بالرغم من الطبيعة امنا جميعاً
ايجاد غرض لي وغاية ... وهذا هو التعب العظيم . فهل أنا
طالب مستحيل ؟ أم غايتي لا تدرك إلا بعد عناء طويل ؟

صعدت الجبال أطلبها ، وهبطت الأودية أخطبها ، واستوقفت
في الأحراج نسيم المساء أسأله عنها ، وناجيت أجرام السماء
وسكان المدن والقرى استخبرهم خبرها ، فوجدتهم جميعاً لا
يعلمون ، والآلهة الذين يعلمون ذهبوا فلا يعودون .

انت عاصرتهم منذ الوف من السنين ، فاخبرني هل أسرّوا
إليك خبراً ، وهل تعلم شيئاً بما سيجري وبما جرى ؟

لما كان كهنة المصريين يحيطون هياكلهم بالأسرار ويسجدون
فيها للأبقار ، وموسى يقود شعبه في التيه ، واسكندر يفتح
المشرق والمغرب ، ويسوع يحمل على مبادئ الكهنة المادية
حملته المشهورة التي كوتهم في جباههم بنار أبدية ، ومحمد يدعو
إلى السيف أو القرآن ، وبوذه وكونفوشيوس وبرهما يجتذبون
اليهم أكثر من ثلثي بني الانسان ، ونابوليون يقتحم أوروبا التي
اتحدت عليه ليدوسها بسنابك خيله ، والعلم والفلسفة بين كونت
وقنت وسبينوزا وشوبنهاور وهيجل وسبنسر ونيتشه وروسو
وديكارت وفولتير وباكون ودروين يضطربان ورينان يبتسم

لأقوال الجميع ويقول بلغته البديعة : « لكل مسألة وجهان » -
لما كان كل ذلك ايها الشلال كنت تجري كما تجري الآن ومعاصراً
لهؤلاء الأعظم من بني الانسان ، فقل لي هل بلغك ان أحدهم
وجد تلك الغاية المنشودة واليتيمة المفقودة ؟ وهل أسرَّ أحد
منهم اليك شيئاً من تلك الأسرار الهائلة التي لا يبوح بها الانسان
لأحد غير نفسه ؟ حدثني لأحدثك يا جدَّ الأرض وشيخها
الأعظم ، وقل لي ما علمت لأقول لك ما أعلم .

ولكن مهلاً ولا تصغر اليّ ، فليس ما أعلم بذي شأن ، وتكلم
أنت أولاً ، فللجباورة حق التقدم على الاقزام . أف ما أحقر
الانسان واصغره لديك وما أقبحه لدى جمالك ! لقد جلست
بجانبك ساعة انظر الى نفسي وإلى مياحك الفضية فهيمت ان
ألقي بنفسي فيك لأكون جزءاً منك ، لاصقاً بك الى الأبد لا
انفصل عنك . ولكن أنى لي ذلك ؟ تكلم أولاً يا شيخنا
الناطق الصامت . فما لديّ شيء تافه ساقط .

وماذا عسى ان يقول لك ابن ثلث قرن يا ابن مئات قرون ؟
وماذا تستفيد من مُعاصر الصغار يا مُعاصر الكبار ؟ اسمع ايها
الشيخ . أتعطيني كل ما في صخورك من الجماد الذي لا يحسُّ
وتصوغ لي منه أجمد نفس ؟ إذا تمكنت من ذلك قلت لك
قولاً هائلاً يستحق ان يُصغى اليه ... والا فلا تسلي إلا ما
أقدر عليه .

ليس هذا يجنب ايها الشيخ الشجاع ولكنه كراهة للألم
وخوف من الانفصال عن العالم . انك انت تقدر ان تعيش في
فراشك الرحب الجميل وحيداً فريداً كإلهٍ جليل . وما فتئت
الآلهة تعيش وحدها . ولكن بني الانسان اجتماعيون طبعاً
وتطبعاً . ثم هل أنت تقدر على الخروج من مجراك وارتقاء
الآكام التي حولك ؟ فكيف يقدر رجل مثلي على الخروج عن
طريقه المأوفاة لصعود جبل أصعب وأشد خطراً من آكامك ؟

اتذكر ايها الشلال يوم كان شاطئك مرتعاً لأولئك الهنود
المساكين قبل ان يصل اليك البيض ويغتصبوا ارضهم هذه
ظلماً وعدواناً ؟ لا ريب في انك تذكره لانك كنت فيه
معبودهم . فأولئك البشر السذج المساكين الذين كانوا يصطادون
التمساح من مياهك وهم عراة الأبدان يكسو الريش رؤوسهم
وتحمل ايديهم الفؤوس والحرايب ويعيشون بالغزو والسطو في
قفر يباب كانوا اسعد حالاً وأنعم بالاً ممن هؤلاء البيض
الوافدين على شاطئك من جميع اقطار الدنيا وقد ملأوهما
بالمدن العامرة والمنازل الفاخرة والحدائق الزاهرة والمركبات
الكهربائية والسفن البخارية وراحوا يتبخثون بينها تبختر
الطواروس بثياب جميلة وشعور صقيلة . وصدقني ايها الشيخ
ان أولئك كانوا اسلم طبعاً وأبعد عن الحبث من هؤلاء .

قد غيِّروا ارضك ومن عليها ايها الشيخ ، وهم يظنون انهم
 حسََّنوها وحسََّنوك ، وجمَّلوها وجمَّلوك . وما جمَّاهم الا
 كجمال المرأة الدميمة : زخرف خارجي وطلاء سطحي . حك
 هذا الطلاء قليلاً فتجد تحته جيفة متانة . اظنني غير مخطيء
 ولا مسيء اليك ايها الشيخ اذا قلت لك انك كنت اجمل
 منك اليوم حين كان شاطئك ملجأً للمتوحشين ومعتزكاً
 للأسود والنمورة ومسبحاً للذئاب والتماسيح ومرفصاً للدببة
 والقرودة . فقد كان جمالك يومئذ وحشياً طبيعياً يقشعُ له جلد
 التصوُّر ويرتدُّ عنه طرف الخيال مذعوراً . لقد كان جمالك
 يومئذ جمالاً حقيقياً ، اما اليوم فقد أسروك كما تؤسر الأسود
 في الأقفاص وتُجعل فرجة للناس ، فأصبح شاطئك مرتعاً لذئاب
 ونمورة ودببة وقرودة من جنس جديد لها طباع تلك ولكنها
 تمشي على قائمتين لا على اربع . ان روحاً مادية هائلة هبت على
 العالمين فضعفت المبادئ وزعزعت الشرائع وسحقت الأديان
 والآداب وسأقت الناس بعضا الحاجة الحديدية الى مبادئ هائلة
 جعلتهم ذئاباً هائلة . فان الأمم الآن تتعادي وتتسلح تأهباً
 لاقتتال افظع من اقتتال الذئاب . والشعوب يأكل في داخلها
 كبيرها صغيرها وقويها ضعيفها كما تفعل اسماكك . فروكفل
 ملك من المال الف مليون بينما ملايين من البشر يستعطون



الحيز الآن ولا يجدون . وهو يستخدمهم باجور تافهة لزيادة ثروته
 المملوكة بدمائهم وعرقهم وهم يسكتون ويعملون لأنهم مضطرون .
 والسلطة في الأرض ضعفت وكادت تنحل . فان الناس اسقطوا
 العروش والملك والكنهم اقاموا مكانها ملوكاً لكل واحد
 منهم ملايين من الرؤوس ، فقويت بذلك سلطة المشعوذين
 والدجالين والجهلاء الناصحين الذين يملقون الشعوب ويضلونهم
 كما كان اخفاء الملوك يملقونهم ويضلونهم . والأفراد
 يتخاصمون ويتعادون ويفترس بعضهم بعضاً بأيديهم وألسنتهم
 وأقلامهم تنازعاً على الرزق والسيادة ، وقُبِحَ هذا الرزق وهذه
 السيادة اذا كان لا يُبلغ اليهما الا بالرجوع الى وحشية وهمجية
 اشد من الوحشية والهمجية الاولى . فاذا كان كل هذا هكذا
 ايها الشلال فأين الارتقاء الذي يزعمونه ؟ وما فائدتك في
 استبدال ذئابك القديمة بهذه الذئاب الجديدة التي لها طباع تلك ؟
 وما هذا القبح الذي يدعونه جمالاً ؟ من أجل هذا صرخ حكيم
 مشهور قائلاً : يا وحوش البر وافاعي الغابات ، خذيني اليك آكل
 من طعامك واشرب من مائك ، فان صحبتك اهون على الانسان
 من صحبة الانسان .

كل متحمس لمبدأ أو فكر أو فضيلة أو فضل يُعدُّ الآن
 بين تلك الذئاب الجديدة ساذجاً مخدوعاً لأننا أصبحنا ولا فضل

غير الفضة ولا مذهب غير الذهب ولا كمال غير الريال . وبا
للأمر المدعش ، فإن المتحمسين القادرين المخلصين للمبدأ والفكر
يُضْطَرُّون إلى كتان حماستهم وفكرهم وإخلاصهم لئلا يُرمَوْا
بملك التهمة ، وطلاب المنفعة المادية الجهلاء العاجزون المراءون
ينادون على السطوح بالمبدأ والفكر والإخلاص ويمدّونها كشركة
للافتناص . اليومُ يصرخ أيها الشيخ والببليل يسكت ، والناس
لا يفرقون بين صوت الببليل وصوت اليوم . . . بل مبادئ
الناس الراحطة أكثر موافقةً لصوت اليوم منها لصوت الببليل .
الناس لاهون بعمدهم وخزائنهم وأنانيتهم فلا تحدثهم عن شيء
آخر . لا تذكر لهم الحياة العالية العقلية والأدبية ، ولا تستنزل
لهم من المسأ الأعلى همس الآلهة والملائكة ، ولا تترجم لهم
اصوات الطبيعة وعواطف النفس الجميلة ، فإن كل هذه لا
تهمهم ولا تحرك أوتار قلوبهم لأنها أصبحت لا تتحرك إلا عن
طريق المعدة والخزانة والأنانية . ان الشراة والجهالة
والكبرياء قد اتحدت عليهم وطوّقت نفوسهم بإسلاك من فولاذ
أربطها بتراب الأرض منعاً لها من الارتفاع إلى الآفاق العليا
التي تعيش فيها النفوس العليا . فإخبرني أيها الشيخ الحبير مَنْ
من الفريقين هم الضالّون المخدوعون ؟ وَمَنْ يكون المنتصرون
الفائزون ؟ أفدني لأستفيد وأفيد ، وأمزق ذلك القناع بيد
من حديد .



انني ايها الشيخ من امة صغيرة هجر كثيرون منها بلادهم
الى بلادك طلباً للرزق والارتقاء . وقد بدأ كثير من تلك
المباديء الهائلة يتسرب اليهم في بلادهم قبل هجرتهم الى بلادك ،
وزاد تسربها اليهم بعد هجرتهم زيادة هائلة ، فقد كانوا يعيشون
منذ خمسين سنة مع سائر الأمم الشرقية بسذاجة ودعة وتضامن
وطمأنينة واحترام للنظام الاجتماعي بين الناس كما يعيش الطفل
في سريره . ولما دخلت اليهم مباديء قومك وبلادك تغيرت
حالهم ونفوسهم كما تغيرت أحوال جميع الأمم الشرقية ونفوسها
بعد دخول مباديء قومك اليها . فافدني ايها الشيخ ما سألتك
اياه لابلغه اليهم فنعلم جميعاً هل نحن على هدى أم ضلال ، وما
هو الغث والسمين في تلك المباديء ، وثق انني لا اخشى في
هذا البلاغ لومة لائم وان كان مما تضطرب له الشيوخ في القبور
والاطفال في التأمم ، ولا تخش التثقيب علي ايها الشيخ ، فان
حرفتي البلاغ ووظيفتي النشر ، ومن سوء طالعبي انني اتخذت
هذه الحرفة سيلاً لي في الحياة في بلادنا ولغتنا .

عفواً ايها الشيخ ولا تلمني لقولي من سوء الطالع ، فاني
ما أردت ما ظننت . ان طيور السماء تكفي بقطرة ندى
وحبة قمح ونحن طيور الخيال نكتفي بما تكفي به طيور
السماء . وهذه الطيور تعيش بسلامة جسماً وروحاً في أصغر

بقعة جدياء كما تعيش في الرياض الفيحاء ، وتغرّد بأنغام سماوية
 في تلك كما تغرّد في هذه ، فما أردت بكلامي الكسب المادي
 أيها الشيخ وإنما أردت الكسب الأدبي . ان صناعتنا شقيّة في
 بلادنا ولغتنا ، ومن طلبها لذاتها 'حرم لذاتها وجميع اللذات ،
 فهو يضطر في سبيلها الى مسالة الفساد ، والاغضاء عن أهل
 الأوهام والخرافات والاستعباد ، ومعاداة الاصدقاء ومصادقة
 الأعداء ، والخلط بين الكرام والعوغاء ، وتسمية الانحطاط
 ارتقاء ، ورؤية الجبل سائداً والسكوت عنه ، والحق ضائعاً
 والابتعاد منه ، واذا جاشت في النفس تلك النار التي توقدها
 الآلهة في بعض النفوس وضرمت الغضب المقدس في الصدور
 والروؤوس وحركت اليد لاستئزال صواعق الفكر على الطروس
 سكن العقل الجاف البارد تلك الصواعق قبل وقوعها بالابتسام
 وعدم المبالاة ، وقال للنفس الغضبي : اياك والسذاجة والغرور ،
 وأنشدها ذلك القول المشهور : « مكانك 'تحمدي أو تستريحي »
 فتصبح النفس وفيها ما في مياهاك ، بعضها في المرتفع ثائر هائل
 كثورة شلالاتك غال غليان أمواجك يطلب السدود والحواجر
 والعقبات لكنسها بقوته كنساً فلا تجترى الجبابرة ولا الآلهة
 على الدنو منه ، وبعضها في السفح على الشاطئ هاديء ساكن
 كأنه ماء في بركة تلعب بجانبه الأطفال وهو بها غير مُبال .



وبين ذاك الهياج وهذا السكون قوة الآمة أيها الشيخ
وآلام المنون .

انت قوي وتستطيع الثبات على هذا السكون والهياج معاً ،
وانما مريتك العظمى وقوتك الكبرى ثباتك هذا ، فثبتنا في ثبات
كثباتك . انك ايها الشيخ لو انقضت عن الجريان منذ عام أو
مئة أو ألف لكان نياغرا الآن في خير كان ولضحك منك
الأمازون والمسيحي بل النيل والدجلة ضحكاً على السهول
والأودية . فيا لهذا الثبات العجيب مدة الوفاء من السنين ! كل
شيء في الحياة حولنا نحن معاشر البشر يتغير وينغبر ، اصدقائنا
مخونون ، واحبابنا يسلون ، وأجدادنا وآباؤنا وأبنائنا يذهبون ،
واعداؤنا يعادوننا بسبب وبلا سبب ولا يعودون ، وأمم
تنقرض وأمم تقوم ، والاسافل يستعلون ، والأعالي يسفلون ،
والسلطين على العروش يرتعدون ، وكل شيء في الأرض
يتزعزع ويتضعع حيناً بعد حين حتى المبادئ التي خلقتها ازلية
ابدية بل حتى الأرض التي نمشي عليها يوم تزلزل زلزالها وتخرج
أثقالها . نعم كل شيء يتغير إلاك . فبارك الله في عظمة ثباتك
وحبائك وبيائك !

يا روح نياغرا والاهة مياهة : بعيني قد ابصرتك ، وبعد
هذا اليوم أصبحت اعتقد انك نفساً كنفسي ، ولست اعني

بهذا مسألة الخلود فانت خالدة كما دلّ على ذلك تاريخك ، وقد
 استدلت عليك حين صافحت ماءك بغمس يدي فيه وتجلّس لي
 بين وشاشه المتطايير كالغبار امامي قوس قزح بديع . يا لذة الحياة
 العقلية الكبرى حين رأيت قوس قزحك هذا كأن نفسك
 تنتصب ضمنه للترحيب برجل جاءك تعباً ملولاً متألّم الضمير ولا
 يعزّيه في الدنيا لذة أو جمال غير جمالك وجمال أمثالك . انني
 بعد ان رأيت هذا القوس وسمعت على الأثر هدير الهائل كأنه
 طبول بعيدة تضرب ووقع في اذني تغريد العصافير في أشجارك
 ورأيت الأزهار تتمايل على شاطئيك وحوها الفراش يطير
 ويقع وماؤك بينها كلها مسرع تحت الجسر الى حيث لا أعلم ولا
 هو يعلم - 'خيّل لي برهة' ، لغروري ودهشتي ، ان روحك حيّة
 حاضرة في هذا الاحتفال الطيبي العظيم وقد اقامته استقبالا لي
 ورداً لتحيّتي واستعداداً لاجابة طلبتي ، ولكنني لما رأيت في
 أشجارك السنباب يصيح وهو ساكن على الغصن ينظر اليّ
 وصوته شبيه بصوت الضاحك ضحكاً مستتراً ، والغراب على
 الشجر البعيد ينعب نعيباً شبيهاً بأنين الشكلي وبكاء الباكي جهراً ،
 وقفت حائراً أمامك استنطقهما واستنطقك ، إذ 'خيّل لي ان ذلك
 الضحك والبكاء انما هما ضحك من حجّتي اليك أطلب سرّاً
 وغاية حيث لا سرّاً ولا غاية ، وبكاء على آمال الصبي الذهبية



والأمانى السماوية التي خلقتها أبدية وإذا بها كالسراب جميل في
العين ولكن لا أثر له ولا عين . وبين الأمل في روحك المتجلية
في قوس قزحك واليأس لضحك سنجابك وبكاء غرابك اطرقت
على الجسر امامك ولبثت صامتاً ولم يبق حينئذ في نفسي لذة
ولا ألم ، ولا يأس ولا أمل ، اذ هي كادت تصبح جماداً
كجمادك .

اي نعم ايها الشيخ الذي ما عضه ناب الهرم وان كان قد
طال عليه القدم ، ستبقى على مرور الزمان حجاً لبني الانسان كما
كنت حتى الآن . فسيأتيك جمهورهم من بعدي كما جاؤوا قبلي
ما دامت الأرض ارضاً والسما سماءً ، ومنهم العاشق عشقاً
شرعياً يتساقى هو وعروسه في شهر العسل في الفنادق المشرفة
عليك كؤوس سعادة وقتية ، ومنهم العاشق السارق يجعل ظلال
اشجارك على شاطئك في ظلام الليل مخبأ لسرقاته ، ومنهم
سياح لا صناعة لهم غير السياحة بل لا صناعة لهم ولا عمل أصلاً
لأنهم من أهل الترف والكسل والبطالة يقصدونك لقتل أوقاتهم
لأن غيرهم يتعب ويعمل لهم ولا يفهمون منك غير جريان
مياهك ، ومنهم جمهور متوسطي العقول الذين سمعوا بانك
جميل عظيم فاختلفوا فرصة من أوقاتهم وساروا اليك مع
السائرين والتهاوا باللاهية الصبيانية التافهة عن جلالك وجمالك ،

ومنهم الحزين أو المنكوب أو التعب من الحياة أو جريح
القلب جرحاً أبدياً بكارثة من كوارث الدهر الغادر والزمان
القاهر مجيء اليك وهو يجر ذبول آلامه التماساً للقوة في ظلالك
وطلباً لتبريد نفسه المتقدة بشيء من رشاش مائك ، ومنهم
وهم المتأخرون المقدمون جمهور أهل الفكر يزورونك كزيارة
الكاهن الهيكلي ويقفون عندك يستنطقون آثارك ويستجلون
أسرارك ويسألونك أخبارك ويذكرون ويتذكرون . وانت
يا أيها الشيخ الجائر تود هؤلاء إلى بلادهم جامدين صامتين منقبضين
لأنك لا تفتح لهم خبايا أسرارك ، وأما جميع أولئك فتردهم
فرحين نشيطين معجبين ، فلا تحالف الزمان على خياره
وخيارك .

لقد طفت في ربوعك وحادثتك وسألتك فلم تجب وها أنا
عائد عنك ، فوداعاً أيها الشيخ ، تذكر في المستقبل رجلاً جاءك
من أقصى الشرق وأجال في ضفتيك مزيجاً غريباً من روح
الشرق والغرب ممزوجاً في نفسه وأفكاراً قد تستأهل الاهمال
وعدم المبالاة ولكنها لا تستأهل الضحك والهزاء ، وإذا هزأت
بها فاهزأ فقد هزأت قبلها بالدهر وضحكت من الزمان . ولكن
قبل ان تهزأ تذكر انها نتيجة تأثير قومك وأجداد قومك .
فنحن تلامذتكم في الصغائر كما نحن تلامذتكم في الكبائر .



صدقني ايها الشيخ ، غيّر مجراك واذهب الى بلادي ، فهناك
تجري خاملاً مجهولاً لا يعكّر ماءك ذئاب قديمة أو ذئاب جديدة
ولا يستأسرك الناس ليجعلوك « فرجة » والعوبة بل تعيش على
هواك معيشة الحمول والسلامة بعيداً عن الناس . هناك تسمع
حفيف أشجار الأرز ، وتهبُّ عليك ريح الأهرام ، وينبت زنبق
البرّ على شاطئيك ، وإذا مرّ بك اتفاقاً بعض الناس مروا
باحترام . ولا تسلي ايها الشيخ لماذا أتيتُ منها الى بلادك اذا
كان هذا حال بلادي ، فللتقادير أحكام .

مريم وشيخرون

فقلت مريم : فاسمع اذا يا صاحب . تقول انك لم تتخذ
اسمي الا وسيلة لاطهار مبادئك ، وأنا ايضاً لم اتخذ اهانتك لي
إلا وسيلة لاطهار ما في نفسي ، فلا تظن اني غضبت هذا الغضب
تأثراً باهانتك لي ، كلا ! - وضجكت - فان رأيك وآراء جميع
الناس لا تهمني ، أما قلت لك اني اعدهم خنازير قدرة ؟ فمن
يعتد برأي الخنازير ؟ وانما الذي أغضبني في كلامك وأضحكني
معاً شئت غارة شعواء على أمثالي من الضعفاء والمساكين
والساقطين كما تدعوهم وتجريدهم من التعزية الكبرى والعذر
الأعظم الذي لهم في هذه الدنيا ، فان كلامك يوهم ان هؤلاء
الضعفاء والمساكين والساقطين انما سقطوا لضعفهم وانحطاطهم
فقط ولذلك توجب نبتهم بل دوسهم لكي لا يبقى في الهيئة
الاجتماعية الا الاقوياء الأشداء ترقية لها . فيا صاحبي انك تتحكم
في البشر كأنك خالقهم . انني امرأة ساقطة كما تقول ، ولمجرد
حكيمك باني ساقطة تقضي باهلاكي وافنائني من الوجود دون ان
تبحث هل أنا اسقطت نفسي أم غيبي أسقطني . انك ترى على



شاطئ النهر حمامة جميلة بيضاء تستحم في مياهه فتغدرها أفعى وتنقض عليها وتفترسها فتقول : الخطأ في جانب الحمامة لأنها افتُرست وهي ضعيفة يجب ان تهلك وتغنى ، أما الأفعى فهي قوية فيجب ان تعيش وتلد أفاعي أخرى لتفترس حمامات أخرى . هذا ما تسميه ترقية يا صاحب ، وأيُّ عقل سليم وقلب ذكي يستم معك بتبريد الحمامة المفترسة من تعزيتها الكبرى وعذرها الأعظم بينما يتقطع لحمها ويتحطم عظمها تحت أنياب الأفعى ؟ أما تعزيتها الكبرى فهي اعتقادها بان الأفعى غدارة خائنة قاتلة تستحق لعنة الله والناس وان جميع الناس يعتقدونها كذلك ، وكلما ازدادت الأفعى سمناً وانتفخت شحماً ولحماً يصبح جوفها المملوء بجثث فرائسها لاغناً ذلك الشحم واللحم الذي اكتسب بالغدر والخيانة والقتل . هذه تعزيتها . أما أنت فتقول بحسب مبادئك وفلسفتك الراقية ان الحمامة مستأهلة نصيبها من الغدر والقتل لأنها ضعيفة .

فاضحكي يا أفاعي الأرض من هذه الفلسفة الجديدة وابكي لها يا حمام . هبك يا صاحب خالق الكون أنسيت ان خليقتك خلقت طبقات طبقات بعضها أضعف من بعض ؟ وما لي اتكلم عن الحيوان فأنني بذلك افصّر حجتي لأن غدر الحيوان وقتله أمران مألوفان ، وانت تعلم انني ما قصدت بكلامي الا التمثيل والقياس على الانسان .

فالبشر 'يخلقون' أقوياء وضعفاء ، وليس فيهم ضعيف الا
وترى أضعف منه ، ولا قوي الا وترى أقوى منه : أفاع
وحمام ونعاج وذئاب ، فما ذنب النعجة إذا لم تستطع مقاومة
الذئب ؟ وكيف تطلب مقاومتها له وهي 'خلقت' أضعف منه ؟
إذا كان هنا ذنب فالذئب هائل وهو واقع على خالقها لا عليها
لأنه خلقها أضعف من الذئب . هذا هو العذر الأعظم للضعيف
يا صاحب وأنت تريد تجريده من هذا العذر وجعل عذره هذا
ذنباً له . ثم يا صاحب ما تعني بالقوة والضعف ؟ ان القوة
والضعف في الحيوان قوة عضلية وضعف عضلي ، أعني قوة
بدنية وضعفاً بدنياً . لا تستغرب معرفتي هذه الأمور فلدينا
نحن بني اسرائيل علماء كما لديكم علماء ، وقد سمعت كثيرين
من علمائنا يردّون على علمائكم ويقبحون مدنيّتكم ، فالحيوان
قوي او ضعيف بحسب نوعه وتركيب جسمه وقوة عضلاته .
أما الانسان فالقوة البدنية احدي قواه لا قوته كلها ، وقوته
الكبرى هي قوة عقله .

بهذه القوة يتحكم في الأرض وكائناتها ويخضع جميع قواتها .
ألا تراه قد استأسر بها الفرس والثور والرياح ، وهي أقوى
منه ؟ أما سمعت ان اسكندر المقدوني غلب الفرس وجيشه
أقل عدداً من جيوشهم ؟ أما قهرنا واستأسرنا قائدكم بومبيوس



بجيش قليل ، وعددنا نحن بني اسرائيل اضعافه ؟ نفى المجتمع
البشري قوة فوق القوة البدنية وهي قوة العقل . فاسمع الآن .
ما قولك في رجل بليد جاهل لا يعرف من الدنيا شيئاً غير
جمع المال بالطرق المجللة والمحرّمة ، وهمه في غش الناس
للربح منهم ، جسمه كجسم الثور غلاظة وضيامة ، وعقله
كعقل العصفور ، ورجل آخر ضعيف الجسم ولكنه قوي العقل
صحيح الأخلاق ، يخترع لقومه آلات حربية يردون بها أعداءهم
عن الاسوار ومطاحن لطحن حبوبهم ومناسج لنسج انسجتهم
ومحاريث لحراثة أرضهم ؟

أيهما في شرعك هو القوي الذي يجب ان يعيش في الدنيا
لأنه أنفع لها ، وأيها الضعيف الذي يجب ان يتلاشى في شرعك ؟
هل عندك شك في ان الثاني هو القوي الحقيقي لأن القوة الحقيقية
الكبرى هي للعقل لا للبدن كما تقدم ؟ ولكن انظر ماذا يحدث
في الدنيا يا صاحب ، فقد خبرت منها ما لم تخبر . يحدث ان
الأول تكون افكاره متجهة الى جهة واحدة وهي التغلب على
غيره بكل الطرق ، فعنده الغش والاحتيال والسرقة وتعمد
ضرر الغير وخرق حرمة كل نظام وشرعية بطرق يعرفها ويعرف
انها لا توقعه تحت طائلة الشريعة ، والاستئثار بكل شيء ،
واستخفاف كل شيء في الأرض والسماء إذ لا قيمة لشيء عنده

غير المال . كل هذه تبلغ لديه أشدها وتوجهه جميع قوى نفسه
الى نقطة واحدة تنحصر كلها فيه وهي ربح المال والوجاهة .
وهو في هذا السبيل مجود بكل رخيص وغالٍ ويسلك هذا
المسلِك بهمة مشحوزة كهمة ذئب يطلب الفرائس في كل مكان .
ويحدث ان الثاني تكون افكاره منصرفة الى وجهة اخرى .
فان العاقل ذو ميل الى الاستزادة من العقل كما ان صاحب
المال ذو ميل الى الاستزادة من المال ، فعقله متجه على الدوام
الى طلب صفات العقل وهي اولاً نصبه أمام عينيه غرضاً شريفاً
يسعى اليه في ما يسعى اليه من منافع الذاتية ، والجد في نفعه
الذاتي ولكن ضمن دائرة الشريعة ، واحترام ملك غيره وعرضه
وشرفه ليجتزم غيره ملكه وعرضه وشرفه ، وترك العدوان
والغش والاحتيال والكذب والسرقة لأن عقله ينهأ عنها
وطبيعته لا تطاوعه عليها ، بل تنفره منها لانها لم 'ترب' في
بمارستها والتوجه اليها . فالآن اذا التقى هذان الرجلان في عمل
ايهما تظنه يغلب رفيقه فيه ؟ ايهما يكون فيه الضعيف ، وايهما
يكون القوي ؟

ان الرجل الثاني يحارب في ذلك العمل حرب رجل مقيد
بقبود ضمن حدود ، وهي الحدود التي يرسمها له العقل واعتاد
ان يعيش معه ضمنها . وأما الرجل الأول فيحارب حرب رجل



مطلق من كل قيود وحدود ، فبالكذب والاحتيال والغش
والسرقة والنهب والسلب يبلغ مناه ويتغلب على رفيقه المأسور
ضمن سور مبادئه . وهكذا تصبح الأرض ولا حق فيها الا
للقوة اذ لا حق ، وتنمو فيها وتسود الغلظة والقسوة والغش
والعدوان والسرقة وجميع مظاهر القوة بينما تمحي منها مظاهر
العقل والحق تدريجاً ، كما في ميدان تقتل فيه وتتنازع حيوانات
مدنية لا فرق بينها وبين الحيوانات الوحشية الا في ان تلك
تمشي على ساقين وهذه على أربع .

فهل الانسانية الجديدة التي تريدها يا صاحب هي على شاكلة
هذه الوحوش البشرية التي لا قيود لها ولا حدود ؟ أنا معك في
هذا لأنني تلميذتك ، ألا تراني أعيش بلا قيد ولا حدة أمرح في
الدنيا كأنها فضاء أطيّر فيه من أفق الى أفق ، ولا حدود فيها
توقفني عند شيء أو تمنعني من أن اضع يدي فيها على شيء ؟
فلتحى الحرية يا صاحب ولتحى مبادئك وفلسفتك ، انك تبرىء
بها القتلة وتذنب القتلى ، تعطي الحق للظالم وتلوم المظلوم ،
توافق على فعل السارق وتستهزئ بالمسروق ، وكأنك تقول
لهم : لا تُصِفُون الا اذا كنتم تقتلون وتظلمون وتسرقون .
فالضعيف او الشهيد الذي يقع في جهاد الحياة هو المذنب الجاني
فيجب حذفه من الوجود ، فكونوا كلكم قتلة وظلمة وسارقين
فلا تحذفوا ...

كانت مريم تلقي هذا الكلام كصخر حطه السيل من علٍ
وهي قائمة بأوداج منتفخة وعينين ثابرتين يلوح فيهما الغضب
ويختفي طبقاً لموضوع كلامها . وكان شيشرون جالساً أمامها
على العشب وعيناه شاخصتان في جبهتها ، أما يوسف فانه كان
قد نحس لكلام مريم تحملاً شديداً فقام واقفاً وخطا خطوة
نحوها كأنه يود ان لا يفوته كلمة منه ، وكان من حين الى
حين يلتقل بنظره من مريم الى يوسف ومن يوسف الى مريم
معجباً بحماسة مريم ومعاني كلامها ومراقباً وقع ذلك الكلام
لدى رفيقه شيشرون ، وقد رفع رأسه فخاراً بان مبادئه صدمت
على شفتي مريم تلك الصدمة مبادئ شيشرون التي صدمته وأعبته
فدهش وسراً معاً . فانه دهش لأنه سمع من فم تلك المرأة
ذلك الكلام السامي وتلك الحجة القوية ، وسراً لأنه رأى ان
الظلام الذي احاط بنفسه بعد سماعه مبادئ رفيقه قد أنقشع
عنها وحلَّ النور محله . ولكن دهشته هذه وسروره هذا فسحا
بجلاً في نفسه لعاطفة ثالثة اخرى . فان القارئ رأى فيما تقدّم
ان يوسف مال الى مريم أول ما لقيها تحت الرمانة ، فلما سمع
منها هنا هذا الكلام ورأى ارتفاع نفسها الى مبادئ الفكر
والخير ازداد ميلاً اليها وتعلقاً بها ، فكان وهو واقف أمامها
خافق القلب تائه الفكر مدهوشاً حائراً يشبه صبيّاً مدهوشاً رأى



وهو واقف امام مزبلة ملاكاً يخرج من المزبلة بين الأقدار ويرتفع في جو النقاء والسناء نقياً طاهراً .

فأخذ يقول في نفسه وهو يمر يده على جبينه لمسح العرق الذي كان يتصبب منه لثورة نفسه واضطراب باطنه : قالوا ان نوابغ الأرض يكونون الهاً عظيماً او شيطاناً رجيماً ، على اني أرى هذه المرأة الغريبة الأخلاق قد جمعت الأمرين معاً .

ولما سكنت مريم لتمسح العرق عن وجهها بينما كان يوسف يفكر ويحلم مدهوشاً كما تقدم تامل شيشرون في مكانه ثم التفت الى مريم وقال :

هل فرغت من كلامك أيتها السيدة ؟ انك اخطأت في ظنك انني أقول ما قلت ، ومعاذ الله ان يكون غرضي ما ذكرت في بدء كلامك عن تجريد الحمامة المفترسة من تعزيتها الكبرى وعذرها الأعظم . كلا وانما غرضي ان نمحاط الحمامة لنفسها لئلا تفتترس ... أفهمت الآن أيتها السيدة مريم ؟ ليس عمدة كلامي ان يدوس القوي الضعيف ، واعلمي أيتها السيدة انه اذا وردت هذه العبارة بمعناها ومبناها في اثناء كلامي فما هي الا تهديد نافع نقول به ، لا من اجل مصلحة القوي بل من اجل مصلحة الضعيف ليتشدد ويتقوى ، فلا يعتمد الا على نفسه في دفع الأذى عنه ، فكأننا نقول له : كن على حذر واشد

عزيمتك ونبتة نشاطك والا فانسحاقك ودوسك أمر محتم . هل
تأذنين لي ان اتكلم بحرية كما تكلمت ؟ لقد سرّني اشتغالك
بكلامي بجدّ ، ولا تظني انه يسوءني منك شيء ، وهذا الرفيق الذي
خبرته في يوم واحد ذو قلب كريم وعقل سليم ، وهو جدير
بثقتك فلا يسوءك كلامي امامه ، فاسمعي ما كنت اريد قوله
لك منذ زمان وأغتنم الفرصة لقوله لك الآن اذ لا أجِد فرصة
أفضل من هذه .

انت ايتها السيدة مريم امرأة جميلة أنيقة ، جسمك صحيح
قوي ، ونفسك جميلة لطيفة لأنني ارى في عينيك شعاع جمالها
ولطفها ، ولا عبوة بجدتها وشراستهما أحياناً ، ولم يلد لي شيء
في حياتي قط كرؤيتي اياك يوماً جالسة بجانب الاكمة القريبة
من منزلك ويمناك على كتاب مفتوح على ركبتيك ويسراك
تسند رأسك ، وعيناك تتيهان في الفضاء تحلمان وتفكران كأنهما
تبحثان في أعالي الجو عن شيء مجهول فراراً من شيء مملول .

اي نعم يا مريم ان حلمك وتفكيرك هكذا يجعلني احلم
وافكر ايضاً ، فاني اتصورك حين كنت في السادسة عشرة
من عمرك فتاة ساذجة القلب حيية ، اذا رشتك رجل بنظرة
توردت وجنتاك خجلاً وخفق قلبك وجلاً . انك لم تقصّي عليّ
الا طرفاً من تاريخ حياتك ، ولكنني الآن احلم واتصور كما

قلت لك، فدعيني اكمل حلمي وتصوري . انني اراك في حباك
كما قلت فتاة حمية طاهرة القلب تخرجين مع امك العجوز
واخواتك الى الحقل لمساعدتهن في اعمالهن ، وكانت امك اشده
عناية بك منها بسائر اخواتك لانها كانت ترى فيك شيئاً ممتازاً
عنهن ، وهي بشاشتك ، وعدوبة حديثك ، وسلامة قلبك ،
وشدة اندفاع عواطفك حتى انه كان كل ما في قلبك على لسانك
وكله كان جميلاً طاهراً ، فكانت تقول : ان مريم وردة البيت
فاذا دخلته وكان مظلماً استنار ببشاشتها وورد خدها . ولذلك
كانت تأتيك وانت راقدة بجانب اخواتك في الصباح فتقبلك
اولاً ثم تخرج من بيتكم الصغير الى ارض امامه مغروسة ببعض
الأزهار فتقطف وردة ثم تعود وتغرسها في شعرك وانت
نائة وتقول : انظروا ، ورد على ورد . فكنت اول انتباهك من
النوم تستنشقين ريحاً : ريح الورد في شعرك وأنفاس امك
الحنون التي كانت تستقبلك . ثم توفيت امك وانفرط عقد
منزلك اذ تزوجت اخواتك وتزوجت انت أيضاً ، ولكن كان
نصيبك هائلاً ... فاصبحت وحيدة فريدة في الدنيا تزين الناس
يقومون ويقعدون ويروحون الى اعمالهم ويحيئون وانت
منفردة ساكنة ليس لك أحد يعتمد عليك وتستند اليه .
فماذا تفعلين ؟ وكيف تعيشين ؟ هنا وصلت الى الحمامة المفتوسة



التي استشهدت بها في كلامك ، فماذا كان ينبغي للحمامة أن تفعله لئلا تفترس ؟ لقد كان امامها طريقان : الاول ان تكون قوية فتسلط على عقلها وقلبها وتبادر بنشاط النحلة ودأب النملة الى كسب رزقها بيديها للاستغناء عن غيرها اذا لم نجد كفواً لها يصونها ويغنيها ، ولكسرة خبر تؤكل في هذه الحالة من الاستقلال وعزة النفس وشرف الاسم وطيب الاحدوثة بين الناس خير من جميع ثروات الدنيا وترفها اذا كانت ، اي هذه الثروات ، غير مقرونة بها . والطريق الثاني الاستسلام الى العواطف والأوهام ووهن العزيمة . . . على ان تلك الحمامة لم تقدر على حسن الاختيار بين هذين الطريقين لأنها لم تهيأ لهذا الاختيار ، ولم تعد له ، وهذه عقدة المسألة .

هنا تظهر بأجلى بيان مبادئتي التي سمعتها وانت متوارية وراء الشجرة وغضبت هذا الغضب من أجلها . فمبادئتي توجب على الحمامة ان تختار الطريق الأول اعني ان تكون قوية وتحذر وتنبه نشاطها وتقوي ارادتها وتخطط خطة تسير عليها دون ان تترك للصدفة سبيلاً للعبث بها . القوة والارادة والديرة ، هذا ما كان ينقص الحمامة ، فما كل حمامة تفترسها الأفعى مع قوتها وغدرها وانما تفترس الأفعى الحمامة التي لا تحطاط لنفسها ولا تحسن الدفاع عنها .



فماذا تقول الحمامة يا مريم اذا قلت لها هذا القول : انك
 أجمل الطيور الأليفة فلا تتركي الأفاعي تدنسك وتسطو عليك ...
 لقد خلق الله لك جناحين تطيرين بهما الى حيث لا تصل الافاعي
 اليك ... واذا احتطت لنفسك واعملت فكرك ونشاطك
 ودربتك واستعملت ارادتك فليس لجرح أو كسر في اعالي
 اجو قوة على الوصول اليك ، لأنك مع ضعفك وشدة ذلك
 الكسر قد أعطيت قوة على التخلص منه على شرط ان تشحذي
 قوتك وارادتك وتنبيههما فيك على الدوام ، ولكن اذا تمت
 عنهما وتركتهما تنامان واستسلمت الى الضعف والوهن والصدفة
 والاتفاق فعدم وجودك خير من وجودك في هذا الزحام الهائل
 في الحياة ، لأن في عدم وجودك راحة لك ، وفي وجودك ضعيفة
 بين الجوارح والكواسر ألم دائم وعذاب أبدي . هذا ما كنت
 اقله يا مريم وانضبتك ذلك الغضب ، هذا ما كنت اقله في
 حمامة السماء واقوله الآن لحمامة الأرض ايضاً ... أمن حقك
 ان تثوري علي تلك الثورة بعد هذا ؟ ألا ترينني في كلامي نصير
 الضعفاء لا نصير الأقوياء ؟ ألا تعتقدين ان مبادئ هذه هي الوحي
 الجديد الذي يحتاج اليه شرقكم الذي أفنته تلك المبادئ
 القديمة وأضعفت فيه كل حماسة للحياة الراقية واصابت روحه
 بالشلل ؟ لقد كنت في هذا صديقك لا عدوك يا مريم ، فاحكمي
 بعد ان سمعت .



قال شيشرون هذا الكلام ثم سكوت وشخص في جهة مريم ليرى فعل كلامه فيها . وكانت لوائح الألم تلوح في وجه مريم من حين الى حين في أثناء كلامه ، فتارة يغور دمها الى قلبها فتبرد أطرافها ويصفر وجهها ، وطوراً يثور دمها ويثور فيصطبغ وجهها بلون قرمزي ويتوارد الدم الى دماغها توارداً يكاد يخنقها ، ذلك ان شيشرون اثار فيها بكلامه هذا عاطفتين هائلتين : الاولى عاطفة الكبرياء الذاتية ، والكبرياء ام الفضائل كما انها ام الرذائل ، فانه بثناؤه عليها ووصفه جمال جسمها ونفسها وطهارة حياتها السابقة حرك ما كان كامناً فيها من الأشجان وردَّ اليها نفسها الاولى التي كانت لها قبل دخولها في وادي الشقاء . . . ولكن هذه العاطفة كانت ضعيفة بالنسبة الى العاطفة الثانية التي اثارها فيها كلام شيشرون البارع ، فانه لما أخذ يصف تربيتها في صباها ويذكرها امها وحنوتها عليها وحبها لها وتعلقها بها وتفانيها من أجلها ثار كل ما كان مكنوناً في نفس هذه المرأة المسكينة من العواطف الطيبة والتذارات العيلية الجميلة كأن زوبعة هائلة هبت في داخلها فنسفته نسفاً . ولذلك لم يفرغ شيشرون من كلامه ويلقي عليها قوله الاخير : فاحكمي بعد ان سمعت ، حتى ارتخت أعصابها بعد توترها وانخت قامتها بعد انتصابها وبقيت شاخصة في جهة شيشرون ساكنة جامدة



جمود الصنم ، وبعد انقضاء عشرين ثانية عليها وهي في هذه
الحالة ارتعشت ارتعاشاً شديداً ورفعت بفتة يديها الى عينيها ثم
استخرطت في البكاء كأنه أصابها ألم فجائي .

فدهش شيشرون ويوسف لما أصابها ونظر احدهما الى الآخر
وقد تحركا كلاهما نحوها ، الا ان مريم لم تمهلها ان يصلا اليها
فانتفضت وصاحت وسقطت الى الأرض مغشى عليها اذ أصابتها
نوبتها العصبية .

وبينما كان يوسف وشيشرون يُعنيان بمريم وينبهان حواسها
وهما في حزن واسف لما أصابها كان راعي الغنم في اعلى شرفة
الوادي ينادي قائلاً :

— يا قديس يوسف ، سيعلق بك شياطينها ، الحمد لله ان
غنمي بعيدة عنها .

ثم ان الراعي تناول مزماره ونفخ فيه في وسط ذلك الهدوء
انغماً مطربة ، فكان مثلاً لفراغ البال والهناء في الخلاء ، بينما
كانت مريم تحت الشجرة أمامه تتشجع وتصيح كمثال لآلام
الهيئة الاجتماعية وشقاءها واضطراباتها .

الوعش ! الوعش ! الوعش !

أو

سياحة في أرز لبنان

على طريق الجبل

أشهر الطرق من البحر الى أرز لبنان طريقان : واحدة عن طريق اهدن فبشري ، او الحدث فحصرى فبشري ، وهي من امام الارز . وواحدة عن طريق بعلبك من وراء الجبال الشامخة المحيطة بهذا الحرج . والطريق الاولى طريق الثغور من طرابلس حتى البترون . والطريق الثانية طريق السياح الذين يصعدون من بيروت الى بعلبك لمشاهدة آثارها ثم يعطفون منها الى الارز لمشاهدة آثاره الجميلة الطبيعية بعد مشاهدة آثار بعلبك الصناعية .

ففي ليلة ٨ آب من السنة التي نكتب تاريخ حوادثها



هنا قرع مكارٍ في آخر الليل باب غرفة عالية كائنة في غربي قرية
قلحات فوق طرابلس الشام وهو ينادي : يا خواجه كليم ، يا
خواجه كليم . فدوى صوته في القرية في صفاء ذلك الليل دويّاً
هرت له الكلاب التي كانت راقدة في الشارع قرب تلك الغرفة
فساعد هريوها على تنبيه النائمين فيها . ولذلك لم يلبث ان فُتح
الباب وأطل منه الخواجه كليم وهو يفرك عينيه ويقول : هل
ظهر نجم الصباح يا جرجس ؟ فاجابه المكارى : أظنه سيظهر
بعد نصف ساعة على الكثير ، والارجح ان الشمس تشرق لنا عند
بطرام . فقال كليم : فلنعجل اذاً فاننا نروم الوصول الى الجبل
قبل اضطرام وطيسها فراراً من الحر .

وحينئذ التفت كليم لينبّه رفيقاً له كان نائماً معه في الغرفة
فوجدته واقفاً وراءه ، فقال له : هلم نركب يا سليم فان مطيتينا
حاضرتان ولنلبس ملابسنا اولاً .

وبعد ثلث ساعة كان كليم وسليم على جوادين قوين سائرين
في صفاء الليل تحت اشعة النجوم الضئيلة ولا انيس لهما غير
المكارى يسير وراءهما وهو تارة يحدو فرسيه بكلام مشجع ،
وتارة يزجرهما لانهما صدما حجراً في طريقهما . ولم يكن يُسمع
في ذلك الهدوء ما عدا وقع حوافر الجوادين وصوت المكارى
سوى اصوات الحشرات الصغيرة التي تنتشر في لبنان على اشجار

الزيتون والتوت وتنشد في الليل والنهار أناشيد متواصلة .
ويظهر ان جفون كليم وسليم كانت لا تزال مثقلة بالنعاس
لانهما كانا يتشاءبان من حين الى حين . فرغبة في طرد النعاس
ابتدأ كليم قائلاً : اسمع يا صاح اصوات هذه الحشرات الصغيرة
التي تهكم عليها لافونتين تهكمًا شديدًا . حقاً انه ظلمها بهذا التهكم .
تُرى ما عساها تجيبه لو درت بتهكمه ؟

فتشاءب سليم وقال : لا ريب انها كانت تجيبه جواباً جميلاً ،
فانها تقول له : ليس بالخبز وحده تحيا الكائنات الحية بل الحياة
الحقيقية هي الحياة الروحية . وحياة الروح عند هذه الحشرات
نشيدها المستمر الدال على انها في حالة الانبساط والراحة . ولو
'خبرت' في ايهما احب اليها : فقدانها هذه الحياة الروحية التي
هي فطرتها وطبيعتها ام فقدانها الخبز اليومي الذي هو حياتها
البدنية ، فانها لا شك تختار فقدان هذه الحياة على تلك . وما
الذنب في ذلك ذنبها لانها هكذا صنعت وهكذا فطرت . ومع
ذلك فان لافونتين لم يقدر على قهرها بتهكمه في ذلك المثل إلا
لانه قاس معيشتها على معيشة البشر وبذلك جاءت حجته قوية .
ولكنه لو انعم النظر لرأى ان هذا الحيوان الصغير لا يحتاج
الى القوت بعد مرور ايام الحصاد حتى في أشد اوقات الشتاء .
فان قطرة من قطرات المطر كافية لشربه ، وورقة واحدة من



اوراق الشجر كافية لايوائه وتدفعته ، واقل حشرة صغيرة او دودة حثيرة كافية لتغذيته . ولو عقل لهذا الحيوان لاجاب ذلك الشاعر : عندنا في الطبيعة ليس من حيوان ولا نبات يحتاج الى قوت ويبني بلا غذاء . فان فظائع كهذه الفظائع لا تحدث إلا بين البشر في الاجتماع . نعم نحن نأكل بعضنا بعضاً احياناً ولكننا نفعل ذلك حين الحاجة فقط قياماً بسد عوزنا . اما انتم فمع كونكم ذوي عقول ونفوس تدرك فانكم تأكلون بعضكم بعضاً بحاجة ومن غير حاجة . وكثيراً ما يكون ذلك ارضاءً لكبريائكم فقط لا لضرورة . ولذلك قال احد حكمائكم : يا وحوش البر وافاعي الغابات خذيني اليك آكل من طعامك واشرب من مائك لاتخلص من صيبة الانسان .

فقيه كليم هنا وقال : نعم هذا خير ما يُعتمد به عن طيائفة ذلك الطويّر المطرب .

وكان المكارى ضجر من هذه اللغة التي لم يكن يفهم منها شيئاً فتحول ضجره الى غضب على جواده فصاح به بأعلى صوته : ديه نسوق ... وهم باتمام عبارته ، فصاح به كليم : اياك ان تكملها يا جرجس . فقال جرجس : وما هذا يا معلمي ؟ فقال كليم : انت فهمت كلامي بلا تفسير .

فسأل سليم كليماً : وما معنى كلامك ؟ فاجاب كليم باللغة

الانكليزية : هي نادرة مضحكة تحدث بين بعض هؤلاء المكارين
والعائلات المدنية التي تصيَّف في قراهم . فانهم يسمون هذه
العائلات : سَوَّقة . وحينما يرومون التهم عليهم في الطريق
يقول احدهم لرفيقه : سوق يا اخي سوق يلعن هالسوقه . يُظهر
انه غير راضٍ عن سير الدواب والحقيقة ان مراده سب
السوقه في وجوههم دون ان يدروا بذلك .

فضحك سليم وقال : يظهر ان صاحبنا غير راضٍ عنا حتى
رام اهانتنا . والذنب في ذلك ذنبنا ، لاننا لم نهتم بملاطفته
لنستميله اليّنا . ثم التفت سليم الى جرجس ليفاتحه بالحديث فقال :
لماذا سرت بنا يا جرجس على هذه الطريق من الوادي ؟
خذنا من فوق عن طريق فيع .

فقال جرجس : لا يا معلمي لا نستطيع الآن المرور عن
طريق فيع لحدوث خصام شديد بين قريتنا واهل تلك القرية
منذ يومين .

فقال سليم : نعم سمعنا بهذا الخصام ويقال انه قد جرح
رجلان واسقطت امرأة في اثناؤه ، فما سببه ؟

فقال جرجس : سببه يا معلمي خصام بين اولاد فيع واولاد
قلحات . فقد كان خمسة اولاد من اولاد فيع يلعبون بازاء
حقول العنب الكائنة بين القريتين وياكون من العنب بلاحق ،

فاسرع اليهم ثلاثة من اولادنا لردعهم عن الاعتداء على رزقنا،
ففرّ اولاد فيع ووقفوا بعيداً فصار اولادنا يتغنون بغناء قديم
عندهم وهو :

يا رايح الى فيع دبدب لا تضيع
يا بسين قلحات احسن من شيخ فيع

وكان بين اولاد فيع ابن شيخ فيع نفسه فاغتاظ لاهانة
أبيه فركض الى شجرة توت قريبة فتسلقها وقصف منها غصناً
ثم اندفع نحو اولادنا بينما كان رفاقه يتغنون بغنائهم :

يا رايح الى قلحات تملي منها ... اط
يا بسين فيع احسن من شيخ قلحات

ولما وصل ابن شيخ فيع الى اولادنا امسكوه «وتزلوا فيه»
ضرباً فاسرع رفاقه الى نجدته فدار الضرب بين الفريقين فجرح
منهما بضعة اولاد، فركض حينئذ احد اولادنا ووقف فوق
القرية وصاح: ان اهل فيع قتلوا اولادنا. فهبّ كثيرون من
الرجال الى محل الحادثة. وكذلك ركض احد اولاد فيع وابلغ
اهله مثل ذلك الخبر فاسرع بعض رجالها ايضاً. ولما التقى
الفريقان في محل الحادثة دار الضرب بين الكبار بعد ان كان
بين الصغار، ولو لم يحضر الآغا مع نفرين لاشتبك القتال بين اهل

القريتين جميعاً . ولذلك لا نقدر ان نمرّ الآن بجانب فيع لئلا
يتحرشوا بنا ، كما انهم هم ايضاً لا ينفردون للمرور بجانب قريننا .
وكان الجوادان قد صعدا في ذلك الحين من وادي قلحات
وجانبا قرية فيع . ذلك ان قرية قلحات كائنة على اكمة
منخفضة بين واديين من اشجار السنديان واحد من جهة الشرق
واحد من جهة الغرب . وهي على مسافة ربع ساعة من دير
البلمند المشهور المشرف من جبله العالي على مدينة طرابلس
الشام . وهواء هذه القرية جاف نقي لانها واقعة بين حرجين
من السنديان كما تقدم .

وقطع سليم وكليم الطريق حتى فوق فيع دون ان يطلع نجم
الصباح الذي وُعدا بطلوعه قريباً . فقال كلیم لجرجس : لم تطلع
نجمة الصبح بعد يا جرجس . فاجاب جرجس : ستطلع قريباً .
فضحك كلیم وقال لرفيقه : يظهر ان صاحبنا عملها معنا . فقال
سليم : واي شيء عمل ؟ فقال كلیم : للمكارين عادة وهي انك
اذا طلبت من احدهم السفر في الغد قبل طلوع نجمة الصبح
بنصف ساعة يجيئك قبل طلوعها بساعتين ويقول لك انها ستطلع
بعد ربع ساعة . وهكذا تركب معه في ظلمة الليل وتقطع
الطريق كلها وتصل الى مكان قصدك قبل ان تطلع نجمة الصبح
وبذلك يكفي نفسه ودابته عذاب الحر في اثناء الطريق .



فالظاهر انه صنع معنا ما يصنعه غيره مع غيرنا . وربما وصلنا
الى الجبل قبل ان تطلع الشمس مع ان بيننا وبينه نحو
خمس ساعات .

فتثاءب سليم وقال : اف ! لاجل هذا أشعر بنعاس شديد
وأكاد انام على ظهر الجواد .

ولما رأى صاحبنا جرجس ان الحديث لا يطول بينه وبين
رفيقه بل هما يتجادلان معاً وحدهما رأى ان يسلي نفسه بنفسه ،
وكان الجو صافياً كأنه مرآة الغريبة والنجوم تسطع فيه
كمصابيح بعيدة معلقة في قبة الفلك فلا تكاد تنير طريق
الجوادين في سيرهما . ولكن الجوادين كانا قد اعتادا السير في
ظلام الليل ولذلك كانا يبصران الطريق المخططة كأنهما في نهار ،
وهذا ما جعل الفارسين يعجبان له . وكان الهواء يهب في خلال
نور النجوم الضئيل بارداً ضعيفاً فيشرح الصدر وينعش الفؤاد .
وتلك الطبيعة القروية الساذجة كانت ساكنة هادئة كأنها تستريح
تحت جناح الليل من عناء النهار . فأثار هذا المنظر الجميل في
نفس جرجس عاطفة الجمال الكامنة فيها فاندفع ينشد الاناشيد
التي يعرفها . فهل درى حينئذ ذلك القروي الجاهل الساذج انه
بعمله دلّ على ان نفسه كانت في تلك البرهة ارقى من نفسي
رفيقه الحضريين ؟ ان نفسه لدى مناظر الليل البهية ثارت على



غير علم منها واندفعت تتوَّجهم بالغناء والنشيد عما كان يختلج فيها
حينئذ من عاطفة الجمال بسبب تلك المناظر . واما نفسا رفيقيه
الحضريين فقد كانتا مشغولتين بالتثاؤب والنعاس عن الجمال
الذي كان يحيط بهما . فلا ريب ان ذلك كان من افضل الادلة
على ان النفس الاولى ربيت في احضان الطبيعة قليلة الحاجات
قوية على كل متاعب الحياة ، والنفسان الاخريان ربيتا ضعيفتين
بين جدران المدن لا تستطيعان مقاومة سلطان ضعيف كسلطان
النعاس الذي هو ، لمن نام ساعتين أو ثلاثاً ، اخف الحاجات
الطبيعية .

ولما أخذ جرجس في الانشاد اصغى اليه كلیم وسليم . وقال
كلیم : اسمع اغاني الجبل . وكان جرجس ينشد :

حنيننا يا حنيننا يا حنيننا يا قمر سلّم على غيّابنا

فضحك كلیم وقال : من سوء الحظ ان القمر غائب ايضاً .
فضحك سليم لهذه الحاشية . اما جرجس فانه كان مستمراً
في الانشاد :

يا ظريف الطول وقف تقولك
رايح عالغربه وبلادك احسن لك
خايف يا محبوب تروح وتتملك
بتعاشر الغير وتلساني أنا

فهي التفت سليم الى جرجس وصاح به : ما هذا ! ما هذا
 الغناء ؟ أعده . فاعاده جرجس ، فتنهد سليم وقال : لله در
 قائل هذين البيتين ، وكأنه خرق بنظره حجاب الغيب وتنبأ عما
 يكون من المهاجرة الى أميركا : خايف يا محبوب تروح وتسلمك .
 نعم قد راح المحبوبون وتملكوا هناك . بتعاشر الغير وتنساني أنا .
 نعم قد عاشروا الأمير كيين وامتزوجوا بهم وكثيرون منهم
 نسوا بلادهم وتجنسوا بغير جنسيتهم . فيا أيها الشاعر العامي
 الذي كشف له الغطاء عن المستقبل قبل وقوعه ، انك شاعر
 عظيم وان كنت لا تعرف القراءة والكتابة .

وفي خلال تبادل هذه الافكار بين سليم وكليم كان جرجس
 يجثو في الانشاد في هدوء ذلك الليل فيدوي صوته دويًا :

يا ظريف الطول يا سنّ الضحوك

يا مربى الدلال بمحضن امك وأبوك

جاني خبر يا حبيبي خطبوك

تخطب يا عيني وتزوج بالهنا

ميجانا علميجانا علميجانا

يا حبايب لا تغيبوا جيت أنا

واقفة بالباب والباب صغيّار

تنظر لي بعينها وصرت أنا محيّر

ويا للي مفارق حبيبو كيف حالو صار
ما حد فارق حبيبو غيري أنا

وكان جرجس سثم هذا القدّ بعد دورين فدخل بأعلى
صوته في القدّ الآتي الذي يحلو لحنه على الخصوص في هدوء الليل :
هلولولوليا هلولولوليا عيني يا موليا
يا نائمين انهضوا جتكم حراميا

☆

وتقولي صابوني وتقولي صابوني
مرثوا عليّ العدى وبالعين صابوني
ولو قطعوني شقف كالواح صابوني
ما بحيد عن عشرتك يا نور عيني

☆

هلولولوليا هلولولوليا عيني يا لابنية
يا نار قلبي اشعلي واشوي لحم نيا

☆

ومن هون لأرض الدير ومن هون لأرض الدير
السرى الي بيننا ايش وصلوا للغير



وان كان ما فيه ورق لا كتب على جناح الطير
وان كان ما فيه حبر بدموع عيني

وتحوشي بالكمره وتحوشي بالكمره
يا حدود بنت لكم يا زهرة الحمرا

وان عيروني وقالوا محبوبتك سمرا
سمره تشيل الحمل قنطار وشويّا

✱

هلولولوايا هلولولوليا عيني يا لابنية
يا نار قلبي اشعلي واشوي لحم نيتا

✱

والبنت تقول لامها يا امي ظلمتيني
اول عريس طلب ليش ما عطيتيني

وثاني عريس اللي طلب دينو على ديني
وثالث عريس اللي اجا يا نور عيني

ثم انتقل الى القدة الآتي :

يا دوم عيني يا دوم تعذيني وتقول اليوم

يا طير ياللي طائر ياللي اسمك عبد الله

بوسه ما بيحصل منك ياللي ما تخاف من الله

يا طير فاينك طائر قاعد براس الزعروره

جيب من حبي علامه الله يخليها الصورة

ولما سئم الفارسان صوت مكاريمهما أخذوا في الحديث ، فقال
كليم : انني اشعر بان جوادي صار بعد الغناء انشط مما كان
قبله ، فهل تظن ذلك لانه طرب لصوت صاحبه ؟ فقال سليم : دع
المزاح جانباً فاني انا نفسي صرت اشعر بشيء من النشاط وذهب
عني النعاس تقريباً بعد سماعي هذا الغناء . ولا شك ان ذلك
من تأثير الشعر في . فقال كليم : وهل اعجبك هذا الغناء ؟
فقال سليم : ان الامر الذي ادهشني في هذا الغناء رفته وتجرده
من الاقوال الباردة التي تمخض الادب . وظاهر ان هذا الغناء
غناء عامي وهو من ملامهي الطبقات الضعيفة . فاقصاره على
وصف العواطف الحبية بكلام رقيق ادبي خالٍ من الالفاظ
القبیحة والتلميحات الفظيعة دليل مدهش على ارتقاء الآداب هنا
بين العامة وصلاح نفوسها ، لانك تعلم ان الاناشيد العامة قد
تكون افضل دليل على اخلاق الامم . وحقاً ان من يسبح في
اقطار العالم ويشاهد قبائح بعض طبقات العامة فيه ثم يعود الى
بلاد كهذه البلاد ويسمع اناشيد كهذه الاناشيد يفضل آداب
هؤلاء السذج على آداب كثير من عامة الغربيين المتمدنين .

وكان الجوادان قد قطعاً عند هذا الكلام قرية فيع وانحدرا
في سهل بطرام . فالتفت كليم الى المكارى وصاح : يا جرجس
لم تطلع نجمة الصبح بعد . فاجاب جرجس وهو يحك رأسه



بأظافره : ستطلع قريباً يا معلمي . ثم لطم كف الجواد بيده
صارخاً : ديه ، ديه . فقال سليم : ان سوقك الجواد ير كضه هو
اما نجمة الصبح فتبقى في مكانها دون ان تركض فر كضها هي
اذا قدرت . فتشهد جرجس هذه المرة . ولا شك انه قال حينئذ
في نفسه شيئاً لا يحلو للرفيقين .

وبعد سكوت خمس دقائق انتهت كلام الى سليم وسأله : على
اي شيء عزمنا الآن في سفرنا هذا ، هل نذهب الى اهدن
لمشاهدة اصحابنا فيها ام لا ؟ فقال سليم : الامر اليك . فقال
كليم : بما اننا ذاهبون الآن الى الارز عن طريق الحدث وهي
الطريق الغربية فاننا نعود منه عن الطريق الشرقية طريق اهدن .
فسأل سليم : اذاً لا نعود الى الحدث بعد مبارحتها ؟ فقال
كليم : كلا ، فان طريق اهدن مقابلة لطريق الحدث . فقال
سليم : اذاً يجب ان نقيم عشرة ايام في الحدث بدل الخمسة التي
اتفقنا عليها وذلك اكراماً لصاحبنا فيها . فقال كليم : سنرى
ذلك بعد وصولنا . فقال سليم : وكم يوماً عزمنا على الإقامة في
الارز ؟ فاجاب كليم : بقدر ما تطيب لنا الإقامة . فقال سليم :
هل وزنت نفسك قبل السفر من طرابلس ؟ فقال كليم : نعم
فكانت زنتي ٦١ اقة ، وانت ؟ فقال سليم : انا وزنت نفسي
قبل سفري من بيروت فكانت زنتي ٥٩ اقة . فقال كليم هازئاً

رأسه : كأننا وزننا وزن طيور لرقعة اجسامنا . فقال سليم
ضاحكاً : لا تعيب الرقيق ولا تستضعفه ، فالرعود والصواعق لا
تنشأ الا عن رقيق السحاب . فقال كلیم : لا ريب عندي انك
بعد نزولك من الارز تغير رأيك فتمدح السماء لا الرقاق لان
كل واحد منا سيزيد على الاقل ه اقات .

وبعد نصف ساعة انقضى في سكوت تام لان كل واحد من
الرفقاء الثلاثة كان يناجي نفسه اذا بجر جس يصيح ملء صوته :
الحمد لله ! فقال كلیم : ماذا ؟ فقال جرجس : طلعت النجمة .
فالتفت كلیم وسليم الى جهة الشرق وكانت امامهما فابصرا
الزهرة في طرف المشرق من وراء الجبال تتهادى بجملها الفنان
ونورها الباهر ، تتيه به على جميع النجوم الزواهر التي كانت تزين
حينئذ قبة الفلك الدائر . فصاح كلیم وسليم لدى هذا المنظر
الفخيم : تبارك الخالق ، تبارك الخالق ! اما جرجس فانه رفع
يديه نحو رفيقته في اسفاره وقال : هلك ومستهلك جعلك
علينا يوم مبارك . ففسي لفرحه ان هذا الكلام يقال للهلال
حين ظهوره في اول الشهر لا لنجم الصباح . ولكن ما الذي
يمنع جرجس ان يقول لرفيقتة المحبوبة ما يقال للهلال عادة !
هل هو افضل منها ؟ كلا . لانها تهدي في آخر الليل كما يهدي
الهلال في اوله . واذا كان لاحدهما مزية على الآخر فالمزية للنجمة



الجميلة . ذلك لان صحبة اللال تنتهي بالاستياء منه لأفواه
ويبقى المسافر حزيناً بعده لما يجده من الوحشة ، اما صحبة الزهرة
فتمتتهي بالسرور لانها رسول الصباح ومقدمة النور . وكل الذين
عانوا مشاق السفر في الظلام في ليالي البرد والمطر والريح
واخطار الطريق يعرفون قدر الزهرة متى طلعت تبشر بدنو
الشمس التي تنعش وتدفيء والنهار الذي يبعد الاخطار . فهي
عندهم رسول الامل وابتسامة الطمأنينة وعهد من الخالق على
نفسه ان لا يجعل ظلام الليل ظلاماً ابدياً . فهي اذاً عندهم حاجة
وضرورة لا مسرة يلهى بها وتفرج النفس بمشاهدتها . ولذلك
كانت حياتهم ومعيشتهم مرتبطة بحياتها . وهذا هو السبب في انه
بينما كان سليم وكليم يخاطبانها بقولهما : يا إلهة الجمال التي
عندها الاقدمون . يا عروس كواكب السماء . يا مضيعة ابن
رشد . كان المكاري جرجس ينظر الى دليته السماوية نظر
المرؤوس الى رئيس له تربطه به مصالح ومنافع متبادلة لا لمجرد
الاستحسان فقط . ولو مثلت الزهرة حينئذ فتاة كما كان يمثلها
المتقدمون لشوهدت تبسم للمكاري جرجس وتهتم به اشد من
اهتمامها برفيقه الحضرين الظرفين .



كلام عن الدير امام الدير

وبعد برهة اخذت ذرات الفجر تنتشر في الفضاء ، وصارت
نجوم السماء تبهرت خجلاً من سلطنة النهار القادمة على هودجها
الناري ببهاؤها العادي . وقد طلعت الشمس لاصحابنا الثلاثة عند
قرية كسبا حين دخولهم بين الجبلين في الطريق المؤدية الى اعالي
لبنان ، وان من لم تطلع عليه الشمس في ذلك المكان بعد السير
اربعة ساعات في ظلمة الليل لا يدرك اللذة التي شعر بها سليم
وكليم حين استقباهما تلك الطريق الصاعدة . فقد كان عن يمينهما
جبل عالٍ يمران بجانبه وعن يسارهما جبل آخر عالٍ بعيد عنهما .
وعلى قمة هذا الجبل الشمالي بناء حوله اشجار باسقة ولكنها
تظهر صغيرة لبعده المسافة والبناء بينها كأنه عش طائر بني هناك
في مأمن من الزوابع والعواصف . وفي الحقيقة انه كان عشاً بُني
للأمن من العواصف ولكنه عش انساني بناء البشر الذين يحبون
الانفراد عن معارك الاجتماع وعواصفه ، وهو الدير المعروف بدير
حنطورة ، وعلى موازاة الطريق الى اليسار تحت الدير يسمع
الراكب هديرًا شديدًا ناشئًا عن مرور نهر ابي علي في واديه



المقدس منحدرًا الى طرابلس . وكلما صعد الراكب بين ذينك
الجبلين على ألحان النهر بين نسمات الصباح التي تداعب وجهه
باردة أكثر من هواء السهل يشعر ان جبل لبنان الحقيقي انما
يبتدىء من ههنا ، وحينئذ يخطر في باله ان سكان هذا القسم من
الجبل كانوا في كل الأزمنة والعصور قدى في عيون الفاتحين ،
فان جباههم كانت تحميهم أكثر من كل الحصون والمدافع .
ولذلك كانت تلك الأرض عبارة عن حرّام الحرية المقدس . نعم
ان هذا الحرّام قد فُتح مراراً ولُطِّخ مراراً ولكن الغلبة كانت
دائمًا للمدافعين عنه . ذلك ان الطبيعة نفسها كانت تحارب معهم
بين صفوفهم . وربّ مائة رجل من اهله فقط لقوا بين تلك
الآكام والوهاد عشرة آلاف جندي بمدافعهم دون ان يتركوا
هم سبيلاً اليهم . فثارت عواطف سليم وكليم وتصوراتهما لدى
هذه الافكار وهذه المناظر الجميلة فاحسا انهما صاعدان الى عالم
آخر غير هذا العالم . ويظهر ان نفسيهما قد خفت حينئذ ونشطت
عما كانت فيه اولاً فنزلا عن جواديهما ليتلذذا بالسير على
اقدامهما فوق تلك الأرض الجديدة . وكان سرورهما بالمشي في
تلك الساعة على تلك الأرض المؤدية الى الاماكن التي تنطح
السحاب ويعممها الضباب دائماً يعادل سرور الاولاد حين
انصرافهم من المدرسة الى نزهة خصوصية .

وبعد ربع ساعة كثرت العقبات في الطريق فعاد كلیم وسليم الى جواديهما فنبههما جرجس ان ينحرفا على ظهر الجواد قليلاً الى امام في عقبة الصعود وينحرفا قليلاً الى وراء في عقبة النزول ، فضحك سليم وقال : هذا درس في طريقة الركوب في العقبات . ثم اخذ الرفيقان يتحاذيان لقطع الوقت بعد ان وجدا في المشي شيئاً من الراحة . ولا عجب ، فكما ان السكون بعد الحركة فيه راحة كذلك الحركة بعد السكون .

فقال سليم : ما رأيك ايها الصديق في الاقامة طول العمر في هذا الدير الجميل الذي شاهدناه ؟ هل تعرف مكاناً اجمل من هذا المكان للراحة والسعادة ؟

فقال كلیم : سؤالك هذا يذكرني سؤالاً آخر . يقول كتاب العرب ان الحواريين «الرسل» سألوا المسيح : من افضل منا ؟ اذا شئنا اطعمتنا وسقيتنا . فاجاب : افضل منكم من يأكل من كسب يده . فالافضل والاجمل من الاقامة في هذا الدير الدخول في العالم والاكل من كسب اليد ، لان خبز الاحسان خبز دنيء كما قال روسو .

فثار هنا جرجس وقال : ارجوك يا معلمي ان لا نجدف على الدير والرهبان ، فاننا في طريق ، واخاف على افراسي لا على نفسي . وبالامس كان جارنا ابو يعقوب سائراً قرب البلمند قادماً



من المدينة (يعني طرابلس) وكان الراكب على حمارته واحداً من
السوق لا يحب الرهبان وكان يتهم عليهم ، فبركت الحمار في
الارض قرب الدير ولم تنهض حتى نذر ابو يعقوب للدير نصف
الاجرة التي يأخذها من الراكب .

فصاح كلیم بصاحبه : اسمعت قول الرجل ؟ هذه هي
المبادئ التي يعلّمها للشعب الرهبان الذين نسلّمهم اوزاقنا وننفق
على تسميتهم .

فقال سليم : هذه مسألة اخرى غير تلك ، فاننا لا نبحث الآن
في هل هم قائلون بوظيفتهم التي وجدوا لها ولكي اسألك هل
تحب المعيشة في الدير اذا كان الدير قائماً بحسب النظام الذي
وضع له للغرض الحقيقي الذي يجب ان يوضع له . فاجبتني انك
تفضل على هذه المعيشة معيشة الانسان الذي يأكل من
كسب يده .

فقال كلیم : نعم هذا هو رأيي ، لاني اكره الكسل والبطالة
ولا استطيع أن اتصور اناساً كالبعوض والبق والعلق والبراغيث
يعلقون على جسم الهيئة ليمتصوا دماءها وهم قاعدون بلا عمل
بحجة انهم يخلصون انفسهم ويصلون لغيرهم .

فسكت سليم برهة يفكر ، ثم قال : كل من يسمع هذا
الكلام يوافقك عليه لاول وهلة ، ولكن لدى التأمل يظهر

انك ظلمت المعيشة الديرية بهذا الوصف الذي لا ينطبق عليها
إلا اذا كانت بلا عمل ارضي ينفع كما قلت . قلت ارضي لان
السماوي ليس من بحثنا الآن . وعندي ان معيشة الدير لها
صورتان كل واحدة منهما جميلة بحد ذاتها . ويطيب لي الآن في
هذه الارض ، ارض الاديرة والرهبان ، ان ارسم معك هاتين
الصورتين . واذا كان في الهواء الذي يحيط بنا آذان خفية تسمع
ورامت ايقاف صوتنا فنحن باسم إله الحرية الساكن في هذه
الجبال نقوى عليها ، ذلك لانها لا تستطيع انكار إله الحرية اذ
طالما استنجدت به في هذه الجبال . وبما ان الحرية واحدة لا
تجزأ ولا تنقسم ، سواء كانت في الفعل او في القول ، فمن
الحق والعدل ان نخضع لهذا الاله بعد ان اخضعت له غيرها .

فالصورة الاولى للمعيشة الديرية هي ما ذكرت : بشر ضعفاء
من طبقات لا تقدر على كسب رزقها ينسدد في وجهها باب الرزق
في العالم وترهب معارك الحياة وتنازع البقاء فتطلب مكاناً تلتجىء
اليه وتعيش فيه بامان . وهي للحصول على هذه المعيشة تتنازل
عن اشرف واثن ما لدى الانسان ، اريد حريته الشخصية ، فتصبح
آلة في يد الرئيس لا ارادة لها ولا قوة . ذلك انها تنذر اول
كل شيء الطاعة العمياء ، ثم الفقر ، ثم ترك الزواج . وبهذه
النذور الثلاثة المشهورة تحرم الهيئة الاجتماعية قوات ضرورية .



فببذر الطاعة تضع ضميرها بين يدي الرئيس ، وما ادراك ما هو
التنازل عن الضمير ، فان ذلك يفني شخصية الانسان ويحقّر
الانسانية فيه ويجعل تحت سلطة ذلك الرئيس جيشاً كثيفاً مطيعاً
يؤثر اشد تأثير في الهيئة المدنية لفائدة الهيئة الدينية . وببذر
الفقر يحرم الانسان نفسه وغيره ثمار تعب من خيرات الارض
التي حلال له التمتع بها ، فيعيش ذليلاً وضعيفاً . وببذر العفاف
يجني على امته لان الامم يهيمها تكثير النسل وهي لا تألو جهداً
في الحث عليه بالطرق المحللة . فالنذور الثلاثة اذا تعارض
المدنية الحاضرة وتعاكسها ، لاسيما وان هذه المدنية جلبت معها
مبادئ جديدة مناقضة لمبادئ الهيئة الدينية كل المناقضة في
كثير من شؤونها الاساسية .

والصورة الثانية للمعيشة الديرية ان ينقطع بعض البشر عن
البشر لنفع روحي ومادي . اما النفع الروحي فلا يدركه حق
الادراك إلا كل من رمته عواصف الدهر بين معارك الحياة
اليومية ورأى ما في هذه المعارك من الهمجية والحشونة والفظاعة ،
فهنالك والسفاه يكون البشر حيوانات وحشية لا بشراً . هناك
الظفر والغلبة لا يكونان بالاستقامة والفضل وشرف المبادئ
والاخلاق . فان هذه الفضائل التي هي جميلة في المجتمعات
الرسمية والنوادي الادبية تكون سبباً لضعف صاحبها في وسط



تلك المعارك لا لقوتته ، وإنما يكون الظفر والغلبة الأكثر
 وقاحة والأكثر ظلماً والأكثر اعتداءً والأكثر خداعاً. ولذلك
 قال رينان : ان الانسان لا يكون دائماً قوياً في الحياة إلا متى
 كان يُظهر دائماً انه كان مغشوشاً في ما صنعه من الخطأ مع انه
 كان غاشياً . فماذا تصنع النفوس الحساسة اللطيفة التي جبلها الله
 لا تحب الغش والظلم والاعتداء حين وجودها في هذا الوسط
 الهائل ؟ هل تسلم سلاحها خافضة جناح الفضيلة امام وقاحة الرذيلة
 وتقع في ميدان العراك في جملة الاسرى او القتلى ؟ ام تخلع
 عنها ثوب الفضائل السماوي الذي البستها اياه اليد الجميلة الابدية
 لترتدي بدله ثوب الظلم والاعتداء والغش والنهب والسلب
 وتصنع ما يصنعه غيرها ؟ وهل يجوز ان تبخل عليها الارض
 والسماء حينئذ بزاوية صغيرة في احدى زوايا الارض لتعيش فيها
 بأمن وسلام دون ان تُضطر الى ذلك الانتحار وهذه الجناية ؟
 ان هذه الزاوية هي الدير . فالدير وُجد لسد فراغ في
 نفوس فريق من البشر في الارض . وهو موجود قبل الديانة
 المسيحية بقرون عديدة لان افراد بوذه وانصاره في جبال الهند
 نوع من المعيشة الديرية . وستبقى هذه الحاجة لازمة في الامم
 ما دام فيها نفوس تتألم وجهاد في تحصيل الرزق والطمع يحكي جهاد
 الفاتحين . وقد احترم صاحب الشريعة الاسلامية هذه الحاجة



لانه اوصى بالصوامع والرهبان خيراً ، وكذلك الخلفاء الراشدون ،
فضلاً عن ان التكايا التي انشئت بعد ذلك في انحاء العالم الاسلامي
انما هي نوع من المعيشة الديرية ايضاً . وهذا يدل على ان هذه
المعيشة الاشتراكية للزهد والانقطاع الى الله كانت حاجة من
حاجات النفوس في كل الازمان .

اما النفع المادي فهو اعتبار الدير قوة ممدنة تستعمر
الجهات التي يكون الدير قائماً فيها . والديورة انما تقام
عادةً في القفار والجبال والقرى البعيدة ، اي في الاماكن
المحتاجة اشدّ احتياج الى تعمير واحياء . فتأمل مقدار الخير
الذي يستطيع ذلك الدير صنعه في تلك الجهات اذا جعل نفسه
عبارة عن شركة عظيمة يجتمع حولها اهل القرى ليمتلقوا منها
طريقة زراعة الارض ويتعلموا صناعات جديدة ويعتمدوا عليها
في جميع شؤونهم العملية اعتماداً متبادلاً للنفع بين الفريقين . فان
الدير يصير في هذه الحالة عبارة عن مركز اعمال القرويين
ومستشارهم في جميع اشغالهم . وكيف لا يحلو للمتأمل ان ينظر
ذلك الراهب الذي كان يصلي الى الله منذ مدة يأخذ معوله
وفأسه ويقصد حقول القرية حيث يقابله اهلها كرسول العلم
والثروة والمدنية بينهم ويستترشدون بارشاداته التي اكتسبها
بالدرس والمطالعة والتي لا تصل الى هؤلاء القرويين بدونه ؟ لا



رب ان هذا الامر يساوي عندي على الاقل خروجه من الدير
وبيده الانجيل لزيادة مريض في القرية او تسليمة حزين . ولست
اعرف شيئاً في العالم يعادل نفعه نفع هذه الديورة في التمدن
والتعمير اذا سلكت باخلاص وتزاهة هذا السبيل .

هذا فيما يختص بالاشتراك الخارجي بين اهل الدير واهل
القرى في تعمير الاراضي ونشر الخير والثروة حولهم . بقي هناك
اشتراك آخر داخلي وهو تعاون الافراد المجتمعين في ذلك الدير
على جعل معيشتهم فيه عبارة عن مثال لأرقى حكومة في الارض ،
فان اهل الدير قد ارتفع عنهم عند دخولهم اليه همٌ تحصيل الرزق
والطمع والجهاد في سبيله ، وذلك مما يسكن النفس وينقي
قواها . ثم اصف الى ذلك الانفراد عن معارك الحياة تجد ان
النفس تصفو في ذلك الانفراد عن كدوراتها اليومية وتتملص
من كل اهوائها الفاسدة التي كانت تضغط عليها وتعذبها في حالة
الاجتماع . وهكذا يصبح اهل الدير عبارة عن بشر فوق البشر
لانهم خرجوا عن دائرة البشر ، ويصير البشر في الاجتماع ينظرون
اليهم نظراً الى معلمين مرشدين موضوعين فوقهم . فكان
الانسانية في هؤلاء المنفردين قد تكررت وتصفّت وصارت
انسانية جديدة لا هم لها في الارض غير صنع الخير ومساعدة
الضعفاء . وهذه الحالة تسوقهم بالطبع الى الاشتغال بالعلم والادب .



وهنا مسألة المسائل الجديرة بكل اهتمام . هنا مفتاح ترقية العلوم والفنون والصناعات المختلفة . اذ ماذا يصنع الرهبان في كل اوقاتهم الطويلة ، وبأي شيء يقطعونها ؟ هل من شيء يُقطع به الوقت ما عدا صنع الخير انفس من الاشتغال بالعلم والادب ، وبذلك يكمل الرهبان المنفردون في اديرتهم الجميلة نقصاً ظاهراً اليوم في هيئتنا الاجتماعية . انظر الى الحركة العلمية والادبية عندنا تجد انها مطلوبة للمال لا لذاتها . وبما ان طالبي العلم والادب يهتمون بالمال اكثر من اهتمامهم بالعلم ، فالعلم يبقى بيننا قاصراً . ذلك لان العلم لا يتقدم ولا يترقى إلا اذا امكن للمشتغلين به الانقطاع اليه انقطاعاً لا دخل لشهوة المال فيه . وهذا امر بعيد الحصول عندنا ما دام اصحاب الثروة لا يشتغلون بالعلم . فالرهبان اذاً عليهم سدّ هذا الفراغ لانهم قادرون على الانقطاع اليه اتم الانقطاع اذ كل حاجاتهم مضمونة عندهم . وفي وسع كل واحد منهم ان ينقطع الى علم او فن في عشرين سنة او اربعين فيرقبه اتم ترقية عندنا دون ان يحتاج الى شيء . وحينئذ تصبح الديورة مصدراً لنهضة علمية جلييلة ويصير كل واحد منها عبارة عن اكااديمية كبيرة كل عضو من اعضائها عالم في فن وفي علم . ومجموع الاعضاء يتألف منه مجموع المعارف البشرية . والاختراعات والاكتشافات تتابع من هذه الاكاديميات الجديدة لنشر الخيرات

في الامة وتحسين شؤونها . فتكون هذه الديورة مثالا للعلم كما
كانت مثالا للصالح في ما تقدم . وهي ما عدا ذلك تكون ايضاً
مثالاً للنظام المطلق . فان معيشتها اشتراكية محضة . الكل اخوة
متساوون قولاً وفعلاً . وليس احد فيهم يقول « هذا لي » لان كل
شيء يكون بينهم مشتركاً . والكنهم مع تساويهم هذا خاضعون
لسلطة عليا خضوعاً تاماً بلا مراجعة ولا تردد لعلمهم انها لا تأمرهم
إلا بالخير وما فيه خير . ولذلك ترى اكبرهم واصغرهم يعفزان
رأسيهما بابتهاج وسرور تحت قدمي هذا النظام الذي انقذهما
واعطاهما هذا الوسط الهادي النقي . وهكذا بينا تكون الدنيا
قائمة قاعدة بالاضطرابات والفتن والثورات بين كل الطبقات ،
بينما ترى روح الاستفراد العصري الذي ضرب به رينان بسوطه
ضربات شديدة يبذر بذور الشقاق في العالم حتى بين الاب وابنه
والمرأة وزوجها لرغبة كل انسان في ان يعيش حراً على هواه ،
ترى الهدوء والنظام والخير عامة شاملة في الدير وما حوله من
القرى ، كأنه صار قطعة من الجنان .

وهنا سكوت سليم وانخذ بمسح العرق عن جبينه لانه قد
تحمس في اثناء وصفه ؛ فصاح جرجس مسروراً : عافاك عافاك
يا معلمي ! هكذا يجب الكلام عن آباءنا الرهبان . اما كلهم فانه
فقيه شديداً وقال لرفيقه : كفى تحلم ! كفى تحلم ! فهم في وادٍ



وانت في وادٍ ، ومن كلامك يظهر انك لا تعرف ما هو الغرض
من الدير . فمسكين انت ايها الجاهل ! معنى الدير عندهم اليوم
ان يقيم فيه الرهبان يكررون صلوات مألوفة ويجمعون من
الناس بحجة هذه الصلوات ما امكنهم جمعها من المال سواء كان
نقوداً او اوقافاً ذات دخل عظيم . والسذج يبذلون بسخاء في
هذا السبيل ابتغاءاً للثواب على ما يقولون . وهكذا بدل ان
تكون هذه الديورة ناشرة للثروة والخير في ما حولها من القرى
صارَت ممصاً للثروة لنفسها . وقد قلت ان اهل العلم عندنا
مضطرون الى التفكير بالمال قبل العلم وإلا تعذر عليهم الاشتغال
به . فانا اخبرك ان اهل الدين ، الذين وظيفتهم نذر الفقر كما
ذكرت ، صاروا ايضاً يفكرون بالمال قبل الدين .

فقال سليم : لا ، لست احلم ، بل انا انظر الى الدير كما يجب ان
يكون وانت تنظر اليه كما جعلوه اليوم . وهذا اوضح دليل
على ان كل شيء انما يصلح ويفسد تبعاً للطرق التي يُستعمل بها
والاشخاص الذين يتولون استعمالها . وهذه مسألة المسائل في كل
الشؤون حتى سياسة الامم . ولست اظنك تزعم ان الديورة كانت
في القديم ، واعني القرون الاولى لا القرون المتوسطة ، على
حالتها الحاضرة اليوم . فانها لو كانت كذلك لما قام لديانتها
قائمة . وانما كانت الديورة يومئذ عبارة عن انقطاع حقيقي الى الله
للخلاص من حياة الاجتماع التي تجر الانسان احياناً الى ما لا

يهواه . ولا عتب في ذلك على اولئك المتقدمين لانهم كانوا يومئذ
في الطور الذي يُسمى طور الايمان الحار ، ولذلك يجب ان لا
نلومهم لانه طاعهم عن الناس بقولنا انهم فعلوا ذلك مدفوعين
بعامل الاثرة وحب الذات ، فان الرغبة في معيشة الانفراد
الاستراكية كائنة في طبيعة البشر خصوصاً الضعفاء منهم . ولكننا
اذا كنا لا نلومهم اليوم فاننا لا نحت الديورة في هذا الزمن على
ان تنسج على منوالهم بل نطلب ادخال تغيير على حالة الاديرة
طبقاً للوصف الذي ذكرته آنفاً . فان الهيئة الاجتماعية قد تغيرت
والنفوس الدينية صارت كما يظهر من قولك لا تكفي بالايان
الحار . فبناء عليه بطلت وظيفة الدير الاولى التي هي البعد عن
البشر والانقطاع الى الله انقطاعاً حقيقياً ، وصار من الواجب ان
يحل محل هذه الوظيفة وظيفة مساعدة الناس مادياً وادبياً كما
وصفت ذلك آنفاً . وإلا فلا معنى لوجود الدير في هذا العصر .

وانا على يقين ان هذا التغيير امر سهل وكثيرون من رجال
الدين يرضون به لانه يحيي البلاد والعباد بثروات الاديرة
والاوقاف الدينية . انما يشترط فيه وجود رؤساء كرام يفهمونه
وينبذون الإطماع جانباً . فلماذا لا يقوم اكابر الطوائف
وافاضلها لمراقبة اوقاف الاديرة والاملاك الدينية مراقبة شديدة
بواسطة مجالس دائمة خصوصية تُنشأ لهذا الغرض لانفاق دخلها
الطائل في وجوه نافعة لمجموع الامة ؟



مجنون ليلي

وبقي سليم وكليم يتجادلان في هذا الموضوع حتى وصلا الى عين السديانة وهي محطة يستريح فيها المسافرون في طريقهم الى اعالي الجبل . والمكان مؤلف من منزل اتخذته مستأجره حانوتاً يبيع فيه مواد الغذاء للمسافرين . وامامه دكة عالية قليلاً يجلس المسافرون عليها وبجانبيها عين ينبع منها ماء بارد يشربه المسافرون بظما ولذة بعد تعب الطريق وحرها .

فنزّل كليم وسليم للراحة وتناول الطعام . وبعد حين طلبا بيضاً مقلّياً وجبناً وغنّياً وجلسا يأكلان . واذا برجل قد دنا من احد الفرسين ومدّ يده الى الخرج الذي كان عليه واخرج منه جريدة انكليزية . فقال كليم لرفيقه : ما شاء الله ! ان صاحبنا يفعل بخرجنا ما يشاء بدون تكليف . ثم نهض ودنا من الرجل وسأله : ماذا تريد ؟ فعبس الرجل وقال : لا اريد شيئاً ولكنني احب ان اقرأ .

ثم انه ادار ظهره لكليم وجلس على طرف الدكة ونشر الجريدة الانكليزية وعمار يقرأ فيها .



فاستغرب كلیم وسليم أمر هذا الرجل . وكانت هيئته وثيابه
مما يزيد الاستغراب . فانه كان في نحو الاربعين من عمره بلحية
كثّة وخطها الشيب وشعر وافر في رأسه يتدلى من تحت طربوشه
القدر . وكان طويل القامة عريض العضل يلبس ثياباً قديمة قدرة
ويمشي بجذاء ممزق . إلا ان سحنته كانت تدلّ على الهدوء
واللطف والسكينة .

وبعد ان قرأ هذا الرجل بضعة اسطر في الجريدة رفع رأسه
وضحك ضحكاً شديداً ثم قال : كلهن سواء . ثم التفت الى
كلیم وقال : أليس حقيقياً ما اقول ؟ فقال كلیم : عن اي شيء
تتكلم ؟ فضحك الرجل ضحكاً اشد من ضحكته الاولى وقال
وهو يهزّ رأسه طرباً :

جنّنا بليلي وهي جنّت بغيرنا واخرى بنا مجنونة لا نريدها

ثم وقع على الارض وأغمي عليه .

فدعر حينئذ كلیم وسليم . اما صاحب المحل فانه ركض
مسرعاً وهو يضحك فنضح وجه ذلك الرجل المسكين وصدره
بالماء . ثم التفت الى سليم وكلیم وقال : لا تخافا ، فان هذا الرجل
مجنون ، بل هو نصف مجنون ، وهو يصاب بهذه النوبة مرة
كل يوم او كل يومين . فاشتد حزن سليم وكلیم على حالة الرجل
حينئذ وبادرا اليه يسعفانه بالمعالجة . وبينما كانا يفركان يديه



بأيديهما سآلاً صاحب المجل : وما قصته ؟ وابن بلاده ؟ فانه
غريب عن لبنان على ما يظهر ! فاجاب صاحب المجل : الذي
سمعت انه غريب عن لبنان ، ويقال ان سبب جنونه حبه فتاة
رام الاقتران بها فرفضت وهجرته . وهو من ذلك الحين يطوف
البلاذ على قدميه يأكل اذا وجد طعاماً ويصوم اذا لم يجد .
واحياناً ينام تحت سقف منزل ، واحياناً تحت قبة السماء . فهو
شبيه برجل تائه على وجهه في البلاذ . وكل الاهالي يعرفونه .

فلما سمع سليم وكليم هذه القصة تأثرا تأثراً شديداً . ومما زاد
تأثرهما امتزاج تعاسة الرجل بشيء غزلي جميل لانه 'جن' بسبب
الحب كما سمعا . فقال سليم لرفيقه : حقاً انني لما كنت أسمع
كلام صاحب المجل خيّل لي وانا افرك يد هذا المريض ان يدي
تمس الآن يد مجنون ليلي او غيره من عشاق العرب المشهورين .
ومن العجب ان يبقى اليوم في الارض اناس رفاق الشعور
شديدو الانجذاب النفسي حتى انهم يجنّون بسبب الحب مع ما
هو معروف في هذا العصر من اندفاع تيار الشهوات الحيوانية
التي تقتل ذلك الشعور الدقيق .

فسأل كليم صاحب المجل : وما اسم هذا الرجل التعيس ؟
فاجاب : ان الناس يسمونه مخلوف .

وفي هذه البرهة اختلج مخلوف اختلاجاً شديداً وصار يصرخ

صرائحاً هائلاً ويخبط بيديه ورجليه ، فامسكه بها الثلاثة الحاضرون
لئلا يؤذي نفسه . وكان قد اجتمع عليهم بعض من الاولاد وهم
يعجبون من دنو سليم وكليم منه لان اكثر العامة في اقطار
الشام يخافون كثيراً ممن يغمى عليه ذلك الاغماء لا اعتقادهم ان
فيه شيطاناً يسبب ذلك الاضطراب . وهم يسمون المغمى عليه :
« واقع في الساعة » .

وبعد حين ارتخت اعضاء مخلوف وتنهد تنهداً عميقاً ثم فتح
عينيه وصار يضحك لمن حوله ضحكاً لطيفاً كضحك الاولاد .
فقال له كليم : كيف حالك الآن يا مسير مخلوف ؟ فاجاب
مخلوف : حالي كما ترى . فقال سليم : هذا امر بسيط وكثيراً
ما يقع فيه الناس اما بسبب الحر او ضيق الصدر او التعب .
فجاس مخلوف حينئذ وقد ظهر الغضب في وجهه وصاح : لم
يؤثر في الحر ولا ضيق الصدر ولا التعب وانما هذه الجريدة
الملعونة : فكيف تميزها السماء والارض ان تتركه وتذهب ؟
هو يحبها كما يحب إلهه . هو يطرح تحت قدميها اسمه وميراثه
وشرفه لتتنازل وتأخذها وترضى فقط بالابتسامة له ، ومع ذلك
فانها ترد هذه الهبات بقدمها وتفر منه كالبرق وتختفي ، فما هو
جزاؤها يا ترى ؟ أليس القتل والخنق والحرق والشنق والدوس
بالافدام والتقطيع قطعة قطعة ؟



وكان مخلوف قد بلغ به الغضب عند هذه الكلمات مبلغاً عظيماً ، فجحظت عيناه وانتفخت اوداجه وصعد الدم الى رأسه فكاد يخنقه وبدا الزبد على فمه كالجمل الهائج . فبال منظره سليماً وكليماً وعلماً حينئذ انه قرأ في الجريدة الانكليزية هذه الحادثة فأذكرته حادثته . فتلافى سليم الامر رغبة في تسكينه وتعزيتة وقال : لقد نطقت بالحق ، فان تلك الفتاة تستحق اكثر مما ذكرت . ولكن هل قرأت تنمة حادثة مس لنهيم التي تشير اليها ؟ فاجاب مخلوف وهو يلهث تعباً من اثر الهياج : لا ! فماذا جرى لهذه الحبيثة بعد تركها حبيبها ؟ فقال سليم : لقد لقيت عقابها . فصاح مخلوف حينئذ وشرر الجنون واليأس يتطاير من عينيه : هل ماتت ؟ فارتعدت فرائص سليم وكليم لذلك الصوت الذي حكى صوت وحش جرح برصاصة . واجاب سليم : كلا كلا ! فانه لا يموت احد الحبيين اذا افترقا وخصوصاً اذا كان احدهما مظلوماً إلا بعد اجتماعهما . فبهت مخلوف يتأمل قليلاً ثم قال : وكيف ذلك ؟ فقال سليم : روى فرفورديوس عن نيقوديموس عن افلاطون عن ارسطاطاليس ان كل نفس مظلومة لحبها نفساً اخرى لا تموت اذا ثبتت في حبها وصدقت قبل ان ترى النفس المحبوبة . ولذلك فكل فتاة تهجر فتى يحبها ويثبت الفتى على حبه لها تعود اليه ذليلة من تلقاء نفسها بعد ذلك



وتستغفره عن ذنبها وتطلب اليه ان يشاركها في حياتها . وهكذا
جرى لمس لنهيم التي قرأت في الجريدة حادثتها ، فانها عادت
بعد مدة ذليلة واستصفت خطيبها .

فهنا استوى مخلوف جائئاً على ركبته وبرقت عيناه برقاً
غريباً وقال : واذا كان قد انقضى على غيبتها عدة سنوات ؟
فادرك كلهم في الحال ما قام في نفس ذلك المجنون التعميس ،
فهمس في اذن رفيقه : انك تحاول نفعه بالامل ولكنك ستضره .
فاجاب سليم : وهل بعد الجنون من ضرر ؟ فاني الآن اجرب
طريقة لاصلاح شأنه وتسكين جهازه العصبي الى حين .

ولما سأله مخلوف السؤال الذي تقدم اجابه سليم بقوله :
سواء كان الوقت قصيراً او طويلاً فانها تعود رغماً عن انقها .
ولكني لم اذكر لك الطريقة التي استعاد بها المستر ارثور حبيبته
المذكورة . فانه قبل كل شيء ثبت على حبها ثبات الابطال ،
فكان لا يذكرها بكلمة سوء ولا يحكي قصتها لاحد . ثم كان
يتظاهر باللطف والبشاشة دائماً ولا يضر احداً من الناس وينفعهم
بقدر استطاعته . وكان على الخصوص يعتني بنفسه فياً كل من
الغذاء ما يكفيه ، ولا يتعب كثيراً بالطواف في البلاد ، ويداري
صحته ما امكنه . وبهذه الطرق صار رجلاً جميل المنظر لطيفاً
محبوباً من الناس ، فما لبثت حبيبته ان عادت اليه تطلب منه
الصفح عن هجرها اياه .

وكان سليم يتكلم ومخلوف يفكر ، وقد اخذ العرق يقطر
من جبينه فدل ذلك على ان نفسه كانت حينئذ في صراع شديد
مع نفسها . ولما أتى سليم على آخر كلامه انهملت دموع مخلوف
على خديه ، فوضع رأسه بين يديه وصار يبكي بكاءً شديداً ،
فاغرو رقت حينئذ بالدمع عينا سليم وكليم ، وازدادت دهشتهما
من ان يوجد اليوم في الارض اخلاص كاخلاص هذا العاشق
المجنون التعيس .

ولما استغرق مخلوف في البكاء رام كليم تسليته من وجه
آخر ، فقال له : انت مصيبٌ في بكائك يا مسيو مخلوف . فبارك
الله في عواطفك الرقيقة وقلبك الحساس ! انك ولا شك تبكي
على جميع الازواج التعساء في العالم . انك تبكي على الزوج
المسكين الذي يتزوج ويُرزق اولاداً من زوجته ومع ذلك
يرى عين امرأته ناظرة الى سواه ، الى شاب اغض منه شاباً ،
فتجعل حياته جحيماً دائماً . انك تبكي على الزوج الذي يتزوج
اليوم ثم يموت زوجته الفتاة الرطبة الجميلة بعد سنتين تاركة على
ذراعيه طفلين يصبحان دائماً : يا أماه ! بينما قلبه يصبح معهما : يا
حبيبتي ! انك تبكي الزوج الذي يموت بعد زواجه بسنتين تاركاً
ارملة فتاة وصغيرين لا معين لهما غير الله . انك تبكي الزوج
الذي يرى عائلته تكبر شيئاً فشيئاً ، كل سنة ولد ، ويرى باب

رزقه ضيقاً . فهذه الاحوال الاجتماعية جديرة يا مسيو مخلوف
بدموعك . واذا كنت لم تتزوج بعد فاشكر الله لانك لم تقع
في احدها .

ولكن يظهر ان المسكين مخلوف لم يفهم معنى هذا الكلام
او كانه لم يسمعه لاشتغاله عنه بما كان يجول حينئذ في ضميره .
فلما سكنت كليم تحفز للنهوض فامسك به سليم وكليم ليشار كهما
في الطعام فاعتذر ونهض ، فحاولا اقناعه بالسفر معهما الى الحدث
ومنها الى الارز . فلما سمع كلمة الارز قال هما بهيئة جدية
يضحك منها من يعرف جنونه انه مسافر بعد مدة الى الارز للسياحة
هناك وانه سيقابلهما فيه . ثم تخلص منهما وودعهما باحتاء رأسه
وسار في سبيله

كأنما هو في حلٍّ ومرتحل موكلٌ بفضاء الله يذرعه

ولما غاب عن بصرهما في منعطف المكان التفت سليم الى
رفيقه وقال : حقاً ان حالته حالة مؤثرة . وبعد ان تناولا
الطعام واستراحا قليلاً ركبوا وسارا في طريقهما مع جرجس ،
وكان كل واحد منهما يفكر في مخلوف . وبعد بركة دار بينهما
الحديث على الطريق لان الطريق خير محرك للحديث . فقال
سليم : هذه اول مرة ارى فيها محباً نجس من حبه . فما احسن
هذه الاخلاق الدثة اللطيفة مع الجنون ! فقال كليم : اما انا

فقد شاهدت مجانين عشاقاً قبل اليوم . وعندي قصة اشد تأثيراً
 من قصتنا هذه ، فاني منذ سنتين زرت في طريقي مع بعض
 الاصحاب دير قزحيًا حيث يُعزل بعض المجانين . فلما اشرفنا
 على مكانهم وجدنا احدهم منفرداً عن الباقين وهو جالس حزيناً
 ملوي الرأس ، فوقفنا به فسلمنا عليه فردّ السلام ، فقلنا له :
 ما تجد ؟ فانشأ يقول :

الله يعلم انني كمدُ لا استطيع ابثُ ما اجدُ
 نفسان لي : نفس تضمنها بلدٌ واخرى حازها بلدُ
 وأرى القيامة ليس ينفعها صبر وليس يفوقها جلدُ
 واطن غائبي كشاهدي فكأنها تجد الذي اجدُ

فقلت له : احسنت والله . فاوماً الى شيء ليومينا به وقال :
 امثلي يُقال له احسنت ؟ فولينا عنه هاربين . فقال : اسألكم بالله
 الا ما رجعتم حتى انشدكم ، فان احسنت قلتم لي احسنت وان
 اسأت قلتم لي اسأت . فرجعنا ووقفنا وقلنا له : قل . فانشأ
 يقول :

لما اناخوا قبيل الصبح عيسهم
 ورحلوهما وسارت بالدمى الابلُ

وقلّبتُ من خلال السجف ناظرها
تَوْنُو إِلَيَّ ودمع العين منهملُ

وودعتُ ببنان عقده عنم
ناديت : لا حملت رجلاك يا جملُ

ويلي من البين ماذا حل بي وبها
من نازل البين ، حلَّ البينُ وارتحلوا

يا راحل العيس عرّج كي اودعهم
يا راحل العيس في ترحالك الاجلُ

اني على العهد لم انقض مودّتهم
يا ليت شعري بطول العهد ما فعلوا ؟

فقلتُ له : ماتوا ! فصاح وقال : ماتوا ؟ وانا والله اموت .
ثم تربع وتمدد فمات لساعته . فما برحنا حتى دفناه .

فقال سليم : يا للعجب ! وهل روحه في يده حتى يطلقها حين
يريد ؟ فقال كلّم : هذه قصة محزنة عن المجانين . وقد شهدتُ
ايضاً حادثة اخرى ولكنها مضحكة ، إلا انها تدل ايضاً على
ذكاء هذه الطبقة التي اذا طمس الجنون عقلها فانه يبقى على
نباهتها وحدة ذهنها . وتفصيل الخبر انني كنت ذات يوم ماراً

بقريّة القلمون الاسلاميّة الكائنة على شاطئ البحر تحت دير
 البلمند وقلحات، فرأيت اجتماعاً عظيماً خارج القرية، فسألت: ما
 الخبر؟ فعلمت ان هنالك معتوهاً يضحك الاهالي منه ويجوزون
 له ما لا يجوزونه لسواه. وكان هذا المعتوه يحدّ ليجد السبيل
 الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. «وكان يركب قصبه في
 كل جمعة يومي الاثنين والخميس. فاذا ركب في هذين اليومين
 فليس لمعلم على صبيانهم حكم ولا طاعة، فيخرج ويخرج معه
 الرجال والنساء والصبيان، فيصعد تلاً وينادي بأعلى صوته: ما
 فعل النبيون والمرسلون؟ اليسوا في اعلى عليين؟ فيقولون: نعم.
 قال: هاتوا ابا بكر الصديق. فاخذ غلام فاجلس بين يديه،
 فيقول: جزاك الله خيراً ابا بكر عن الرعية، فقد عدلت وقمت
 بالقسط وخلفت محمداً عليه الصلاة والسلام في حسن الخلافة
 ووصلت جبل الدين بعد حل وتنازع وفرغت منه الى اوثق
 عروة واحسن ثقة. اذهبوا به الى اعلى عليين. ثم ينادي: هاتوا
 عمر. فاجلس بين يديه غلام، فقال: جزاك الله خيراً ابا حفص
 عن الاسلام، فقد فتحت الفتوح ووسعت الفقه وسلكت سبيل
 الصالحين وعدلت في الرعية. اذهبوا به الى اعلى عليين بمحمد ابي
 بكر. ثم يقول: هاتوا عثمان. فاتي بغلام فاجلس بين يديه،
 فيقول له: خلطت في تلك السنين ولكن الله تعالى يقول:



خلصوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم . ثم
 يقول : اذهبوا به الى صاحبيه في اعلى عليين . ثم يقول : هاتوا
 علي بن ابي طالب . فاجلس غلام بين يديه ، فيقول : جزاك
 الله عن الامة خيراً ابا الحسن ، فانت الوصي وولي النبي بسطت
 العدل وزعمت في الدنيا واءتزلت النبي ، فلم تخمش فيه بناب
 ولا ظفر ، وانت ابو الذرية المباركة وزوج الزكية الطاهرة . اذهبوا
 به الى اعلى عليين الفردوس . ثم يقول : هاتوا معاوية . فاجلس
 بين يديه حبي ، فقال له : انت القاتل عمار بن ياسر وخزيمة بن
 ثابت ذا الشهادتين وحجر بن الادبر الكندي الذي احلقت وجهه
 العبادة ، وانت الذي جعل الخلافة ملكاً واستأثر بالنبي وحكم
 بالهوى واستبطر بالنعمة ، وانت اول من غير سنة رسول الله
 ونقض احكامه وقام بالبغي . اذهبوا به فاقفوه مع الظلمة . ثم
 قال : هاتوا يزيد . فاجلس بين يديه غلام ، فقال له : ... انت
 الذي قتلت اهل الحرة واجت المدينة ثلاثة ايام وانتهكت حرم
 رسول الله وآويت الملحدين وبؤت باللعنة على لسان رسول الله
 وتمثلت بشعر الجاهلية :

ليت اشياخي ببدر شهدوا
 جزع الخزرج من وقع الاسل

وقتل حسيناً وحملت بنات رسول الله سبايا على حقائب
الابل . اذهبوا به الى الدرك الاسفل من النار . ولا يزال
يذكر والياً بعد والٍ حتى بلغ الى عمر بن عبد العزيز فقال :
هاتوا عمر . فاتي بسلام فاجلس بين يديه ، فقال : جزاك الله
خيراً عن الاسلام ، فقد احييت العدل بعد موته وألنت القلوب
القاسية وقام بك عمود الدين على ساق بعد شقاق ونفاق . اذهبوا
به فألقوه بالصديقين . ثم ذكر من كان بعده من الخلفاء الى ان
بلغ دولة بني العباس فسكت ، ف قيل له : هذا ابو العباس امير
المؤمنين . قال : فبلغ امرنا الى بني هاشم . ارفعوا حساب
هؤلاء جملة واقذفوا بهم في النار جميعاً . »

ف قيل له : وبعد ؟ فقال : اين امير الاندلس ؟ فرفع اليه
غلام ، فقال له : ايه عبد الرحمن الداخل ، ذهبت تحرق خرقاً
في الاسلام وتنشيء خلافة جديدة وسلطنة كبيرة لم تحسن انت
وقومك الدفاع عنها . اذهبوا به الى النار . ثم قال : اين
الفاطميون ؟ فرفع اليه غلام ، فقال : لقد ألهمتم امراءكم واضعفتهم
الاسلام بشقه شطرين . خذوهم . ف قيل له : وبعد ؟ فقال : بعد
ماذا ؟ ف قيل : آل عثمان . فالتفت بمنة ويسرة ومد لسانه وحك

١ هذه القصة مأخوذة عن « العقد الفريد » .

رأسه وهم بالكلام ، فصاح به صائح : باب السجن مفتوح .
فضحك المعتوه وقال : اما بنو عثمان فاننا نؤجل الحكم عليهم .
فضحك الجميع وانصرفوا .

فقال سليم : حقاً ان امر هذا الرجل غريب ، فانه مع
جنونه يصف كل امير الوصف الذي ينطبق عليه كأنه من ابصر
الناس بالتاريخ . اما صاحبنا مخلوف فاني ارى من القسوة ان
نتركه في هذه الحالة ، ولذلك عزمتم على معالجته لعلني ارد
عليه صوابه .

الحديث

وطوى الفارسان بالحديث المسافة بين عين السنديانة والحديث .
ولما وصلا الى هذه القرية دخلا اليها منقبضي الصدر لانهما كانا
يعتلان النفس بان يشاهدا في اعالي الجبل مناظر ابهى واجمل .
وهذا شأن كل من يتصور شيئاً جميلاً قبل معرفته ، فانه قلما
تكون صورته الحقيقية مساوية لصورته الخيالية خصوصاً اذا كان
المتصور شديد الخيال . واشد الناس خيالاً وارقاهم تصوراً
واسلمهم ذوقاً من لا يرى في صور الموجودات ، مهما كانت
عظيمة نفيسة ، صورة تفوق او تساوي صورتها التي ارتسمت في
خياله قبل ان يراها .

وفي الحقيقة ان جمال الحدث لا يظهر للداخل اليها لاول
مرة بل تجب الاقامة فيها يومين او ثلاثة لادراك محاسنها . فهي
قرية صغيرة قائمة على قمة اكمة في جبة بشرى مطلقة للهواء
والنور من جهاتها الاربع . فيظهر ان الذين بنوها لم يرهبوا
الزوابع والرياح والثلوج في تلك الاعالي ولذلك لم يخفوا قريتهم
في ظل اكمة مرتفعة كقرية فئات القريبة منها الى الجنوب
الغربي ، ولا بنوها في سفح جبل كاهدن التي تقابلها في الشمال ، ولا

في قلب وادٍ كحصرورن في الشرق . بل هم قصدوا بها على ما
يظهر مصادمة تلك العناصر الطبيعية في تلك الاعالي التي يعممها
الثلج ويغطيها الضباب نصف سنة تقريباً . وهذا ما جعل هواءها
اجود الاهوية واجفها واجتذب اليها المرضى للاستشفاء فصاروا
يفضلونها على سواها .

ولما دخل سليم وكليم الى القرية كان اهلهما في هياج واضطراب
وبعضهم يتراكمضون الى منزل قائم فوق حرج صغير بجانب
القرية الى الجنوب الغربي . فقال كلیم : يا جرجس استخبِر لنا
الخبر . فسأل جرجس احد الاهالي فاخبره ان بعض الاميركان
يرومون استئجار بيت في القرية ولكن في الاهالي فريقاً لا يريد
تأجيرهم لانهم بروتستنت يحثون الناس على ترك مذهبهم الماروني
الى المذهب البروتستنتي . فضحك سليم لما علم بسبب هذا
الاضطراب وقال لرفيقه : ان هذه الخلافات في المذاهب
والاديان تتبعنا الى اقاصي البلدان ؛ ثم سأل سليم جرجس : ما
رأيتك يا جرجس في هذا ، هل يجوز لهم ذلك ام لا يجوز ؟ فاجاب
جرجس : الحق اقول لك يا معلمي ان الاهالي لا يريدون تغيير
مذهبهم الذي ربي عليه آباؤهم واجدادهم وهم يقدونه بدمائهم
سواء كانوا في الكورة بناحيتنا او في الجبة بهذه الجهات . فاجاب
سليم مازحاً : ولكن لماذا لا تصنعون انتم في نواحي الكورة ما



يصنعه اهل الجبة من طرد الاميركان، فانكم قبلتموهم وقد فتحوا
 عندكم بضع مدارس . فاحترار جرجس في الجواب ثم قال : اهل
 الكورة روم يا معلمي واهل الجبة موارنة . فضحك سليم وكليم
 لانهما ادركا معنى كلام جرجس . وقال سليم : انا مـاروني يا
 جرجس وكن على ثقة اني اكره الاساءة حتى للمجوس . ولكنك
 قد جهلت السبب الحقيقي، فاعلم ان لذلك اربعة اسباب : الاول
 ان اهل الجبة احرص من اهل الكورة على استقلالهم وارسخ
 منهم قدماً في الدفاع عن حريتهم . وما يروح اهل الجبال اشد
 استمساكاً بحريتهم المطلقة من اهل السهول . وهم يعتبرون
 مذهبهم الديني من جملة عوامليهم وحاجاتهم الوطنية . والثاني
 ان لرجال الدين عليهم سيطرة عظيمة خلافاً لرجال الدين في
 الكورة، وذلك لما للهيئة البطريركية الدينية من النفوذ الخصوصي
 في سياسة الجبل . والثالث ان فرنسا التي تحمي هذه السلطة
 الدينية يطيب لها ان تبعد ما امكنها كل اجنبي يروم مخالطة
 الاعالي واستمالتهم وعلى الخصوص البعثات الدينية غير الفرنسية .
 والرابع ان الكورة تابعة لاسقفية طرابلس دينياً والروم
 واندميزكان في طرابلس على شيء من الاتفاق، فكيف يستطيع
 اهل الكورة ان يعاندوا الاميركان ما دامت هيئتهم الدينية في
 طرابلس مسالمة لهم ؟ فقال كليم حينئذ وقد ضجر من هذا الكلام :
 لله ما اصبرك على البحث في هذه الهنات !

وفي هذا الحين وصل الجوادان الى المنزل الذي كانا يقصدانه في القرية ، وهو اعلى المنازل في الجنوب وآخرها . وكان أهل المنزل في النوافذ ينتظرون الضيفين ويشاهدون اضطراب الاهالي وصياحهم حول المنزل الذي تقدم ذكره .

وكانت العائلة المصيفة في هذا المنزل عائلة صديق لسليم وكليم يدعى الخواجه امين ، وكان مريضاً ، وهي مؤلفة من امين المريض واب له في السبعين من العمر وأُمّ في نحو الستين . وكان امين مريضاً بعلة الصدر المشهورة التي كثرت في سوريا ولبنان في هذا الزمان ، وهو شاب في الخامسة والعشرين من العمر انقضى عليه ثلاث سنوات بهذه العلة فلم ينجع بها دواء ولم يبقَ لها علاج عند الاطباء غير الإقامة في الهواء النقي الجاف في اعالي الجبال . وكان امين وحيد والديه الشيخين وقبلة آماهما ، ولكن المرض لا يعرف رحمة ولا يرعى حرمة . وكان ابواه في يأس شديد من حالته يبكيان الليل والنهار على وحيدهما الشاب الذاهب عنهما تاركاً اياهما في آخر العمر فريدين وحيدين في هذه الحياة . إلا انهما مع حزنهما المتصل في السر كانا يظهران امام المريض كل سرور وبشاشة ، وكذلك كان المريض امامهما ، فانه كان عالماً بعلمته التي كانت تجره الى الموت شيئاً فشيئاً ولكنه كان يحتملها بلا ضجر ولا شكوى لئلا يزيد في عذاب



الشيخين اللذين كانا يعتنيان به . ولم يرَ احد قط صبراً على مرض
كصبر هذا المريض الكريم وممرضيه الشيخين .

ولما دخل سليم وكليم عليه كان امين ممدداً في سريره لا
يقوى على النهوض ، فابتسم لهما مسلماً ، اما هما فلم يفتحا بهذا
الابتسام بل تقدما منه ليصافحاه بهزّ اليد ، فلما رآهما يمدان
يديهما نحوه سحب يده واخفاها تحت اللحاف وقال لهما بدمع
في عينيه : لا تتعباني بالسلام عليكما فاني في غاية الضعف .
فنفرت الدموع حالاً الى عيني سليم وكليم لعلمهما ان ذلك
المريض العزيز لم يخف يده إلا فراراً من ان يعديهما من دائه .
فيا ايها المرضى الذين يشكون من فرار الناس منهم خوفاً من
العدوى ، ويا ايها المصابون بامراض مزمنة يقضون اوقاتهم
بالتضجر والتألم والتحسر : تعلموا هذا الشعور اللطيف والصبر
الجميل من هذا المريض الكريم .

وما جلس كليم وسليم بستريجان بعد تعب الطريق حتى
اشتدّت الضوضاء في القرية وعلا الصياح ، فهرعا كلاهما الى النافذة
واطلاء منها ثم قال كليم لامين : لم نفهم جيداً سبب هذا
الاضطراب . واذا بصاحب المنزل داخل ، فسأله امين : كيف
انتهت المسألة يا ابا مرعب ؟ فقال ابو مرعب : حقاً انهم تجاوزوا
الحدود ، وقد عزمتم ان اذهب وادعو اولئك الضيوف الى

منزلي هذا وادعهم يقيمون في الجانب الآخر، فما قولكم؟ فقال له امين : احسنت يا ابا مرعب، وهكذا فلتكن الشهامة . فقال : ولكني أريد ترجماناً بيني وبين الخوارج . فهب سليم وكليم وقالوا : نحن نرافقك .

وبعد خمس دقائق وصل ابو مرعب مع سليم وكليم الى المنزل الذي كان النزاع عليه ، فوجدوا حوله نحو عشرين رجلاً من اهل القرية وبضع نساء وعدة اولاد وامام المنزل ثلاثة بغال عليها حرائج السفر وبجانبها ثلاثة من الاميركان وترجمان وخادم . وكان ابو مرعب في نحو الخمسين من العمر، وهو رجل كبير الجسم كثير السن قوي العزم لا يهاب الموت اذا تمثل له في شخص انسان . وكان مشهوراً عنه انه حارب مع يوسف بك كرم، وكان من اشد اعدائه حتى ان يوسف بك سماه «كلة مدفع» إشارة الى استدارة جسمه وقوته . فلما وصل ابو مرعب الى المتجمهرين دخل بينهم مع رفيقيه واستفهم منهم عن سبب الاضطراب والصياح ، فعلم منهم ان ذلك الجمهور كان مقسوماً قسمين : ففريق كان يقول ليس من آداب الضيافة ان تمنع الاجانب من الاقامة في قريتنا وإلا سببنا الناس حتى اهل القرى المجاورة . وكان في هذا الفريق صاحب المنزل نفسه . وفريق آخر كان يقول : نحن لا نبعد هؤلاء الضيوف لانهم يروتستنت

فقط بل لان فيهم رجلاً مسلواً اذ نخاف على قريتنا من العدوى .
فرفع حينئذ ابو مرعب صوته وقال مخاطباً الفريق الذي
كان يقاوم : يا شباب هل هذا المنزل منزلكم ؟ فاجابوا : كلا !
فقال : وهل لصاحبه الحق في اقفاله او هدمه او تلقيب القروء
فيه ام لا ؟ فاجاب احدهم ، وكان اجرأهم : نعم له الحق في
ذلك ولكن ليس له الحق في ان يضع فيه شيئاً يضر بأهل القرية
كلهم . فقال ابو مرعب وقد بدا الغضب في وجهه : وما هو هذا
الشيء يا ابن طنوس ؟ فقال : المرض . فصاح به الشهم ابو
مرعب : هل انت بدون دين يا ابن طنوس حتى تضطهد وتطرد
المرضى والضعفاء الذين اوصت ديانتنا بمساعدتهم وزيارتهم ؟ ولماذا
لم تطرد القرية اباك لما مات منذ سنتين بعله الجذام ؟

فسكت ابن طنوس ، ولكن شاباً بجانبه اجاب : هل الغريب
كالقريب يا ابا مرعب ؟ فقال ابو مرعب : عافاك الله يا ابن
سر كيس ، فانك نطقت بالحق ، فانتم إذا تريدون اضطهاد
هؤلاء الضيوف لانهم اجانب وبروتسنت لا لحفظ صحة القرية .
فانا اخبركم انني الآن آخذهم الى بيتي وكل من تحدثه نفسه
بمنعي فليتبعني .

ثم اندفع ابو مرعب الى البغال فأخذ باحدها ومشى في المقدمة
يتبعه المسافرون وبجانبه كلهم وسليم يعجبان من كرم اخلاق
هذا القروي .

اما المسافرين الاميركان فانهم كانوا في اثناء ذلك يضحكون
وقد افهمهم ترجمانهم كل ما جرى فاجابوا «يس يس» اي انهم
رضوا بالاقامة في منزل أبي مرعب . إلا انهم لم يشكروه على
ذلك شكراً خصوصاً لانهم لم يعرفوا قيمة العمل الذي عمله
معهم ذلك الرجل الكريم .

ولما استقر بهم المقام في بيت ابي مرعب نادى سليم وكليم
ترجمانهم وكان من تراجمة بيروت قدم معهم لهذا الغرض . وبعد
ان تعرفوا به سألوه عن رفاقه وقصتهم فاخبرهم ان هؤلاء الثلاثة
الاميركان هم من حواشي اميركي كبير قادم للسياحة في جهات
الارض . فسأله سليم : وما اسمه ؟ فاجاب الترجمان : اسمه
مستر كلدن . فصاح سليم : مستر كلدن احد اغنياء اميركا
العظام ؟ فقال الترجمان : نعم فان زوجته مريضة وقد حضر
معها للسياحة في اعالي لبنان . وقد اشار عليهم اطباء بيروت
ان يتخذوا الحدث محطة لهم اذا اعجبتهم لان هواءها اجف
الاهوية ومنها يزورون كل الاماكن الجميلة التي بجوارها . وهذا
ما جعلنا نتقدمهم وننتظرهم .

فقال كلیم : اذاً لستم مرسلين اميركيين كما ظن اهل القرية .
فضحك الترجمان وقال : كلا ! فقال كلیم : ومن من رفاقك
المصاب بداء الصدر ؟ فضحك الترجمان ايضاً وقال : لا اعرف

أحداً مصدوراً بينهم ولكن لون أحدهم ضارب إلى الأصفرار
فحسبوه مصاباً أو أنهم ادعوا ذلك تأييداً لحجتهم. فضحك سليم
وقال : لا بأس ، نحن نحمد هذه الصدقة التي جعلتهم قريبين منا
لأننا سنتعرف بالمستر كلدن ولا شك . فقال الترجمان : وهل
تحبون التعرف برجال بطانته ؟ فاجاب سليم : ذلك ما نتمناه .
وفي المساء زار سليم وكليم المسافرين الاميركان فاحسنوا
استقبالهم وقد سرورا لمصادفتهم اديبين مطلعين بحادثاتهم بلفتهم
حديثاً مفيداً عن المكان والسكان . وفي اثناء الحديث سأل سليم
أحدهم : بلغنا من الترجمان ان مسز كلدن مريضة وهذا سبب
سياحتها مع زوجها المكرم ، ولكن ما مرضها ؟ فضحك المخاطب
واجاب : مرض الوطن . فاستغرب سليم وكليم ذلك ، فقال
صاحبهما : نعم انا اخبركما الآن شيئاً جديداً وهو يسركما ولا
شك . فان مسز كلدن اصلها من بر الشام ، ولم تنفك عن
الاشتياق الى وطنها الاول ، فجاء بها المستر كلدن في هذا
العام لعل صحتها تعود اليها في هذه السياحة التي هي متعبة وان
كانت جميلة .

قصة مجنون ليلى

وفي ذلك الليل نام كلهم وسليم نوم الهناء بعد تعب السفر .
ونبضا في صباح اليوم التالي نشيطين مسرورين . إلا أنهما شعرا
قبل شروق الشمس بشيء من البرودة لم يتعوداه في آب
لقياسهما الجبل على السهل . لكن لما طلعت الشمس ومازجت
ذرات نورها الحار ذرات الهواء البارد شعرا بارتياح شديد لم
يشعرا بمثله في حياتهما كلها . ومنذ هذه الساعة بدأت الحداث
تكون جميلة في عيونهما .

ولما تعالت الشمس فوق المشرق واشتدت حرارتها قليلا
انتبه أمين من النوم وأوعز إلى أبويه أن يستعدا للذهاب إلى
حرج الصنوبر القريب من القرية ليتناولوا طعام الصباح هناك
مع خيفيهما . فبعد نصف ساعة سار كلهم وسليم نحو الحرج
وركب أمين حماراً لأنه كان عاجزاً عن المشي لضعفه وسار أبواه
وراءه . والمسافة بين القرية والحرج نحو أربع أو خمس دقائق .
وهذا الحرج قائم بين القرية القديمة وبضعة منازل جديدة بنيت
وراءه إلى الجنوب ، وهو مغروس فوق أودية مختلفة تنفرج من



الحدث الى السهل فيُرى من ورائه بحر الكورة والبترون وما ورائه من الافق .

فجلس الرفاق هناك في اجمل مجلس وتناولوا طعام الصباح .
وقد جعل امين مجلسه بعيداً من مجلس صديقيه وفصل طعامه
عن طعامهما . فكان هذا الشعور اللطيف منه يزيد صديقيه رغبة
في محو ذلك الاثر من نفسه . ولكن وا اسفاه ما الفائدة من
محو ذلك الاثر من النفس ما دام بادياً في الوجه ؟ فان اميناً
كان في تلك الجمعية التي كانت تتمتع بالصحة والعافية في ذلك
المكان المشرف على مناظر الجبال الجميلة والمعطر الهواء برائحة
الصنوبر الطيبة ، عبارة عن شبح وخيال . فان العلة الهائلة
اكلت وشربت لحمه ودمه ، والهزال افنى قواه واخمد نار عينيه
وصبغ وجهه اللطيف بلون الموت . ولم يبقَ من قوة لملك
الروح الصبورة في ذلك الجسم النحيف الذي صار كأجسام
الاولاد ، سوى قوة الابتسام بشفتيه الرقيقتين تحت شاربيه
الاشقرين الدقيقين اللذين صاروا لا يظهران كثيراً لامتزاج لونهما
بلون الوجه . فبالابتسام فقط كانت تظهر حياة امين وعواطفه
وارادته . وكان يجود بالابتسام دائماً اظهاراً للقوة وايناساً لجلائسه .
فهما نقول مرة ثانية ايضاً : ما رأى المرضى قط مريضاً شجاعاً
صبوراً مثل الفتى امين . والعجب من نفس قوية صبورة كهذه
النفس كيف استطاعت العلة ان تقوى عليها .

وكان لا ينقص عيش سليم و كلیم شيء في ذلك المكان
الجميل سوى هذه الافكار التي كانت تتردد عليهما . ورغبة في
طردها وتسليّة المريض دخلا في الحديث معه . فقال كلیم : ألا
تذهب معنا الى الارز ايها الصديق ؟ فضحك امين وقال : انت
ترى انني لا اقدر على الركوب من القرية الى هنا . فقال سليم :
لا تبالغ فانك بخير والحمد لله وانك تستطيع الذهاب معنا الى
الارز اذا اردته . ولك علينا اذا سرت معنا ان نريك فرجة لم
ترها في حياتك . فقال امين : وما هي ؟ فقال سليم : نريك
مجنون ليلي . فقال امين : ومن هو مجنون ليلي ؟ فقال سليم :
هو رجل جنّ من الحب . فصاح امين : لعلك تريد بهذا الرجل
المسيو مخلوف ! فدهش سليم و كلیم وقالوا : هل تعرفه ؟ فقال
امين : هذا امر بسيط ، فان كل الناس هنا يعرفونه ويعرفون
قصته . فقال سليم : وهل تعرفها بالتفصيل ؟ فقال : نعم ،
ولكن اين شاهدناه ؟

فقص عليه سليم كيف شاهدا مخلوف في عين السديانة وما
جرى له وكيف وعدهما بان يقابلهما في الارز . فقال امين :
اظن هذا كل ما تعرفانه عنه ، اما انا فاني اقص عليكما قصته
من اولها الى آخرها كما سمعتها من عارفيه ، واليكما تفصيلها :
ان اسم مخلوف الاصلي يعقوب درمان ، وهو شاب اديب من



بلدة صور، وكان منذ عشر سنوات مكباً على الدرس استعداداً
لفن المحاماة . فبينما كان ذات يوم يطالع بعض دروسه على
شاطئ البحر اذا به يسمع صراخاً وعويلًا ، فركض فابصر
خادمة تنادي على سيدة لها بين الامواج تكاد تغرق ، فالتقى نفسه
حالاً باثوابه في البحر وانقذ السيدة . وكانت هذه السيدة فتاة في
نحو الثامنة عشرة من العمر وهي كريمة تاجر كبير في صور .
وقد رامت الانتحار غرقاً لاسباب مجهولة . فلما انقذها يعقوب
ارسلها الى بيتها وكانت مغشياً عليها ، فكاد ابوها يموت من حزنه ،
ولكن الحياة عادت اليها . ومنذ ذلك اليوم احبها يعقوب درمان
حبا شديداً يقرب من العبادة ، ومالت الفتاة اليه لانه انقذ حياتها .
لكن الاقدار عاكستهما بعد ذلك ، فان اباهما على ما يقال توفي
في ذلك العام وقد خسر جميع امواله وانحطت كرامته بين
قومه بعد ان كان عزيزاً بينهم ، وبذلك بقيت ابنته وحدها اذ لم
يكن في البيت غيرها لوفاة امها . وكان يعقوب درمان فقير
الحال ايضاً ، فرأت الفتاة انها اذا اقترنت به ازدادت سوء حال
على سوء حال ، وكانت عزيزة النفس شديدة الأنفة لانها نشأت
في الترف والغنى والدلال ، فكرهت ان تقيم ذليلة فقيرة في بلدة
كانت فيها العزيزة المبجلة . فعافلت حبيبها يعقوب وقررت
مسافرة مع احدي البواخر التي تمر على صيدا وتركت له ورقة

تقول له فيها : انساني واسلني بعد الآن . ويظهر ان دماغ يعقوب ضعيف من فطرته فلم يقوَ على تحمل هذه الصدمة فجنى من يومها . فقال سليم : ولكن كيف سافرت الفتاة وحدها الى بلاد لا تعرفها ؟ فاجاب امين : لا تسأل عن ذلك فانها نشأت في مدارس الاميركان وانت تعلم انهم يربون البنات في مدارسهم على الجرأة والاقدام والاستقلال ، وهو امر احيانا يكون نافعا واحيانا يكون ضارا .

فضحك كليم وقال : لا ريب اننا اذا رأينا نحن في هذه الحادثة نافعا فان الحواجه مخلوف يراه مضرأ جداً لانه فقد به حبيبته وعقله .

فقال سليم : ولكن عندي ان الفتاة لم تخطيء اذ لا اصعب من معيشة الانسان محتاجاً الى الناس في بلدة كان فيها من قبل غنياً عنهم . فان دناءة الشامتين ولؤم المنتقمين ووقاحة حديثي النعمة الذين يحلثون محل ذلك الانسان بعد سقوطه امور لا تحتملها النفوس .

فقال امين بهدوء ورزانة : ما للانسان وكلام الناس ، انما عليه ان يعيش بهدوء مستوراً ، واذا كان في الناس قوم اردياء يشمتون وينتقمون ففهم قوم طيبون يؤانسون ويعزرون . فقد كان على الفتاة ان تبقى ولا تسافر بهذه الصورة الشنيعة .

فقال كلیم ضاحكاً : لو سمعك مخلوف الآن لأعطاك
طربوشه من فرجه .

فقال امين ضاحكاً : وما نفعي منه ؟ فان طربوشه قدر .
فضحك الجميع لهذا الجواب .

حديث في حرج صغير

وقد طابت الإقامة لسليم وكليم في هذا الحرج الصغير فصارا في كل يوم يقصدانه مرة أو مرتين للاستظلال به من حر الشمس . ولكنهما لم يكونا يجلسان في الظل ربع ساعة حتى يوردا فينبهضا الى الشمس فيسخنا فينبهضا الى الظل ، وهكذا على التتابع . وكانا يصرفان الوقت هناك بالحديث ومطالعة أطايب الكتب .

فبعد ان مضى عليهما بضعة أيام في هذه المعيشة نظرا الى نفسيهما ذات يوم وهما في ذلك المكان ، فاذا بهما قد صار جسماهما ممتلئين قوة وصحة وتوردت وجناتهما واكتسيا من هواء الجبال ثوباً زاهياً غطى ثوب الاصفار والضعف الذي كستهما به المعيشة المدنية . وكانا ينظران الى نفسيهما في المراة ولا يصدقان . فالتفت سليم الى كلیم وقال : ان الذين يعيشون في السهول والمدن في الشام وغيرها يخطئون اشد خطا إذا كانوا لا يصعدون مرة في العام الى جبال كهذه الجبال لتجديد قواهم ودمائهم . فأجاب كلیم : أنا موافق على رأيك بعد ما



شاهدته في صحي من التحسن . تالله انني احسب نفسي كنت
ميتاً وبُعثت ، فاني آكل ولا أشبع ، واشرب ولا أروى ،
وامشي ولا اتعب ، وأحياناً أخشى لنشاطي وخفة جسمي ان
أطير في الهواء . فضحك سليم وقال : ما رأيك بأصحابنا في
الشام وفي مصر الذين يقصدون جبال سويسرة وبلاد اوروبا في
الصيف ويتركون هذه الجبال التي فيها المعيشة ارحص ما
يكون ؟ فقال كلیم : من جهل شيئاً لم يحفل به . فهم يجهلون
فضائل هذه الجبال . هذا عدا ان طريقها وعرة .

وفي هذا الحين وصل الى الحرج شابان ، فصاح كلیم بهما :
أهلاً بالخواجه فاضل والخواجه حنانيا . ثم جلس الشابان بازاء
رفيقيهما وانخذا في الحديث معهما . وكانا من رفاق كلیم وابناء
وطنه وهما مصيفان في القرية .

وكان حنانيا شاباً تدلُّ هيئته على « البساطة » ولكن في
الزوايا خبايا . وكان بلحية ضاربة الى الشقرة ، وهو كثير
التنحج كلما فاه بعبارة . وكان رفيقه فاضل يكثر من مغازحته
ومداعبته ، وكذلك كلیم . وقد كان حنانيا يسر بهذه المداعبة
على ما يظهر لانه لم يكن يستاء منها ولو جرحته أحياناً .
وكثيرون وفي جملتهم المؤلف كانوا يعتبرون ان هذا الأمر
ناشئ بالأكثر عن « طيبة » قلبه .

اما فاضل فقد كان شاباً هادئاً يحب الجدة كما يحب المزاج ،
وقد كان في عينيه ما يدل على صفاء قلبه ، وفي أساليبه وكلامه
وسكوته ما يدل على انه ربي في عائلة ذات نعمة . وكان من
المشهور عنه انه شديد الاخلاص والرغبة في نفع غيره ، فلم يكن
احد يسأله شيئاً في طاقته ويقعد عنه .

ولما دار الحديث بين الرفاق الأربعة قال فاضل : ان رفيقنا
حنانيا قد ابتاع اليوم كرمًا . فقال سليم : وكيف ذلك ؟ فقال
فاضل : جرت عادته انه كلما رام ان يأكل عنباً يقصد هذه
الكروم الممتدة امامنا من القرية الى حرج الارز الصغير
المشرف عليها ، وكلما شاهد عنقوداً جميلاً جلس كالثعلب بجانبه
وتناول منه انضج حبوبه واكبرها ، ولا يزال يفعل ذلك حتى
يشبع . ففي هذا الصباح بينما كان « يفطر » بهذه الطريقة نظره
ناطور الكرم فصاح به واسرع اليه ، فأجابه صاحبنا بكل برودة
قلب : ماذا تريد ؟ فقال له الناطور : اخرج من الكرم . فقال
له بغضب : ولماذا ؟ هل هو كرمك ؟ قال : بلا شك . فقال له
صاحبنا : ارني الحجة التي بيدك لأتحقق ذلك . ولعمري ان هذه
خير الطرق للشبع من العنب بدون دفع بارة واحدة .

فقال كلیم : اذاً لا يظلم أهل القرية كثيراً ضيوفهم بمعاندتهم
والرغبة في التخلص منهم اذا كانوا كلهم على نسق صاحبنا حنانيا .



فقال حناييا : أنا لست سلاً ولا برو تستنت ليستطيعوا طردي ،
فانني قاعد هنا على صدورهم الى ان يحلو لي السفر . ثم فلنترك
الآن المزاج ، هل بلغكم عزم أهل القرية على التجهيز لاختراع
المرضى من قريتهم ؟

فقال سليم : وما قولكم في قصدكم هذا ؟ ألا ترون فيه
شيئاً من الحق ؟

فأجاب فاضل بجدة : عفواً عفواً . ان لأهل القرية الحق في
ابتعاد المرضى عنهم كما ان للمرضى وخصوصاً المصدورين الحق في
اختيار الحدث للإقامة فيها لان هواءها اجف الاهوية والاطباء
يأمرونهم بأن يسكنوها ، ومن الحشونة والهمجية ان يداس
حق الضعفاء ارضاء للأقوياء .

فقال سليم : فما الخيلة لارضاء الفريقين ؟ أليس هناك يا ترى
طريقة جامعة ؟

فقال فاضل : كنت أفكر منذ مدة في هذا الأمر حين
سماعي ذلك الخبر فحللت هذه المشكلة ، وذلك ان يُبنى فوق
القرية تحت الأرصات التي هناك « مستشفى للمرضى » مؤلفاً من
عشرين أو ثلاثين غرفة جامعة لكل الشروط الصحية على نسق
المستشفيات الصحية للمسلمين في أوروبا « سانتوريوم » وحينئذ
يجتمع المرضى من تلقاء انفسهم في هذا المستشفى بدل ان ينتشروا
في منازل القرية ويخاصموا الأهالي لاستئجارها .

فقال كليم : لقد أصبتَ فان هذا خير حل . وحينئذ
يكون من حق الأهالي اجبار المرضى على الانفراد بذلك
المستشفى . والا فكل مقاومة منهم تعد خشونة وقسوة اذ
الارض ليست ارضهم ولا الهواء هواءهم بل هما لله ، اي انهما
مشتركان بين جميع البشر . واذا لم يقيم احد لبناء هذا المكان
الصحي ، فاني اؤكد ان الحدث لا يقصدها في المستقبل غير
المرضى فتخسر خسارة غير قليلة .

فقال سليم : نعم ان السلّ آفة هائلة . والناس يرهّبونه
كما يرهّبون نيران جهنم .

فقال حنانيا : ولكن من أين تنشأ هذه الآفة المهلكة التي
كثرت في بلادنا ؟ ثم أليس من دواء لها ؟

فقال سليم : لقد اطلعت منذ اسبوعين على آخر الأبحاث
والآراء في هذه الآفة ، ومنها يظهر ان السل يصاب به
نصف البشر على الأقل . فبعضهم يشفى منه دون ان يدري
به ، وبعضهم يموت . ولذلك سموه « داء الانسانية » . وفي فرنسا
وحدها فقط يموت به في كل عام ١٥٠ ألف شخص . اما سبب
هذه الآفة فهو الافراط في كل شيء : الافراط في السكر ،
الافراط في الزواج ، الافراط في التعب والهم ، الافراط في
السهر وسوء المعيشة وقلة الغذاء وفساد الهواء الخ ... ويقولون



انه ينتقل بالوراثة وهذا رأي ضعيف اذ جل ما تفعله الوراثة اعطاء الولد بنية ضعيفة ، فاذا كان الأهل حكماء استطاعوا تقويتها وانقذوا الولد ، والا سقط ، فسقوطه اذاً يكون لا من وراثته داء السل بل من وراثته ضعف البنية ، وكأن آفة السل تمثال أسود للشقاء والعذاب منصوب في ساحة تؤدي اليها كل طرق الشقاء والغلو والافراط والفساد .

اما دواء هذا الداء فبسيط جداً ، وأنا احب ان يُنادى على السطوح على مسمع من جميع المرضى المساكين ان داءهم قابل للشفاء خلافاً لما بلغهم . بل ان شفاءه اسهل من شفاء الحمى التيفوئيدية والجذري وغيرهما ، لكن على شرط ان يُتدارك من اول ظهوره . فقولوا للمرضى به : لا تحزنوا ولا تخافوا ، ان داءكم بسيط اذا احسنتم مداواته ، ولكن اذا اهملتموه قضي عليكم لا محالة . وان قيل : كيف تحسن مداواته ؟ فالجواب : لا دواء له غير شيء واحد وهو : الهواء النقي والغذاء الكافي . اما ما يُقال عن العلاجات والأدوية فهو كله تدجيل في تدجيل . وكثيراً ما تناول المصدورون ادوية فنفعتهم شهراً او شهرين ثم انتكسوا بعد ذلك من فعل تلك الادوية وانتهى اجلهم . فترك الدواء اذاً هو كل الدواء ، ومعرفة وقت ابتداء الداء هي السر الوحيد في الشفاء ، ولا ينبغي للمسؤول ان ييأس من

شفائه أبداً، فان بعض الاطباء داوى بعض المرضى بالسل عشرين سنة وكانوا ينفثون الدم مع البلغم ومع ذلك رزقوا اولاداً وعاشوا عمراً طويلاً . ولكن المسلول العازب عليه ان لا يتزوج وان تزوج ولم يكن حكيماً غلبه داؤه . اما النساء المسلولات فالحبل فقط يضرهن ضرراً شديداً ويغلب داءهن عليهن . ومن ذلك كله يظهر ان الاعتدال وحسن المعيشة في الهواء النقي الجاف في الجبال مع قليل من الرياضة الخفيفة هي الدواء الوحيد الشافي من هذا الداء .

وما اتى سليم على هذا الكلام حتى نظر ابو مرعب راكضاً نحو الحرج ينهب الارض نهباً . فاشترأبت اليه الاعناق وقال كلیم : خير ان شاء الله ! ما وراء أبي مرعب ؟ ولما وصل ابو مرعب صاح وهو يلث تعباً : هل بلغكم الخبر ؟ فقالوا : ماذا ؟ فقال : قد وجدنا كنزاً . فقال كلیم : وما هذا الكنز ؟ فقال ابو مرعب لاهتاً : كنز، كنز عظيم . فقال كلیم : فاخبرنا ما هذا الكنز ؟ فجلس ابو مرعب وقص عليهم ما يلي :

كنت الآن هناك مع ترجمان الجماعة، واذ كنت اسأله عن المستر كدن... نكدن... كيف يلفظ اسمه ؟ فاجاب كلیم : « كلدن » . فقال : تمام « كلدن » ، فأجابني الترجمان انه غني عظيم تقدر ثروته بخمسين مليون ليرة . واذ كنت اسأله عن اخلاقه وصفاته



اخبرني خبراً غريباً . فقد قال لي ان هذا الرجل يخرج في السنة
 مرة من بيته في شيكاغو الى المدينة وجيوبه ممتلئة بأوراق البنك
 ولا يزال يوزع منها على الذين يجدهم في طريقه حتى تنفذ . فربما
 وزع مليون فرنك في ذلك النهار . ولذلك يسميه الناس نهار
 كلدن ... نكدن ... كيف اسمه ؟ فقال سليم ضاحكاً : « كلدن » .
 فقال ابو مرعب : نعم نعم « نهار كلدن » . وقد اخبرني الترجمان
 ان الذي ابتكر هذه الطريقة وحثه عليها شاب مستخدم في محله
 يدعى « المستر كرنيجي » وكثيراً ما يرافقه في ذلك النهار .
 فما قولكم اذا جاء صاحب الملايين غداً وعلم اني انقذت رجال
 حاشيته ، الا يفتح يده ويرينا جوده وكرمه ؟
 فضحك الحاضرون وقال سليم : اشير عليك يا عمي ابا مرعب
 ان تطلب منه ان يصنع « نهار كلدن » مرة في الحدث . فقال
 ابو مرعب : والله هذا رأي في غاية الصواب . وسنطلب ذلك
 منه كلنا . ثم نهض ابو مرعب واسرع ليجتمع ببعض رفاقه
 من أهل القرية ويتفق معهم على هذا الطلب .
 فلما غاب عن أصحابنا التفت كلیم الى حنانيا وقال :
 ماذا تصنع يا حنانيا اذا صنع المستر كلدن « نهاره » في الحدث ؟
 فاجاب فاضل عن حنانيا : اعوذ بالله ! ان صاحبنا حنانيا
 يقطع نفسه عشرين قطعة في ذلك اليوم ليصادفه صاحب الملايين
 عشرين مرة .

وكان حنانياً يضحك في أثناء ذلك وهو ساكت .
ولما عاد الاصحاب الاربعة من الحرج وجدوا خمسين
قروياً جالسين حول أبي مرعب تحت بيته وهم يبحثون في
طريقة يقنعون بها المستر كلدن ان يصنع « نهارد » في الحدث .
وقد أخذوا منذ تلك الساعة يلاطفون رجال حاشيته ويكرمونهم
احسن اكرام . وما برحت المصالح تغير قلوب الناس في كل
زمان ومكان .

لا تريد المرور على بيروت

وفي هذه الاثناء كان المستر كلدن وزوجته وابنتان لهما وحاشيتهما الكثيرة صاعدين عند دير حنطورية في الطريق الموصلة الى عين السنديانة .

وكانت الابنتان في مقدمة الركب وكل واحدة منهما على جواد ووراءهما امهما على جواد أيضاً يليها الاب على فرسه وبجانبه وكيل أشغاله ووراءهم الحاشية والحمام والبغال تحمل الاثقال .

وكان المستر كلدن كهلاً في الخمسين من العمر . وهو جميل الوجه ، طويل القامة ، احمر اللون ، أشقر الشعر ، متقد العينين بالذكاء الاميركي المعروف ، وفي كل حركة من حركاته وكل كلمة من كلماته شيء يدل على النشاط والحدة .

أما زوجته فقد كانت في نحو الثلاثين . وكانت بيضاء الوجه كالثلج المعمم قمم لبنان ، سوداء الشعر والعينين ، رشيقة القوام كفصن البان ، خفيفة الحركة فوق جوادها الرشيق كأنها غزال على غزال .

فكان هذا الزوج وزوجته يمثلان ضربَي الحسن في العالم :
الحسن الاميركي الاشقر والحسن الشرقي الجامع بين اللون
الابيض الناصع واللون الاسود الفاحم .

والغريب ان ابنتيهما جاءتا واحدة على شكل امها وواحدة
على شكل ابيها . وكانت احدهما في التاسعة من العمر والاخرى
في السابعة . وكانتا ثابتتين على ظهر جواديهما ثبات الفوارس .
ولا عجب في ذلك لانهما ربيتا تربية اميركية .

ولما حاذى الراكب دير حنطورة كان المستر كلدن في حديث
مع امرأته وقد تنحى عنه وكيل أشغاله ، وكان يقول لها :
لماذا تكرهين بيروت يا اميليا الى هذا الحد ؟ حقاً انني صرت
اخجل من قومي فيها لعدم استقبالنا اياهم . فأجابت زوجته
والحزن بادٍ في وجهها : حقاً انني ندمت يا جورج على سياحتنا
هذه . ففقهه المستر كلدن وقال : كيف تندمين الآن بعد ان
بكيت سنتين على هذه الزيارة ، وفي كل يوم كنت تتنهدين
وتقولين : هل أرى بلادي مرة قبل ان اموت ؟ فقالت اميليا
والدموع في عينيها : لا تمزح يا صديقي في مسألة كهذه المسألة ،
فان قلبي في غاية الالم . نعم كنت اشتاق في بلادنا الى رؤية
البلاد التي ربيت فيها ، ولكنني اول ما وصلت اليها تغير قلبي
فعلمت حينئذ انه قد كتب لي التعاسة على هذه الارض . فاني

إذا أقمتُ في بلادنا اميركا شعرتُ انني غريبة فيها، وإذا جئت
بلادِي الاصلية شعرتُ ايضاً انني غريبة . فشأن طائر نسفت
الزوابع عشه واستأصلت الشجرة التي كان يأوي اليها فلم يبقَ
له أمل بالراحة وان وجد عشّاً أحسن من عشه الاول
وشجرة أفضل من شجرته الاولى . وليس معنى كلامي هذا انني
غير راضية بحالتي الحاضرة ، فأنني من فضلك ونعمتك في ألف
فضل وألف نعمة ، ولكن ماضيّ شديد الضغط على نفسي .

وهنا انحدرت الدموع من عيني اميليا ، فصاحت بها ابنتها
الاولى : عدنا الى البكاء يا ماما ! اذا لم تسكتي فأنني ابكي ايضاً .
وقال لها زوجها : الحق اقول لك يا عزيزتي انني لا أعرف سبباً
لهذا الحزن واليأس ، فانك تعلمين اننا صنعنا كل ما في امكاننا
فلم نعثر على اثر لأبيك ، وقد عرضتُ عليك ألف مرة ان ننتقم
من اعدائه فكان جوابك : ما الفائدة من الانتقام ؟

فهنأ اغرقت اميليا في البكاء وقالت : نعم ما الفائدة من
الانتقام ؟ فانه لا يردُّ لي أبي ، ولو عثرت على أبي فربما كنتُ
طاوعتك على الانتقام ارضاءً له ، لانه تعذب كثيراً في اثناء
حياته ، ومن العدل ان يعذب معذوبه وان كنت لا احبُّ
عدلاً كهذا العدل . ولكن ماذا كان جواب الباحثين عنه في
جهات البرازيل ؟

قال : لم يجدوا له أثراً ، وأنت تعلمين انني نشرت منشوراً
في جميع اقطار الارض في الشام ومصر واوروبا واميركا وآسيا
وافريقيا ووعدت بدفع مليون فرنك جائزة للذي يجد « الخواجة
متى حاروم » ويدلنا عليه ، وها قد مرّ على هذا المنشور سنوات
والوف من الناس يبحثون عبثاً طمعاً في الجائزة . فاعتقدي يا
حبيبتي بعد الآن ان اباك الكريم قد توفي الى رحمة الله وسبقنا
الى الآخرة ، لانه من المحال ان يكون حياً ولا نعثر عليه
بعد كل هذا التفتيش . ولا تنسي اننا كلنا ضيوف في هذه
الارض ، وان وطننا الحقيقي فوق . فتعزي ولا تحزني حزن
الذين لا رجاء لهم .

فاطرت اميليا بوهة تبكي بسكوت ، ثم قالت : ليس بكائي
للموت بل بكائي للغلطة العظيمة التي ارتكبتها ، وهذا ما يعذبني
ويضغط على نفسي وضميري . فاني تركت أبي في اشد الاوقات
عليه حين تخلت عنه الارض والسماء وابتعد عنه الاقربون
والابعدون . فكنت اقسام عليه واجهدهم لجميله لانني كنت
أقربهم اليه . وانني اخشى ان يكون قد مات في الشيخوخة
والضعف والفقر والوحدة وهو يلعنني .

فهنا رام كلدن ان يصرف فكر زوجته عن هذه التذكارات
المحزنة ، فقال ضاحكاً : اما انا فلا اعتبر سفرك من بلادك الى

اميركا غلطة يا اميليا ، لانني لولا هذا السفر لما التقيت بك
واقتنصتك . فانا اشكر لك الحدة التي حملتك على السفر .
ولا يزال يحلو لي ان اذكر معك اليوم الذي لقيتك فيه في
واشنطن . فقالت اميليا مبتسمة : دعنا من هذه الذكرى .
فقال : لا بل دعيني اتكلم بحياتك . فقد خرجت في ذلك اليوم
لأعمل « نهار كلدن » ومعى المستر كرنيجي كاتم اسراري .
فبعد ان ذهب نصف ما في جيوبي من الاوراق وصلت الى
الساحة القريبة من دار الحكومة فوجدتك سائرة في طريقك
مع احدى بنات جنسك ، فمددت يدي اليك بورقة قيمتها خمسمائة
دولار وقد فعلت في عيناك ما لا يفعله السحر . ذلك انكم
انتم الشرقيين لا تعرفون مبلغ التأثير الذي يؤثره فينا الجمال
الشرقي الخاص بكم . فكان جوابك انك رفعت يدك ولطمتني
على وجهي لكمة ارتني « نجوم الظهر » كما يقولون في لغتك ،
لانك ظننت انني رجل بذيء يقصد اغواءك بماله . فكبر قدرك
منذ ذلك الحين في عيني واريتني بهذا الفعل جمالك الادبي بعد
ان رأيت في وجهك جمالك الانثوي . وانت تعرفين التهمة .
فبالله اخبريني كيف اجتأأت على لطم رجل قوي مثلي قادر
على سحقك بقبضة واحدة ؟

فقالت اميليا : تعلمت ذلك من معلمتي في المدرسة ، فانها قصت



علينا يوماً ان احد الوقحين عرض عليها في سوق نيويورك مالا
فجاوبته بلطمة على وجهه فقهر كاهراً المطرود . فقال كلدن
حينئذٍ رافعاً رأسه افتخاراً : هل من ينكر بعد هذا فضل
مدارسنا في الشرق ؟

وقد سرَّ المستر كلدن من اجوبة زوجته لانه قدر بذلك
على صرف افكارها عن موضوعها الاول ، ولم يعد يسألها لماذا
كانت تكره الإقامة في بيروت والسفر الى صور وصيدا .

الفلسفة والمكاري بطرس

وبينما كان كلدن وزوجته صاعدين مع حاشيتيهما الى الحدث
كان سليم وكليم يتأهبان للسفر منها الى الارز ، لأن اصدقاءهما
في اهدن سافروا الى الارز وبعثوا يستعجلونهما . فقال كلیم
لرفيقه : سنتعرف بالمستر كلدن في الأرز فهل بنا نساغر لان
الاقامة هناك تحت ظل الأرز العظيم افضل من الاقامة هنا .

ولما دخل كلیم وسليم لتوديع صديقيهما امين ظهر الحزن في
وجهه . وكان قد ازداد ضعفاً وهزالاً . فودعهما وهو يقول :
اظن هذا الوداع هو الوداع الأخير . فقال كلیم متأثراً : لم نعهد
قلبك ضعيفاً ايها الصديق ، فعلام الخوف وانت متقدم الى الصحة
ان شاء الله؟ فهزأ امين رأسه وقال : هل تظن انني اخاف الموت؟
كلا! فان الموت راحة لمن كان مثلي . وانما اتأسف لامر واحد.
قال ذلك وانحدرت الدموع من عينيه .

فترقق الدمع في عيني سليم وكلیم وقال كلیم : ما هو هذا
الشيء ؟ فقال امين : هو ان اخرج من هذه الحياة قبل ان
انتقم من الظالمين .

ففهم كلهم مراد أمين في الحال وأجابه : كن على ثقة أيها
الصديق أنك ستشفى وتنتقم لنفسك . فان الله عادل من ان
يسحق المظلومين ويرفع الظالمين . واذا افترضنا المحال وقويت
عليك علمك لعدم مداراتك نفسك فاعلم ان الظالم سيسقط من
نفسه لان كل ما يُبنى على الظلم فهو مهدوم . والبغى مرتعه
وخيم .

فهرّ أمين رأسه وقال : وا اسفاه انني لا أرى هذا الأمر
واضحاً كل الوضوح في الحوادث البشرية . ثم انطرح على
فراشه يفكر والدموع ملء عينيه . وكان منظره حينئذ كمنظر
جندي سقط قتيلاً في ساحة العراق في آخر النهار .

اما سليم وكلهم فانهما ركبا بغلين قويين وانحدرا من الحدث
قاصدين وادي حصرون . وكانا هذه المرة ساكتين يفكران
بكلام الصديق أمين . فسأل سليم رفيقه : هل من مانع يمنعك
من اطلاعي على مراد أمين بكلامه الأخير ؟ فقال كلهم : كلا
والكن ليست هذه القصة جديدة في الأرض ، فانها قصة كل
المغلوبين والمقهورين والمظلومين فيها . انها قصة العراق الأبدي
الذي بين الناس وهو ما يسمونه تنازع البقاء ، فان أميناً كان
من موظفي الحكومة وكان محبوباً مسموع الكلمة لذكائه وعقله ،
وكان على وشك الافتران بفتاة يحبها وهي ذات دودة طائلة .



وكان احد تجاركم في بيروت يطمع في دوطتها ليصلح بها احوال
محله التجاري المتضعع . فوشى لدى الحكومة سرّاً بان أميناً
يعاون حزب تركيا الفتاة ويراسله ، فعزل وسجن وأهين ولم
يطلق سراحه حتى ظهر مرضه . اما الواشي فلم يتمكن من
الاقتران بخطيبته لانها تركت الاثنين معاً .

فقال سليم : ومن هو ذلك الواشي ؟ فقال كلیم : هو
الخواجه لوقا طمعون . فقال سليم : هذا تاجر أصله من صيدا لا
من بيروت وقد سمعت الناس يذمونه كثيراً لسوء اخلاقه .

وكان مع الرفيقين في هذه المرة مكارٍ من الحدث وهو
شاب قوي البنية ربعة الجسم يدعى بطرس . فسأل رفيقيه :
هل تمرون على الديمان في طريقكم يا خواجات ؟ فسأله كلیم : هل
اليوم غبطة البطريك في مصيفه هذا ؟ فاجاب بطرس : كلا بل
هو غائب . فقال كلیم : فلنمض اذاً في سبيلنا .

وكانت يومئذ الدار البطريكية في الديمان داراً يدل
ظاهرها على البساطة والقدم . اما اليوم فقد اقيم هنالك قصر
فخيم على الطراز الحديث للسلطة البطريكية .

وكان سليمًا و كلیمًا راما طرد الافكار السوداء التي كانت
تتردد على ذهنيهما من كلام أمين ووداعه ، فقال الثاني للاول :
لقد سلاّنا المكاري جرجس قليلاً من قلحات الى الحدث فهاذا

يسلينا بطرس ؟ فقال سليم : اسمع . ثم التفت الى بطرس وقال له : يا بطرس لماذا تناديننا خواجهات ؟ فاجاب بطرس بوجل : اذا كنتم بكوات يا معلمي فارجو السماح . فقال سليم : ولا بكوات ، بل نحن بشر مثلك ، فاذا كنا خواجهات فانت خواجهه ايضاً لان كل البشر اخوان . فتمهد بطرس وقال : هذا في القول يا معلمي فقط ، وما ابعد القول من الفعل ، الا ترى انكم راكبون واني ماش ، وهذا اول فرق بيننا . فضحك سليم وكلم وقال سليم لرفيقه : حقاً ان مكارينا نبيه . ثم التفت اليه وقال : ما عنيت هذا بقولي ، وانما عنيت اننا واياك متساوون لدى الحكومة ولدى الله وان كان البشر يعطون بعضنا امتيازات دون بعض . فانت لست بمديون لي بشيء سوى ما تقبض اجرة مني ، وانا كذلك ، فالآن انا راكب وانت ماش باختيارك وطوعك حسب الاتفاق الذي عقدناه على ان اعطيك اجرة تعبك ، فلست اذاً امتاز عنك بشيء سوى انني تعبت وحصلت مالاً اقدر به على ان اريح نفسي من المشي ، وبئست هذه الراحة لاني افضل ان اتعب مثلك واكون بصحة كصحتك .

وكان سليم يتكلم وبتارس يظهر الدهشة والاستغراب ، ثم اجاب : حقاً قلت الصواب يا معلمي . فصاح سليم : رجعنا الى



« معلمي » ؟ اما انا بشر مثلك ؟ بل انت الآن معلمي لانك اقوى مني ونفعتني ببغائك اكثر مما نفعتك . فضحك بطرس وقال : حتماً قلت الصواب فيما يختص بالاجرة والركوب . ولكن قولك يا معلمي اننا كلنا متساوون لدى الحكومة والله فيه نظر ، فاني اصدق كل شيء الا هذا ، اما المساواة عند الله فلنضعها جانباً ، لاننا متى وصلنا الى هناك نبقى نتكلم عنها ، واما المساواة لدى الحكومة فاحب ان تدخل على سعادة القائمقام حين يصيف في الحدث وترى الناس كيف يجلسون في حضرته وبعد ذلك تبقى تتكلم عن المساواة لدى الحكومة .

فقال سليم : هذا ليس ببرهان لان الناس كثيراً ما يسيئون في تنفيذ الشرائع فلا تلتصق بالاساءة بالشرائع نفسها بل بمنفذيها . فقال كلیم لرفيقه : لا بأس بهذا الحديث اذا كان لا يحدث منه ضرر ، ولكنني كنت اتمنى ان لا تكون هذه التجربة فينا لئلا نكون اول من يجني ثمارها .

ثم استمر الرفاق الثلاثة سائرين فقطعوا الديمان وهبطوا في وادي حصرون . وكان بطرس في اثناء ذلك يفكر في كلام سليم وهو يقول في نفسه : حقاً ما اجهلنا نحن سكان القرى . صحيح ، ما الفرق بيننا وبين الحواجات والبكوات والحكام ؟ نحن نأكل كما يأكلون ونشرب كما يشربون ونمشي كما يمشون

ونفكر كما يفكرون وندفع ما علينا للحكومة كما يدفعون ،
فلماذا يكون كل الاكرام لهم وعلينا الخدمة والطاعة والذل ؟
والله لما اعود الى القرية ويقول لي البك : اعمل هذا او لا تعمل
هذا ، فكل جوابي يكون انني ادير له ظهري واهز رأسي وامشي
في سبيلي .

وفي هذا الحين كان الرفاق الثلاثة قد قطعوا حصرون
ووصلوا الى نبع ماء على الطريق ماؤه كالفضة الجارية صفاء
والثلج الذائب برودة . فصاح سليم : يا بطرس ناولنا ماء
لنشرب . وكان بطرس يفكر كما تقدم في عباراته الأخيرة .
فكان كل جوابه لسليم ان هز رأسه وادار ظهره وسار في
سبيله .

فقبّحه كلّم حتى كاد يقع عن ظهر البغل وقال لسليم : تفضل
يا صاحبنا وانظر نتيجة مبادئك .

اما سليم فانه غضب وصاح ببطرس : قلت لك ناولني ماء
لأشرب . فاجاب بطرس : ولماذا لا تشرب انت ؟ فقال : لان
كأس الماء بعيدة ولا أستطيع الدنو من النبع وأنا راكب .
فقال بطرس : هذا امر سهل ، فانزل واشرب . فقال سليم : انا
لا امزح وأسألك للمرة الأخيرة اتناولني الماء ام لا ؟ فقال
بطرس : وانا لا امزح لان مناوالتك الماء لم تدخل في الاتفاق
الذي ذكرته ، فاذا شئت الشرب فانزل واشرب .

وكان كلیم في اثناء ذلك لا يزال يضحك ، فرغبة في انتهاء
هذه المسألة قال لبطرس : طيب هذا الأمر لم يدخل في الاتفاق
كما ذكرت ، فناولنا الماء ونحن في مقابلة ذلك نسقيك خمسينية
من عرق بشرّي .

فضحك بطرس حينئذ وقال : الآن تم الاتفاق . ثم دنا
وناولهما الماء .

وبعد الشرب قال كلیم لرفيقه وهما سائران : ارأيت نتيجة
الحرية والاستقلال والمساواة والاخاء اذا بُذرت بذورها قبل
اوانها بين طبقات لم تستعد لها ؟

فاجاب سليم : ولكن مع غضبي من صنعه افضل هذه الحرية
التي هي في غير محلها على العبودية والذل والموت المعنوي .
ولولا انني كنت شديد الظمّ وغلبني غضبي لما لمته ببل كنت
اقول له : يرافو يا خواجه بطرس فان امثولتنا اثرت فيك في
ساعة واحدة .

فقال كلیم : ولكن هنا مذهبان واحد معك وواحد عليك .
فقال سليم : ولكن مذهبي هو المذهب الصحيح الابدی الذي
انتصر مع الثورة الفرنسية . هو مذهب الحياة والنور والحرية
للطبقات الضعيفة التي تئن تحت نير الطبقات القوية .

ارز لبنان

ثم جدّ الرفاق الثلاثة في السير فبلغوا بشري قابتاع منها بطرس « خمسينية عرق » على حساب رفيقيه حسب الوعد، ثم تسلقوا منها العقبة المؤدية الى جبل الارز العظيم .

ولما قطعوا تلك العقبات الطويلة التي يلي بعضها بعضاً وصعدوا الى مساواة الحرج بان لهم الارز من بعيد ، فأشرق وجهه سليم وكليم ابتهاجاً وسروراً وصارا ينظران الى الأرض التي تطأها حوافر بغليهما نظرها الى أشياء مقدسة .

وكان وصول سليم وكليم الى الارز عند غروب الشمس . وكانت الطيور تتوافد من جميع تلك الجهات الجرداء الى أشجار الارز لتبيت فيها . وكانت الغربان أشدها ظهوراً فكان يُسمع صوتها الناعب من حين الى حين كأنه صوت الزمان ينعى الأجيال والقرون الماضية .

والارز عبارة عن حرج متسع عظيم قائم على آكام متعددة يحيط به نصف دائرة من الجبال الشامخة وأشجاره شديدة الاشتباك حتى ان الشمس تكاد لا تعرف ارضه . وفي هذه



الاشجار ما هو صغير وفيها ما هو ضخم كبير سامق الى السماء
ويكاد عشرة رجال لا يحيطون بجذعه اذا مدوا اذرعهم حوله .
وهم يقولون ان هذه الاشجار الضخمة الهائلة ترتقي الى زمن
الملك سليمان الذي بنى منها هيكله المشهور في اورشليم وزمن
افسس التي بنيت من خشبها بعض اماكنها اليونانية القديمة .
ولكن هذا زعم لا يؤيده دليل بل ان علم النبات ينقضه . الا
انه من المحتمل ان اولئك المتقدمين قطعوا اخشاباً من هذا
الحرج وقامت الاشجار الحاضرة على آثار الأشجار المقطوعة او
أشجار تلتها .

والارز عبارة عن جذع سامخ يتوارى عنك رأسه في الفضاء
اعلوه . ومن هذا الجذع تتفرع أغصان بخط افقي . ويبلغ طول
هذه الاغصان احياناً عدة امتار . وهي تحمل اكوازاً خضراء
حرسفية كروؤوس الصنوبر بعضها ذكور وبعضها اناث ثم تنقلب
عند البلوغ فتصير حمراء ، ولها رائحة طيبة تروح اليها النفس
فتعطر بطيبها وينشر اشجارها هواء الارز النقي . ويكون في
عقبها بورتان لحفظ نوعها متى بلغت وسقطت على الأرض .
والارز عدة فصائل وانواع ، وهو ينمو في جبال سوريا وجبل
حملايا في الهند وجبل الاطلس في افريقية وجبل طورس في
آسيا وفي غيرها من الجبال ، ولكن أرز لبنان أشهرها كلها .

والمقرر أن القطع في الحرج ممنوع اليوم قطعياً بأمر من حكومة الجبل حتى أن الزائر لا يستطيع أن يقصف غصناً ليأخذه تذكراً من الأرض إلا في السرّ أو بمبلغ يدفعه إلى الحارس . ولقد أحسنت الحكومة في هذا المنع حفظاً لهذا الأثر الجليل . ومما يُذكر لها بالشكر أيضاً أنها سوّرت الحرج كله بسورٍ من الحجارة والطين لمنع الدواب من الدخول إليه ، ولكنها مع ذلك تدخله . وهذا السور صار اليوم متهدماً وهو لانخفاضه يتسلقه الولد بسهولة لأنه لا يعلو عن متر واحد .

ومن الأسف أن الحكومة لا تزرع في هذا الحرج الكبير أرزاً جديداً ليقوم مقام الارز القديم متى شاخ وانقرض في القرون القادمة . والأشجار التي تنبت من تلقاء نفسها في الحرج قليلة جداً . ولكن في جهات أخرى فوق الحدث في وادي إلى الجنوب وفي أماكن أخرى في أعالي لبنان أحراج واسعة مؤلفة من أرز صغير آخذ في النمو ، فلا ريب أنه سيقوم مقام الارز الكبير في القرون القادمة ، وربما وقف سائح بعد ٥٠٠ أو ٨٠٠ سنة في الحرج الذي وراء الحدث في الوادي وصار يتساءل ويستنطق التوراة وكتب التاريخ ليعلم هل قطع سليمان الخشب لهيكله من ذلك الحرج أم من سواه . وسواء قطع سليمان الخشب من الحرج الكبير أو من



سواه فان السياح الافرنج من أمراء وعظماء وعلماء يتقاطرون
على هذا الحرج ويزورونه باحترام عظيم . والغريب انهم يقدون
لهذا الغرض من اقصى الاقطار مع ان جيران الارز في الشام
ومصر لا يعرفونه . ورجال الدين منهم يصلّون هناك بخشوع
زائد ويعتبرون اجر الصلاة فيه مضاعفاً . وجميعهم ينقشون
اسماءهم او بعض حروفها على جذوع اشجاره فقطوا بها كثيراً
منها حتى صدر الامر بمنع ذلك حفظاً للأشجار . والزائر يشاهد
احداها مكشوفة القشرة بفأس او سكين على قدر شبر او
أكثر وفيها اسم منقوش ، فلا نعلم كيف ان ذلك القاسي البارد
ناقش هذا الاسم طاوخته يده على طعن تلك الارزة المقدسة
الجميلة هذه الطعنة في صدرها .



ليلة باردة تحت اشجاره

بلا فراش ولا غطاء

فدخل سليم وكليم الى دائرة الارز مشياً على الاقدام وتبعهما بطرس مع بغليه فربطهما وراء غرفة صغيرة مبنية على انفراد بازاء الكنيسة القديمة القائمة في شمالي الارز .

وقد افتقد سليم وكليم اصحابهما الذين بعثوا في طلبهما فلم يجدا لهم اثرأ فاستغربا ذلك . وكان في الغرفة التي اشرنا اليها عائلة مؤلفة من امرأتين وبضعة اولاد ، ولم يكن في الارز غيرهم . فسألاها فاجابتهما ان قوماً كانوا نازلين في الارز قوضوا خيامهم في ذلك الصباح وساروا في جهة الجنوب ليقيموا هناك يوماً او يومين .

فاستاء الرفيقان من ذلك لانهما لم يحضرا غطاءً ولا فراشاً . ولكنهما تذكرتا الكنيسة لان المسافرين ينامون فيها ؛ فقبل لهما ان امين مفاتيحها غائب ولا يعود الا في اليوم التالي . وكان قد امسى المساء وهبط الظلام وبرد الهواء برداً قارساً . فصار كلهم وسليم يضحكان من نفسيهما لأنهما سيضطران الى النوم



على أديم الأرض تحت السماء. ولكن جوعهما ذكرهما بالطعام قبل الرقاد. فاخترارا أرزة عظيمة قائمة بجانب الغرفة المذكورة الى الشمال فبسطا تحت جذعها بساطاً كان معهما وتناولوا طعامهما من الخرج وجلسا. فجلس بطرس بجانبهما يأكل معهما. وكانت السيدتان صاحبتى ذوق فأحضرت احدهما قشاً وخطباً وأشعلته بجانب سليم وكليم لطرد البرد والظلام. اما بطرس ففي اثناء ذلك كان يقول للسيدتين وفمه ممتلئ بالطعام: « عافاكم عافاكم » كأن السيدة صنعت ذلك اكراماً له.

ولما حان وقت الرقاد بسط الرفيقتان بساطهما بجانب جذع الأروزة ليتقيا به الريح الباردة التي كانت تهب من المشرق واردة من قمم رأس القضيبي وفم الميزاب، ووضع كل واحد منهما احد كيسى الخرج تحت رأسه وأدار ظهره لرفيقه وتغطيا بغطاء خفيف احضراه معهما اتفاقاً. ويظهر ان غربان الارز كانت تنظر اليهما حينئذ من أعلى الأشجار لأن اثنين منها أخذتا ينهقان، فخيّل للرفيقتين ان صوتهما عبارة عن قهقهة وضحك من نومهما على هذا الفراش.

ولما درت السيدتان ان الرفيقتين سينامان تلك « النومة المكربة » خرجتا اليهما ودعتاهما الى النوم في الغرفة خوفاً عليهما من البرد. فامتنع سليم وكليم من ذلك تأديباً اذ لم يكن

مع السيدتين رجال ، ولكن صاحبنا بطرس دباً حينئذ في
جسمه برد شديد ، وصار لا يطيق النوم في الحلاء ، فقال : أنا
أقبل دعوتكما بشكر . ثم حمل غطاءه واتجه نحو الغرفة ،
فصاح به سليم وكليم : يا بطرس كيف تترك بغليك خارجاً ؟ ألا
تخاف عليهما من ذئب أو ضبع ؟ فأجاب : لا ، فانكما انما علي
مقربة منهما .

فقال سليم حينئذ : كثير الله خيرك ! أما كليم فانه كان
يقهقه ويقول لرفيقه : ضبط اذا كنت تقدر علي مبادئ
الديموقراطية التي تدعو اليها .

وهكذا نام بطرس في الغرفة مع السيدتين وبقي سليم
وكليم في البرد والظلام يحرسان نفسيهما والبغلين .
وفي الحقيقة ان الرفيقين لم يناما تلك الليلة نوماً هنيئاً ،
فكانا كالأسد ينامان بعين ويسهران بعين خوفاً من الطوارىء ،
وكان ذلك السكون التام في هدوء الليل وسط جبال شاهقة
واحراج متسعة وجهات مقفرة مما يجعل نفس أقوى الاقوياء في
حذر دائم سواء كان ذلك من اللصوص او الوحوش .

ويظهر ان خوف سليم وكليم كان في محله ، فانه لم تدخل
الساعة الثالثة بعد نصف الليل حتى انتبه سليم على صوت فرقعة ،
فرفع رأسه قليلاً فلم ير شيئاً ولكنه سمع صوتاً كصوت كلب

يقضم عظمة ، ثم تلا ذلك صوت البغلين يرفسان ويجفلان وقد
قطعا قيادهما وأخذا يهيمان بين اشجار الارز . فحينئذ انتبه
بطرس وخرج من الغرفة وصاح : ذئب ذئب ! فهب الرفيقان
مدعورين اذ لم يكن في يدهما سلاح حتى ولا سكين تجرح ،
ولكن من حسن الحظ كان لدى السيدتين بندقيتان لرجلهما
الذي كان قد سافر الى بشري في ذلك اليوم ، فتسلح سليم
وكليم بالبندقيتين ، وبذلك عادت اليهما قوة الابطال .

ولما لم يُرَ للذئب اثر قضى الجماعة بقية الليل في السهر خوفاً
من غدره ، فلم يلبث الصباح ان ذر قرنه وهبت نسمانه ابرد
من الثلج ، وانتبهت الطيور في أعالي الأشجار تستقبل الفجر
بأصواتها المختلفة ، فقال سليم لرفيقه : لا أعلم كيف نطلع علينا
شمس الغد ، فانا تعبنا وسهرنا ونمنا في البرد . ولكن لما اصبح
الصباح وتعارفت الوجوه هب سليم وكليم يمشيان بقوة ونشاط
فوق العادة ، فاستغربا ذلك ، وعجبا من جودة ذلك الهواء
النقي الخارج من يد الله كما صنعه الله يحدد القوى ويملا النفس
نشاطاً وارتياحاً .

وبعد ان غسل الرفيقان وجهيهما بماءٍ يُستقى من نبع قريب
من الارز قال سليم : ان هذا الذئب قد أخافنا في الليل وأنا
من المغرمين بالصيد ، فهلم بنا نأخذ البندقيتين وشيئاً من

١
الرصاص ونصعد الى الجبال التي فوقنا فأننا نصطاد فيها ونتفرج
بمشاهدتها ونروض اجسامنا باجتيازها ونتغذى من لبن المواشي
التي ترعى فيها ، واذا وجدنا الذئب في طريقنا فالويل له !

فطاوعه كلیم على ذلك فأخذنا البندقيتين وسارا وقد تركا
بطرس في الارز في احسن رفقة على ان يعودا في المساء ، وكان
اتجاههما الى جهة الشرق نحو رأس القضيب وراء الارز وهو
جبل مشرف عليه وعلوه نحو تسعة آلاف متر عن سطح البحر ،
وهو مقابل لفم الميزاب الذي يعلوه الف قدم .



الوحش! الوحش! الوحش!

ملك رأس القضيبي وفم الميزاب

وقطع الرفيقان المسافة بين الأرض وسفح الجبل يصطادان
ما يجدانه فأصابا غرابين وثعلباً ، وبينما كانا واقفين على أحد
الرعاة يحلب لهما لبناً اذا بالراعي صفر صفيراً شديداً ، فهبت
كلابه كالبرق الحاطف ، ثم اشار الراعي الى سفح الجبل وقال :
أنظرتما ذلك الذئب ؟

فأبصر الرفيقان حينئذ شبحاً بعيداً هيئته كهيئة الكلب يشب
من صخرة الى صخرة في سفح الجبل .

فشرب سليم وكليم لبن الشاة على عجل ثم اتجها نحو الذئب .
وكانت الشمس قد ظهرت حينئذ من وراء تلك الجبال
العالية فصار الجبل يدخن من تأثير حرارتها ، فضحك كلیم وقال :
اصعد فهذا طور سيناء يعممه الضباب . فقال سليم : لا تشغلنا
بالمزاح الآن والا فاتنا الذئب . ويظهر ان الذئب قد رآهما
لأنه أخذ يعدو عدواً سريعاً موعلاً في الجبل ، فجاء سليم
وكليم في طلبه وهو تارة يظهر وطوراً يغيب . واستمرا على

ذلك نحو نصف ساعة حتى كَلَّت قواهما ، وكان الذئب يتلفت
ثم يجد في العدو فيخيل لهما حين لفته انه يضحك منهما ويقول
لهما : اراه غباري ثم قال له الحق .

ولكن هذا الطراد لم يستمر وقتاً طويلاً ، فان الضباب
كان قد تكاثف على الجبال المجاورة وصارت الريح تسفيه نحو
سليم وكايم ، فلم يمض ربع ساعة حتى أقبل عليهما مسرعاً ،
فقال سليم : هذه مصيبة ما كانت في الحسبان . وفي الحقيقة انه
مصاب ذو شأن ، فان الضباب غطى الجبل وأحاط بهما من كل
جانب فلم يعودا يعرفان الطريق ، وكانا قد قطعا ثلثي الجبل
والذئب امامهما ولا تخلو تلك الأماكن المقفرة من غيره من
الوحوش ، فصارا يسيران رجوعاً على غير هدًى راضين من
الغنيمة بالاياب سالمين من مفاجأة الوحوش والذئاب لانهما كانا
لا ينظران شيئاً أبعد من عشرين قدماً ، فأشبهها في هذه الحالة
رجلين مكثوفين ملقيين لسباع البر لأن سلاحهما وأيديهما التي
كانا يعتمدان عليها لم تعد تجديهما نفعاً ، وبذلك صاروا ضعيفين
كطفلين .

وكانا من حين الى حين يطلقان بندقيتيهما في الفضاء ارهاباً
وابعاداً للوحوش عنهما .

وبينما هما سائران كعميان يتلمسون الطريق وقد تكاثف

الضباب فيها حتى لم يعد يرى أحدهما موضع قدمه إذ هوت
أقدامهما في وادٍ صغير فسقطا وانطلقت البندقيتان في سقوطهما،
ولولا رحمة الله لقتلتاهما، ولكنهما لم يكادا ينهضان مترضين حتى
سمعا طلقاً نارياً قريباً منهما في بطن الوادي وصائحاً يصيح
بصوت أجش : «الوحش الوحش الوحش !»

فانقطعت حينئذ أنفاسهما وجمدا في مكانهما يتوقعان
امراً جديداً .

فلم يلبث أن لاح لهما من خلال الضباب المتكاثف على
قيد ذراعين منهما صورة هائلة .

فان وحشاً هائل الجثة منتصباً على قدميه مغطى جسمه
بالشعر وله وجه كوجوه البشر حوله شعر كثيف طويل ولحية
مخيفة كان واقفاً امامهما وفقة الأسد ينتظر فريسته .

فكاد دمهما حينئذٍ يجمد في عروقهما خوفاً وجزعاً ، ومدَّ
سليم يده الى بندقيته ولكنه ذكر انها كانت فارغة .

اما ذلك الشخص الهائل فكأنه فهم فكر سليم فرفع
بندقيته في الفضاء كتهديد وانذار وصاح بصوته الأجش :
الوحش الوحش الوحش !

فعجب حينئذٍ سليم وكليم من ان ذلك المخلوق الغريب
قادر على النطق كالإنسان ، فرأيا وجوب المجاملة ، فاخفيا
جزعهما وابتما وقال كلیم : العوافي يا عم .

فأجاب ذلك المخلوق الهائل : الله يعافيك . ماذا تصنعون هنا ؟
فتاب الرشد حينئذ الى سليم وكليم ونحركات نفسيهما للدخول
في الحديث معه ، فأجابا : نحن نتصيد وقد فاجأنا الضباب وأدر كنا
الجوع ، فهل معك طعام ؟

فقال الرجل : عندي طعام : ولكن لماذا دخلتم الى هنا من
غير اذن مني ؟

فقال سليم : كنا قادمين لاستئذانك فالحمد لله اننا لقيناك هنا .
فقال الرجل : فاياكم مرة اخرى ان تدخلوا هذا المكان
من غير اذني !

فأجاب سليم وكليم : أمرك يا عم .
وفي هذا الحين هبت ريح شديدة من جهة الشرق فكذبت
الضباب عن الجبل ودفعته الى جهة الارز فانجلي المكان للانظار
فوجد سليم وكليم نفسيهما في وادٍ صغير واسع الاديم وعليه
في جانبه العالي كوخ صغير مستور عن الانظار لانه على
مساواة الجبل .

فمشى الرجل الهائل نحو الكوخ قائلاً : تعالوا لا طعمكم .
فخيل لسليم انه قال : تعالوا لا كلكم ، لأنه خاف عاقبة
السير معه الى حيث يقصد ، وذكر في تلك اللحظة حكايات
الغول والجن التي سمعها في صغره من العجائز والشيوخ وكيف



انها تأكل الناس ، فقال لرفيقه مازحاً في ابان الخطر اظهاراً للقوة :
ما جئنا نسمن أجسامنا في الأرض لكي نجعلها طعاماً لوحش
كهذا الوحش .

وكان الرجل الهائل قد بلغ كوخه في طرف الوادي ودخله
ثم خرج ومعه بيضتان وكسرتا خبز فوضعهما على حجرين بازاء
الكوخ واوما الى الرفيقين قائلاً : تعالوا كلوا .

وكان سليم وكليم لا يزالان جامدين في مكانهما يتشاغلان
باصلاح ملابسهما ، فلم يريا مناصاً من اجابة الرجل الى دعوته ،
فتقدما نحو الحجرين بجانب الكوخ وجلسا ، أما الرجل فانه
جلس بازائهما بعيداً عنهما نحو ثلاثة أمتار .

فحقق اليه الرفيقان هذه المرة جيداً فذهب عنهما حينئذ شيء
من الجزع والخوف ، فان ذلك الرجل كان انساناً لا يختلف
عن باقي البشر الا بكونه يلبس رداءً مصنوعاً من جلود الغنم
الى ركبتيه وليس على جسمه لباس غيره ، وكان وجهه محاطاً
بشعر كثيف طويل شاب اكثره ولكن في عينيه وملامحه
دلائل الهدوء والتأمل والانكسار ، وما هذه بعلامات الوحوش
او قطاع السبيل ، فسكن حينئذ بال الرفيقين وقال سليم
لكليم : هلم ندخل معه في الحديث فاني ارى لهذا الرجل
شأناً يذكر .

فالتفت اليه كلیم وقال : هل مضى عليك وقت طويل في هذا المكان يا عم ؟

وكان الرجل حينئذ مطرقاً الى الأرض يتأمل ويفكر بما قام في نفسه لدى مشاهدته هؤلاء البشر القادمين من المدن . فرفع رأسه لسؤال كلیم وأدار فيه عينين متحمستين وأجاب : أقيم هنا منذ مجيئي الى هنا . فقال سليم : ومتى جئت الى هنا ؟ فتنهد الرجل وأجاب : من حين تكوين العالم .

فنظر سليم الى رفيقه بدهشة ، فقال الرجل : ما لك لا تصدقني ؟ قلت لك انني هنا من حين تكوين العالم ، فاذا كنت نبيها فافهم وإلا فاسكت وأرحني .

فقال كلیم : عفواً يا عم واسمح لي ان اكلمك بحرية ، اننا لما نظرناك اول مرة دهشنا لاقامتك منفرداً في هذا المكان ، اما الآن فيظهر لنا من كلامك انك في شأن عظيم ، فهل تتكرم علينا وتفيدنا شيئاً ؟

فلما سمع الشيخ هذا الكلام اللين اطرق الى الارض بانكسار وصار يفكر ، ثم رفع رأسه وقال : انني مسرور من لطفك ولين كلامك ، وهذه اول مرة في حياتي ارى فيها رجلاً عاقلاً ، ولكن اعذرني فان سري هائل .

فازداد سليم وكلیم رغبة في الوقوف على خبر هذا الرجل الغريب فقال سليم : نحن أولادك يا عم فلا تحذر منا .

فلما سمع الشيخ كلمة «اولادك» اجفل ونهض كأن أفعى
لسعته، وبدأ الغضب في وجهه فقال: لا، لا، ليس لي اولاد ولا
اريد ان يكون لي اولاد .

فقال كلیم لرفيقه : لقد هدمت ما بيننا . ثم التفت الى
الشيخ وقال : الحق اقله لك يا عم انني لا استطيع كتمان ما
في نفسي ، فلا تغضب علينا ودعنا نستفيد منك ، انني أرى في
امرك شيئاً مدهشاً ويخيل لي انني اقرأه في عينيك ، فاستحلفك
باسم الله ان لا تحرمنا من الفائدة .

فلما فاه كلیم بكلمة «الله» حنى الشيخ عنقه وجثا على الأرض
وعفر خده بالتراب وهو مطبق العينين .

فقال كلیم لرفيقه همساً : لقد قبضنا على شيء . ثم قال
للشيخ : فالله سبحانه وتعالى قد هيا لنا اليوم فرصة لقياك ،
ولا ريب ان ذلك بتدبير منه وعناية خصوصية ، فهل لك ان
تطلعنا على سبب اقامتك هنا انفاذاً لارادة الله ؟

فرفع الشيخ رأسه واستوى جالساً ، ثم قال : نعم ، ربما
كان لله ارادة بهذا الأمر ، ولا اخفي عنكم انني في الليالي الاخيرة
سمعت مراراً صائحاً يصيح : لقد انتهى ، لقد انتهى .

اجل يا اخوان ، لقد انتهى ملك الشر والظلم والكذب
والرياء والاعتداء في العالم الفاسد . ان الفأس قد وضعت على

اصل الشجرة ، فكل شجرة لا تثمر ثراً صالحاً تُقطع وتلقى في النار .

انظروا هذه المملكة الواسعة التي أمامنا ، هذه هي العالم الحقيقي ، ولذلك قلت لكم اني ههنا منذ تكوين العالم ، فأنا الآن هنا اكون العالم الحقيقي الذي يسود فيه الخير والصلاح . وقد مرت عليّ سنوات عديدة اهذبّه واودّبّه ، فتم لي ذلك بمهونة الله تعالى ، واذا فتشتم هذه الاقطار كلها لا تجدون فيها بين سكانها أثراً لفظائع العالم وشروره الهائلة .

فقال سليم همساً : نعم لا نجد فيه شيئاً حتى ولا سكاناً . فأجاب كلیم همساً أيضاً : يظهر ان صاحبنا مجنون . ثم التفت كلیم الى الشيخ وقال : انني اعجب يا عم كيف استطعت تهذيب هذه المملكة مع ان الملوك عجزوا حتى الآن عن تهذيب بمالكهم .

فصاح الشيخ حينئذ بغضب : ويل للملوك ولترتجف عروشهم من غضب الله ، ولو كان اصغر الملوك يصنع بمملكته ما صنّعه بمملكتي لما بقي فيها شرّ ، فاني سألت نفسي حين تسلمت هذه المملكة : ما هو اصل الشر ؟ فرأيت ان اصله الوحش الذي في الانسان ، فانكم تعلمون ان في الانسان شيتين : الوحش والانسان ، فالوحش يطلب كل شيء لنفسه ولو مات غيره ، والانسان يشفق



على نفسه وعلى غيره أيضاً . فقلت : ان رأس واجباتي كملك
هذه الديار قتل الوحش لاستئصال الشر ، فاقنيت هذه البندقية
وقد اشتريتها بجلود عشرين ذئباً وأسدتين وخمسين ثعلباً وعشر
ضباع ، و كنت اجلس على هذه الرابية وكلما رأيت احداً
يعتدي على غيره ، اي كلما رأيت الوحش يطمع في ما هو لغيره ،
قتله برصاصة واحدة ، ففي بدء الامر قتلت مئات ثم عشرات ،
اما الآن فقد تناقص الشر وقلما اقتل في الشهر واحداً .

فارتعدت فرائص سليم و كلیم لهذا الكلام وتحققا جنون
ذلك الشيخ التعيس ، وصار ههما اظهار التقوى والصلاح
والقداسة لئلا يلحقهما بمن فتك بهم جنونه من قبل ، أما الشيخ
فكان في هذا الحين يسرح نظره في مملكته الواسعة ، واذا به
قد صرخ بغتة بصوت كصوت الوحوش : « الوحش الوحش
الوحش ! » وقام يعدو وبندقيته في يده ، فالتفت كلیم وسليم
وهما مدهوشان الى الجهة التي سار فيها فنظرا على اكمة قريبة
ذئبين يتقاتلان ، فلما خرج الشيخ من واديه أطلق على الذئبين
طلقين فصرعهما بالخال ، ثم أسرع اليهما فاجهز عليهما وجرحهما
الى كوخه وطرحهما أمام سليم و كلیم وهو يضحك لفوزه
ويقول : كلاهما معتد فأرحنا المملكة منهما .

فتنفس سليم و كلیم حينئذ الصعداء لأنهما علما انه انما كان



يقصد بكلامه الحيوانات لا البشر ، وقال كلیم للشيخ الذي كان يحشو بندقية : لقد ادهشتنا يا عم بقوتك ونشاطك وصلاحك ، فلماذا لا تذهب معنا الى المدن لمحاربة الشر هناك وتكوين العالم الحقيقي فيها ؟ ان مدتنا الفضيعة القبيحة محتاجة الى هذا الاصلاح ، فلماذا تحرمها من مساعدتك ؟

فعبس الشيخ حينئذ وقال وشرر الغضب يتطاير من عينيه : المدن ، ويل للمدن ، وويل لي اذا دخلت المدن ، فاني لا اقدر على جميع الوحوش التي فيها اذ ليس لي غير يدين ولا اقدر ان امسك بهما اكثر من بندقية واحدة ، وبندقية واحدة لا تكفي لاختضاع الوحوش التي فيها . آه من المدن ومن العذاب الذي ذقته في المدن ! لا تصدقوا اني ولدت هنا بل اني ولدت في المدن وعشت في المدن ، ولكن الوحوش فيها اكلتني وطحننتني ففررت منها . كلا يا اخوان ، ان صحبة الذئاب والضباع والتمורה في البر افضل من صحبة الانسان في المدن ، ولكن لا بأس ، ستأتي نوبة المدن ، وحينئذ ادخل اليها باذن الله دخول المنتقم لله من وحوشها الضارية .

فقال سليم : ومتى يكون ذلك يا عماد ؟ فقال الشيخ : اما سمعت ما قلته من ان الأمر قد انتهى ؟
فمنذ هذا الحين وقف كلیم وسليم على حقيقة حالة ذلك

التعيس ، فعلمنا انه رجل اضاع صوابه لظلم اصابه فبرح بلدته
وأقام في تلك الجبال المقفرة وهو يعتقد ان الله ولاء عليها
لمحو الظلم والشر ثم يملكه المدن لاستئصالها منها ايضاً . وقد
افتقد سليم و كلیم كوخه ومعيشته فوجدوا انه يعيش في أسد
الحالات ، ورب يوم لا يتناول فيه غير كسرة خبز أسود يصنعه
من دقيق يعجنه ويشويه على النار ، أو قطعة من لحم الوحوش
المعتدية التي يصطادها ، وكان يمر عليه في زمن الثلج والشتاء
عدة ايام مخبوءاً في كوخه الحقيير لا يخرج منه لتراكم الثلج عليه
في ذلك الجبل ، وكان قد تعود احتمال البرد كالحوانات ، فاذا
ذاب الثلج قليلاً زحف من كوخه وخرج على الثلوج يسير عليها
زلقاً لا مشياً ، كأنه سائح فوق ثلوج القطبين .

فاشفق كلیم وسليم اشد اشفاق على ذلك الرجل الذي
يعيش في شيخوخته هذه المعيشة القاسية ، فصارا يفكران في
سبيل لنفعه ، وقبل توديعه عرضا عليه نقوداً وسألاه ماذا يتمنى ؟
فردّ النقود بعظمة ضاحكاً وقال : ماذا أصنع هنا بالمال ؟ أما
حاجتي فهي ان لا تطلقا النار في مملكتي على احد الا اذا كان ظالماً
معتدياً والا اضطرت الى تأديبكما . فاخبره حينئذ سليم وهو
يضحك في نفسه انهما لم يطاردا الذئب الا لأنه هجم عليهما تلك
الليلة في الارز ، فقال له الشيخ : انني اعرف هذا الوحش وهو
يسمى ابا اليد الحمراء ، فسأؤدبه قريباً .



الجميع في الارز

ونزل سليم و كلیم من رأس القضيب بعد ان وعدا ذلك الشيخ التعيس بان يعودا اليه لزيارته ما داما مقيمين في الارز. وفيما هما منحدرا ان اخذا يتحدثان في أمر هذا الرجل ، فقال سليم : لم تبق لدينا شبهة في انه مجنون ، ولكن هل رأيت كيف ان جنونه منحرف الى أهم مسألة ؟ فقال : اي مسألة تعني ؟ فقال : مسألة رفع الظلم والاعتداء والضغط عن الناس ، فهو يسمي الوحش كل عاطفة رديئة تحمل الحي على الاضرار بحي آخر والاعتداء عليه طمعاً في الفائدة لنفسه ، فيا للحكمة والفلسفة في افواه المجانين ! وعندي ان هذا الرجل لم يدرك هذه الحقيقة الا بالاختبار والمصائب ، فيظهر انه كان تعيساً جداً في حياته في وطنه كما قال حتى انصرف جنونه الى هذه الجهة . فقال كلیم : سننبرش ذلك في زيارتنا الثانية .

وما قرب الرفيقان من حرج الارز حتى سمعا ضجة عظيمة وأبصرا الناس جماهير جماهير حول الحرج وداخله ، وكانوا بين فتيان وفتيات ورجال ونساء ، وهم يبلغون نحو الف شخص .



فعجب الرفيقان من ذلك . ولما وصلا الى الحرج دخلا بين
الناس واستخبرا الخبر فعلما ما يلي :

لما وصل الخواجه كلدن وزوجته الى الحدث لم يعجب المكان
السيدة اميليا لانها كانت مضطربة النفس من سياحتها لا يعجبها
شيء ، فتضجرت وقالت : ان جبال كاليفورنيا اجمل من هذه
الجبال . فأمر زوجها رجاله بالمبيت في الحدث تلك الليلة للراحة
فقط وبالسفر الى الارز في مساء اليوم التالي لانه كان على ثقة
من رضى اميليا عن الارز اكثر من الحدث . وفي المساء بلغ
اميليا رغبة بعض الاهالي في ان يصنع زوجها نهاره عندهم
فضحكت وابلغت زوجها هذا الخبر ، وكان كلدن يعلم ان
ذلك يسر زوجته جداً لميلها بالطبع الى الشرقيين ابناء وطنها ،
فأمر وكيله ان يعد له ريات عثمانية بقيمة الف جنيه وقال لأبي
مرعب وقومه : « يس يس سنامل يووم كلدن في الهرز » يعني
سنعمل يوم كلدن في الارز .

فمنذ هذا الحين طار هذا الخبر بسرعة البرق الخاطف بين
السكان والقرى في الجبة كلها ، فضحك له الخاصة وسر به العامة .
واذ علم ان ذلك الغني الأميركي مسافر في اليوم التالي الى الارز
اخذ القرويون ينسلون الى الارز من كل حدب وصوب ليستقبلوه
استقبالاً عظيماً وينتظروا يومه ، وكان أكثر القادمين من

الطبقات المحتاجة ، ومع ذلك فقد كان أكثرهم يُظهرون انهم قادمون لا كرام غني كريم كهذا الغني ومشاهدته لا لنواله ، فيا لعزة نفس الشرقي الذي يرى توزيع المال عليه من غير عمل يتعب فيه نقصةً وعاراً .

وبينما كان الرفيقان يجولان بين الجموع التي اجتمعت في الارز اذا برجل يناديهما من بعيد : يا خواجات ، يا خواجات ! فالتفتا فابصرا رجلاً غريباً لا يعرفانه ، ولكن هذا الرجل ضحك ودنا منهما ، ولما اقترب صاح سليم و سليم معاً : مسيو مخلوف ! فقال المجنون العاشق مبتسماً : نعم مسيو مخلوف ، هل علمتم متى يحضر الأميركي ؟

فلم يجب الرفيقان عن هذا السؤال لأنهما كانا مشتغلين بالدهشة من حالة مخلوف الجديدة ، فقد كان لابساً ثياباً نظيفة مرتبة وفي رجلاه حذاء ليس بقديم وعلى رأسه طربوش نظيف وشعره ولحيته مقصوصان ومزينان ، وكانت هيئته وكلامه وإشاراته كلها تدل على انه معتنٍ بنفسه أشد عناية ، ففطن سليم في الحال الى ان هذا الانقلاب الجديد فيه نتيجة الدرس الذي القاه عليه في عين السنديانة ، فسرَّ بهذا الخير الذي قدر على صنعه مع هذا المسكين ، ومن هذا الحين ازدادت عنايته به لاتمام عمله .

واذ انفرد سليم بمخلوف سأله : أين بدأت ملابسك يا خواجه



مخلوف ؟ فنظر اليه المجنون بلطفٍ كلطف الاولاد وأجاب :
بدلتها في حصرون . فقال : وهل تعرف أحداً فيها ؟ فحدّث
مخلوف اليه وأجاب : وهل نحن نحتاج لمعرفة الناس ؟ أما نحن
جميعاً اخوان ؟ انني حينما اكون ادخل اول بيتٍ أراه في
وجهي وأطلب من صاحبه أو صاحبتة ما أكون في حاجة اليه ،
فأكل واشرب وألبس ثم انطلق على شرط انني لا أحمل معي
شيئاً حتى ولا كسرة خبز لأن الله يرسل خبز الغد . فدهش
سليم وسأله : واذا منعوا عنك ما تطلب ؟ فغضب المجنون
واجاب : كيف يمنعون عني ذلك ، اما نحن اخوان ، أليس لي
ما لهم ولهم ما لي ، الا يعلمون انهم اذا منعوا عني شيئاً فالله
يمنع عنهم أضعافه ؟

فضحك سليم وقال له : اذا بقيت لك هذه الأفكار الجميلة
يا خواجه مخلوف فانك تبقى سعيداً وتنال امنيتك ...

وما أتى سليم على هذه العبارة حتى شوهدت الجموع في
الارض تتحرك كلها مسرعة نحو الطريق ، فقال مخلوف : لعل صاحبنا
الأميركي قد أتى .

وكان قد أمسى المساء وأشعة الشمس لم تعد تصل الى الارض
لأنها توارت وراء آكام بشري والديان والحدث . الا ان
عصابة منها كانت تزين رؤوس الجبال فوق الارض دلالة على انها
لم تغب بعد ، وكان القادمون في هذه الساعة رجال المستر



كلدن سبقوه لنصب الحيام فاجتمع عليهم الناس ، وقد نصبوها
في شرقي الارز تحت اشجاره على اكمة عالية تشرف عليه ، اما
المستر كلدن وزوجته وابنتاه ووكيل اشغاله فكان وصولهم
بعد هبوط الظلام .

وبعد وصولهم بساعتين اذا بثلاثة بغال داخلة الى الارز
وعليها أمين وأبواه ، فدهش سليم وكليم لذلك ، وكان أمين
في اضطراب وانزعاج شديد ، ثم علما من أبويه ان عدوه القديم
الخواجه لوقا طمعون وصل الى الحدث للتصيف فيها ولذلك فرَّ
أمين منها ، هذا فضلا عن رغبته في حضور يوم كلدن في الارز .
ولم ينتصف الليل حتى صار عدد المتوافدين على الارز نحو
ألفي شخص ، فلما رأهم سليم وكليم يتسددون على الارض
للقاد بدون غطاء ولا فراش قال سليم لكليم : نحن حسبنا
اننا صنعنا امس صنع الابطال بنومنا تحت هذه الأشجار على
خرج تحت غطاء خفيف ، فانظر الى اصحابنا القرويين فانهم ينامون
بلا خرج ولا غطاء كأنَّ الأمر عندهم في غاية البساطة .

فأجاب كلليم : هذا مصداق لقول روسو : يجب ان لا يربى
الانسان كشجرة تعيش في هذا الاقليم ولا تعيش في ذاك بل
يجب ان يجعل قادراً على المعيشة في كل الاقاليم ، فحيثما ألقته
جاء واقفاً على قدميه نشيطاً قوياً قادراً على احتمال كل
تقلبات الحياة .

كيف يكون غضب النساء

وفي الصباح انتبه المستر كلدن مع غريان الارز لانه كجميع الرجال الشيطانيين اعتاد التبكير ، ولما نهض استدعى كاتم اسراره المستر كرنيجي وسأله : هل انتبهت لادي كلدن ؟ فأجاب : كلا ! فقال كلدن : خذ كرسيّاً يا مستر كرنيجي واجلس . هل ورد البريد الأخير ؟ فأجاب كاتم الاسرار : نعم يا سر ، قد اخذناه في الحدث وهذه بضع رسائل تقتضي الجواب . فتناولها المستر كلدن بنشاط واجال نظره فيها .

وبعد حين سأله : من هو كاتب هذا الكتاب ؟ فأجاب كرنيجي : هو تاجر مشهور في بيروت ، وهو يقول في ختامه انه قادم لمقابلتكم للترحيب بكم والاتفاق معكم على الشروط . فقال كلدن : وما رأيك في طلبه ؟ فقال كرنيجي : بما انكم عزمتم على احتكار الشرانق والحرير في العالم فمن الصواب ان تجعلوا لكم وكيلاً وطنياً في سوريا ولبنان لابتیاع الموسم . فقال كلدن : وهل هذا الرجل مشهود بأمانته واستقامته ؟ فضحك كرنيجي وقال : لقد ارسل مع كتابه شهادات من اعظم



الرؤساء الدينيين والمدنيين حتى من بعض قناصلنا ، وهذه هي
الشهادات .

ثم ان كاتم الاسرار ألقاها على مائدة في وسط الخيمة .
وكانت هذه الخيمة منصوبة بجانب خيمة لادي كلدن
وابنتيها ، فيظهر ان حديث الرجلين نبّه اللادي من نومها ،
فانها في ذلك الحين ازاحت باب الخيمة وظهرت بثوب النوم
باسمة موردة الخدين كأنها وردة رطبة برزت من وراء غصنها ،
فقام اليها المستر كلدن مسروراً لسرورها فقبلها قبلة شبيهة
وادخلها خيمته لأن السهر كان فارساً في الخارج ، فخرج
كورنيجي حينئذ من الخيمة ، فسألها كلدن : كيف ترين الارز ؟
فأجابت : هذه أول مرة سررت فيها بسياحتنا ، ولولا
هذا المسكان الجميل لأسفت على انتقالنا من اميركا .
فقال كلدن : الحمد لله ، الحمد لله ! وهل ذهبت الأفكار
السوداء ؟ فعمست اميليا وقالت : بحياتك لا تذكرني بها ، آه
لو تعلم الحلم الجميل الذي رأيته في هذا الليل ! فقال : ماذا
رأيت ؟ فقالت وقد بدت الدموع في عينيها : رأيته في السماء
لابساً ملابس الملائكة وهو يبتسم لي ويقول : رضي الله عنك ،
رضي الله عنك ! لا تحزني فاني استرحت هنا بعد عذابي
في الارض .



وهنا استخرطت اميليا في البكاء فأكبت على المائدة التي كانت في وسط الحيمة وصارت تذرف الدموع ، فلام المستر كلدن نفسه لأنه فتح هذا الباب ، ورغبة في صرفها عنه مال اليها ملاطفاً ومتوجعاً وهو يقول : بحياة عينيك يا حبيبتي لا تنغصي عيشنا في هذا اليوم الجميل ولا تهيجي عينيك بالبكاء ، فعليك مقابلة الناس . فرفعت رأسها وقالت : اي ناس ؟ فقال : انك ستصنعين يوم كلدن بيدك ، فتكون الهبة أكثر قيمة واشد تأثيراً ، اذ ستان بين يدك البيضاء الجميلة ويدي الخشنة ، وفضلاً عن ذلك فان تاجراً مشهوراً من أبناء وطنك سيوزونا اليوم . فقالت بدهشة : اي تاجر ؟ فقال : هو تاجر من بيروت يطلب ان يكون وكيل اشغالنا التجارية في الشرق كله ، وهذا كتابه وشهادته امامك على المائدة .

فمدت اميليا يدها الى الأوراق وادارتها لترى التوقيع الذي على الكتاب .

وحينئذ صاحت صيحة من اعماق قلبها ووثبتت بحفلة كأن حية لسعتها .

فأجفل المستر كلدن وعرفته دهشة عظيمة فصاح : ما بك ؟ ما بك ؟

اما اميليا فكانت منتصبية بهياج شديد وراء المائدة ووجهها كوجوه الاموات لاصفراره .

فقال منظرها المستر كلدن وحسب انها بُجِئَتْ ، فصاح :
بحياتك اميليا قولي ما بك ؟

فصاحت اميليا حينئذ بصوت كصوت لبوة هوجمت أشبالها :
من اوصل هذه الأوراق الى هنا ؟

فقال كلدن : هل تعرفين صاحبها ؟

فصاحت اميليا : يسألني هل أعرفه ؟ ومن ذا الذي لا
يعرف الذئب والوحوش الضارية ؟ ماذا يريد هذا الرجل منا ؟
أما كفاه انه سسم أول حياتي فبجاء الآن يسسم آخرها ؟
ففهم كلدن حينئذ ان في المسألة سرّاً ، فقال لها بلطف :
عفواً يا اميليا ، هديتي بالك واجلسي لنتحدث في هذا الشأن
بهدوء ، ولا يكون الا ما تحبين .

فقالت اميليا : لا ، لا ، لا اريد ان اتكلم عن هذا الرجل
ولا ان اسمع اسمه ولا ان ارى وجهه . حبيبي جورج اقبلني
ولا تجعل له في حياتي ذكراً بعد اليوم ، لأنه يسسم حياتي .
انني ارى دهشتك الآن واعلم ماذا تقول في نفسك ، انك تقول :
لم أعهد اميليا رديئة القلب الى هذا الحد ، فانها من الذين
يصفحون ويحلمون ويحبّون اعداءهم ويباركون مبغضيهم ، فما
بالها الآن عمدت الى الرذالة والخبث ؟ لا ، لا يا حبيبي ، لست
رديئة ولا خبيثة ، وانما أنا فتاة ذاقَت من هذا الرجل ما لم



تذقہ الفرائس من الوحوش ، فأنا اغتفر كل الذنوب والآثام
واصفح عن كل الاساءات الا عن اساءة هذا الوحش ، واذا كان الله
يكتب عليّ هذه العاطفة الرديئة فاني افضل دخول جهنم على
الصفح عن هذا الرجل .

وكانت اميليا في حالة لو رآها رافائيل لعض اصابعه
تحسراً على انه لم يظفر بمثلها في حياته ليصور بتصويرها اجمل
سيدة في اجمل غضب ، ولو سمعها الناصري لعلم مبلغ ظلامتها
من مبلغ تأثرها حينئذ يقول لها : ايها المرأة مغفورة خطيئتك .
أما كلدن فانه صار يضحك بعد وقوفه على حقيقة المسألة
فقال لها : أنا لا أسيء الظن بك لأنني أعرف قلبك ، فاجلسي
وقصي عليّ القصة من أولها . ثم ان غضبك في غير محله ، فان
الغضب يكون عادةً سلاح الضعفاء المغلوبين لا الأقوياء ، وهو
الآن ضعيف بالنسبة اليها لأنه جاء يرجو منا أن نجعله وكيلاً اشغالنا .
فصاحت اميليا : كما كان وكيلاً اشغالنا . فقال كلدن : اذاً
فاضحكي يا عزيزتي ضحك القوي الواثق بقوته وبحقه ، المنتصر
على خصمه ، بدل ان تغضي غضب الخوف والاهتمام بما لا يستحق
الاهتمام .

فسكن حينئذ جاش اميليا شيئاً فشيئاً وجلست تقصّ عليه
قصتها ، فعلم كلدن ان الخواجه لوقا طمعون هو الرجل الذي

كان سبب مصابها ومصاب أهلها ، فانه كان أولاً من اصدقاء
ابيهما وكان يتزلف اليه ويتقرب منه طمعاً في الفائدة ، وكان
يتظاهر بانه يريد الاقتران بابنته ، فاصطفاه أبوها وأطلعاه على
اشغاله واسراره وصار يعول على نصائحه وآرائه ويمدّه بمساعدته
نفعاً له وترويجاً لاعماله ، فاعتنم لوقا هذه الفرصة وغدر بالرجل
ليبني اشغاله على انقاض اشغاله ويحلّ محله في بلده ويجمع لنفسه
رأسمالاً من رأسماله ، فأدت دسائس لوقا لأبيهما الى خسارة ابيهما
امواله كلها وخراب محله وسقوط منزلته ، فماتت امها قهراً من
هذه الحالة ، وهي نفسها عزمت يوماً على الانتحار تخلصاً من
الفقر والضيق والجوع فالقت نفسها في البحر ولكنها أخرجت
قبل فراق الروح ، فعدلت حينئذٍ عن الانتحار وعزمت على
الفراو من بلدها فقرت وتركت اباهما وحيداً فريداً ، وهذا ما كان
يطير صوابها ، الا انها كانت تؤمل ان أباهما يقدر ان يعيش
براحة وحده في منزله ، فخاب املها من سوء الحظ ونكد الطالع
لأن اصحاب الديون بتحريض لوقا استولوا على المنزل وباعوه
وطردوا الرجل منه ، وكان قصد لوقا من ذلك محو كل اثر
لهذه العائلة واثرها القديم لأنها تذكره بحالته القديمة ، ومنذ هذا
الحين لم تعد الفتاة تسمع شيئاً عن ابيهما ، فكيف تستطيع الآن
ان ترى وجه ذلك الرجل الذي كان سبباً في كل هذه الفظائع
والمصائب ؟



ولكن ما انت اميليا على آخر الكلام حتى علت في الارز
جلبة شديدة وكثر الصياح والصراخ ، فخرج المستر كلدن من
خيمته ليعلم السبب فلقي سكرتيره المستر كرنيجي داخلا فسأله:
ما الخبر ؟ فاجابه : قوم يتخاصمون ويتضاربون .



مجنون ليلي وملك رأس القضيبي

اجتماع جنونهما على واحد

وكان لتلك الجلبة والصياح سبب في غابة الالهية ،
واليك بيانه :

كان الخواجة لوقا طمعون المذكور آنفاً تاجراً صغيراً في
صيدا يرتزق من معاملة كبار التجار ، ولكن لم تمض عليه
عدة سنوات حتى انتقل الى بيروت لأن صيدا ساقية لا تحمل
سفينة كبيرة ، فوسع أشغاله في بيروت ما شاء التوسيع ، ولكن
دولاب حظه كان واقفاً في تجارته مع ذكائه ومهارته ، ولولا
اعتماده على أهل له في بيروت لما قامت له قائمة ولا قدر على ان
يعمل شيئاً . فلما سمع بمجيء المستر كلدن الغني الاميركي
المشهور الذي يملك الملايين وعزمه على اقامة وكيل له في
الشرق للاعتماد عليه في تجارته الاميركية صادراً ووارداً علم انه
اذا نال هذه الوكالة كانت له غنيمة عظيمة ، فلم يدخر وسعاً في
ذلك ولا ترك واسطة الا استعملها ، ولكن لما قدم كلدن الى
بيروت لم يستطع لوقا مقابله لأن لادي كلدن ابت استقبال



احد في بيروت كما تقدم وسافرت منها في الحال ، فعلم الخواجه
لوقا ان صاحبه مسافر الى الحدث ، فركب مركبة من بيروت
قاصداً البترون ومنها امتطى فرساً الى الحدث ، فلما وصل اليها
قيل له ان الاميركي سافر الى الارز ، فتبعه على الاثر .

وكان الخواجه لوقا كهلاً في نحو الأربعين من العمر وهو
بدين ذو جسم قوي ولسان طلق ، وكان جريئاً مع الضعفاء
ولكنه ضعيف مع الأقوياء شأن اهل السياسة الجبناء ، الا انه
مع ضعفه مع الأقوياء كان قادراً على مقابلة رجل كالمستر كلدن
واستمالة وارضائه .

وكان وصوله الى الارز قبل بزوغ الشمس ، وكان كلیم
وسليم وامین جالسین عندئذ على اكمة صغيرة مشرفة على
الطريق خارج الارز .

فلما ظهر الخواجه لوقا في الطريق ارتجف امین وقال
لكليم : لا حول ولا قوة الا بالله ! ان هذا الرجل الذي قطع
حبل حياتي يتبعني اينما ذهبت .

وكان مخلوف المجنون قادماً من الارز في هذه الساعة نحو
الرفاق الثلاثة ، فلما وصل اليهم كان الخواجه لوقا قد صار
على مقربة منهم .

فالتفت مخلوف الى القادم وهو ينشد حسب عادته :



جنناً بليلي وهي جنّت بغيرنا واخرى بنا بجنونة لا نريدها

ولكن ما وقع نظره على القادم حتى جمد في مكانه كأنه
صم أصم ، ولولا تقلبيه عينيه في الرجل القادم لظن رفاقه انه فارق
الحياة وهو قائم على قدميه .

وبعد هذا الجمود بوهة أسرع مخلوف وعينه تستطير شرراً
فنزل عن الاكمة ووقف على الطريق ، فلما وصل اليه الراكب
صاح مخلوف صيحة كهواء الكلاب والذئاب ، وقال : هذا
هو ! ثم أطبق على لوقا فأخذ به وشده فالتقاه عن جواده على
الارض كالجدع المذود وبرك فوقه .

فهبهم حينئذ المكاري وسليم وكليم ليرجعوه عنه فكان
مخلوف يصيح كالوحش والزبد على شدة : لا يرجعني عنه
احد غير الله ... قد اهلكني ... قد حرمني حياتي ... لولاه لما
فرّت حبيبتى ... الانتقام ... الانتقام !

وكان عند كل كلمة من كلامه يضرب لوقا بقبضته ضرباً
شديداً وهو كالجمل الهائج ، وناهيك بغضب المجانين ، فأسرع
الناس من جهات الارز على صوته عشرات عشرات ومئات
مئات ، فتكاثروا عليه وانهمضوه عن خصمه بعد جهد شديد ، فانقلب
مخلوف من الغضب على خصمه الى الغضب على نفسه وهو في



أشدّ حالات الجنون ، فتناول حجراً وصار يضرب به نفسه ،
ويلقي نفسه على الأرض ويقوم وهو يهذي بهذا الكلام : مسكتك
يا ظالم ... دعوني معه لأحاسبه ... مضت سنوات وأنا افتش
عنه ... هل يموت حق حبيبتى ؟ ابعدوا والا فقتلتكم كلكم ...
اليوم يوم الثأر ... يا ألهمي ارسل الآن صواعقك اذا كنت
عادلاً ... صاعقة واحدة فقط ... تقتلني وتقتله .

وكان الله أجابه الى طلبه في هذه الساعة ، فان الناس
الذين كانوا يمنعون عنه فريسته تركوها واجفلوا راجعين القهقري
اجفال العصافير حين ظهور الباشق ، ذلك انهم شهدوا امامهم
مشهداً مريعاً ، فان وحشاً بشرياً هائل المنظر كان قادماً نحوهم
وفي يده بندقية .

فالتفت سليم و كلیم وصاحا : هذا صاحبنا ، ما جاء به ؟
اما مخلوف فانه لم يسمعه شيء من كل ذلك ، بل انه لما رأى
الجموع قد فرّت من وجهه وتركّت الخواجه لوقا وحده مشغولاً
باصلاح ملبسه هجم عليه كالذئب وأخذ بخناقه .

فحينئذ خرج من فم الوحش البشري القادم وفي يده
بندقية صوت أجش سمعه القاريء قبل الآن في رأس القضيب
وهو صراخه : الوحش ! الوحش ! الوحش ! ثم انه سدّد بندقية
نحو مخلوف ليطلقها عليه .

فعلم سليم و كلیم ان صاحبهما ملك رأس البضيب سيقتل
مخلوف ولوقا معاً اذا لم يدخلا بينهم لاعتباره ان مخلوف ظالم
معتد كما كان يقتل الحيوانات التي تعتدي على رفاقها ، فدخل
سليم و كلیم حينئذ بين الفريقين وواريا مخلوف ولوقا وراءهما
وصاح كلیم : يا عمّ دعه فنحن نؤدبه ونأتيك به .

وكان مخلوف وخصمه يتصارعان حينئذ بقوة هائلة والناس
لا يجسرون على الدنو منهما للدخول بينهما ، ولكن حانت من
مخلوف التفاتة فأبصر ذلك الوحش البشري ينظر اليه وبندقية
مسددة نحوه ، فانتبهت فيه عاطفة الحرص على البقاء ، فترك
خصمه وخطا خطوتين نحو الشيخ الهائل غضوباً ، فتبعه سليم و كلیم
لئلا يقتله الشيخ .

ولكن ما تقدم مخلوف بضعة امتار حتى وقف مدهوشاً
هذه المرة ايضاً وصرخ صرخة دوت لها الجبال ، ثم هجم على
الشيخ صائحاً : متى حاروم ، متى حاروم ... جئت في وقتك ...
وفي يدك بندقيتك ... انظر صاحبك لوقا طمعون ...

فلما سمع الشيخ الهائل اسم لوقا طمعون ظهرت الرعدة في
جسمه وجهضت عيناه واصطكت ركبته ، فهجم كالذئب نحو
لوقا ، واذا عرفه زجر كالأسد صائحاً : يا لعيني اميليا ... حقاً
لقد انتهى ... ثم سدّد البندقية نحو لوقا وأطلق نارها عليه .

فصاح سليم و كلیم وهجما نحوه ولكن من حسن الحظ لم
ينطلق الرصاص لان الضباب كان قد رطب بيت البارود .
فحينئذ ألقى الشيخ بندقيته وهجم على لوقا طمعون ، فتبعه
مخلوف هاجماً لهجومه .

فكل من رأى ذئاباً تهجم واسوداً تثب وضباعاً تغضب
يمكنه ان يتصور هجوم هذين التعميسين على ذلك التعميس .

فصاح كلیم وسليم بالجموع التي كانت تنظر اليهم من بعيد :
إلينا يا شباب ساعدونا ، فهذا وقت المروءة . فهجم الناس
لمساعدتهما ولكنهم لم يستطيعوا الفصل بين المجنونين وفريستهما
الا بجهد شديد ، فذهب لوقا طمعون نحو خيام المستر كلدن
والدماء تسيل من وجهه وال جماهير تتبعه ليغسل جروحه . اما
مخلوف والشيخ فقد ادركتهما نوبة الجنون حنقاً لعجزهما عن
خنق الخصم فسقطا على الارض مصروعين بلا حراك ، فقيدهما
سليم و كلیم لئلا يضرنا نفسيهما ثم نقلاهما الى الغرفة المقابلة
للكنيسة واقفلا الباب .

هذه هي الحادثة التي كانت سبباً في الجلبة التي سمعها المستر
كلدن بينما كان يحادث امرأته .

ذئب لدى لبوة

موقف حرج

فهنأ وأسفاه لم تبقى حاجة الى شرح الحادثة التي تقدمت لان القارىء اللبيب فهم كل تفاصيلها وروابطها وأسبابها ، وعرف مبلغ تعاسة اميليا .

وما استقرَّ المستر كرنيجي برهة في الخيمة مع المستر كلدن وزوجته حين دخوله عليهما كما تقدم حتى دخل الترجمان يقول : ان رجلاً يدعى الحواجه لوقا طمعون قد حضر من بيروت للسلام على حضرة السر . فعاد الاضطراب حينئذ الى اميليا ونهضت لتخرج الى خيمتها ، فأوما اليها المستر كلدن ان تبقى لتلتذ بمشاهدة خصمها تحت قدميها ، ثم همس بضع كلمات في اذن سكرتيوه ليطلعه على طرف من المسألة ، وبعد ذلك قال للترجمان : قل للرجل ان يدخل .

فدخل لوقا طمعون باشاً ضاحكاً كأنه لم يُصب بمكروه ، فحيا اجمال تحية ، فجأوبه المستر كرنيجي ، أما المستر كلدن فقد كان يتشاغل بتقليب الأوراق على المائدة ، وأما اميليا فقد



ادارت ظهرها للباب وانحرفت نحو الظل وهي ترتجف من الغضب والحقد .

فساء لوقا هذا الاستقبال البارد فجلس متقبضاً . وبعد ان دام السكوت دقيقة قال المستر كلدن بسنرق وهو ينظر في الأوراق لا في وجه ضيفه : ماذا تريد حضرتك ؟ فأجاب لوقا : لقد كتبت لجناب السر اعرض عليه خدمتي في كل ما يريد في الشرق ، اذ بلغني انه يطلب وكيلاً . فقال كلدن : وكيف تريد ان اتخذك وكيلاً من غير ان اعرف أمانتك واستقامتك ؟ فانجرح هنا لوقا في صميم شرفه التجاري والأدبي فصعد الدم الى رأسه وأجاب : لقد قدمت لحضرتك الشهادات الكافية وفي جملتها شهادة رئيس ديني كبير .

فقهه كلدن حينئذ بصوت عالٍ وقال : شهادات ؟ هل تريد ان أجعل احد خدامي يجلب مثل هذه الشهادات بعشرة ريبالات فقط ؟ ثم التفت الى اميليا وقال : ما قولك مسز ، هل تقبل منه هذه الشهادات ؟

فلم تجاوب اميليا لأنها كانت غير قادرة على الكلام . أما لوقا فعدل حينئذ عن مطلبه فقال بشيء من عزة النفس : عفواً يا سر ، أنا سألت حضرتكم سؤالاً فاذا قبلتموه شكرتكم واذا رفضتموه عدت من حيث أتيت مسروراً باني تشرفت بمعرفتكم .



فحينئذ دبت الحماسة في صدر اميليا لأنها شعرت بان الخصم لا تزال له قوته التي سحقتها في ما مضى ، فعزمت على سحق هذه القوة للانتقام منها ، فجمعت قواها كلها وقالت :

ان طلب المستر كلدن حق اذ بلغته اعمالك في صيدا .
فقال لوقا في نفسه : الآن علمت سر المسألة ، فان اعدائي ومزاحمي سعيوا بي لدى هؤلاء الكرام ولذلك اساؤوا استقبالي .
ثم اجاب مبغوتا ومظهرا الدهشة : عفوا يا سيدي الكريمة ، اية اعمال تعنين ؟ ان جميع اهل صيدا يشهدون لي بحسن السيرة والسريرة والشرف ، واذا تفضلت وأطلعت خادمتك الامين على الأقوال التي بلغتكم من حسادي وأعدائي فاني أنقضها كلها قولاً قولاً .

فاجاب المستر كلدن حينئذ بحدة : أنا لا أحب كثرة الكلام يا مستر لوقا ، فاذا شئت ان تكون وكيلاً لأشغالنا فجيئنا بشهادة شرف واستقامة من الخواجه متى حاروم في صيدا .
فلو ان الصاعقة وقعت تحت قدمي لوقا لما اثرت فيه تأثير هذا الكلام ، فنهض بحدة وصاح : لا تصدق يا سيدي ، لا تصدق كل ما سمعته ، فان هذا الرجل جاهل سيء التدبير فخور بنفسه و...

فهنا لم تعد اميليا تستطيع السكوت فقطعت كلامه وصاحت



بجدة رغماً عنها : لا تهين الناس يا خواجه بل اجب اتأني بالشهادة
المطلوبة ام لا ؟

فقال لوقا في نفسه حينئذ : انني اذا ذكرت لهم ان متى
حاروم موجود الآن في الأرز بحالة الجنون والهول وقد كاد
يفتك بي فتلك أقبح شهادة ، فانهم يسألونه ويعلمون منه ما
يريدون علمه . فأجاب : ان متى حاروم يا سيدي لم يوقف له
على اثر منذ عشر سنوات .

فقالت اميليا والدموع ملء عينيها : ومنزله ؟ فقال : قد بيع .
قالت : واهله ؟ قال : كان له زوجة فتوفيت وابنة طائشة
فرّت وتركته .

فحينئذ وثبت اميليا كمن لسعته أفعى في صميم قلبه
وصاحت بأعلى صوتها : يا ظالم ، تخرب بيته وتميت زوجته
وتهرب ابنته وتبيع منزله وتمحو أثره ثم لا تكتفي بكل ذلك
بل لا تزال تطارده بحقدك وبغضك فتتهين وتهين ابنته
أمامنا الآن !

فغضب لوقا عند هذا الكلام وقال : الوداع يا سادتي . وهم
بالخروج ، فوثب اليه كلدن وثبة الأسد فأخذ بذراعه وقال
بجدة : مستر لوقا، قبل ان تخرج من هنا اجث واطلب الصفح
من مسز كلدن ابنة الخواجه متى حاروم .

وان القلم لم يعجز عن وصف ما جرى حينئذ وكيف استقبل
لوقا هذه الصاعقة التي انقضت على رأسه .

ولكن لما انقضت دهشة لوقا وعلم خطورة موقفه وهوله
جمع قواه وكبرياءه التي كانت قد فارقته ، وبعد السكوت
برهة قال : الآن فهمت يا سيدي سبب ما جرى ، فصار يجب
عليّ تبوئة نفسي لا للحصول على وكالة أشغال بل حفظاً لكرامتي
لديك ، فكل ما بلغك عني يا سيدي كان معكوساً أو مبالغاً
فيه ، اذ اي عمل عملته في معاملتي أباك ولا يعمل به كل الناس
اليوم ؟ والمستر كلدن زوجك المحترم لا يستطيع تكذيب
كلامي ، اسأليه اذا شئت كيف جمع ثروته الطائلة وملايينه
العديدة ، اما افلست بنوك خصومه وقامت بنوكه ؟ اما
امتصت سككه الحديدية ثروة سكك اعدائه ؟ اما خربت في
الاحتكارات التي احتكرها ألوف من المحالّ وافلس في مضاربته
ألوف من المضاربين ؟ فما الحيلة اذا كانت هذه طبيعة التجارة
نفسها ، وكيف نستطيع جمع الثروة لننفع بها الناس اذا كنا
نحذر من ضرر هذا ونخاف مزاحمة ذاك ؟ فهذه سنة العالم وقد
قال جوت : الى الامام الى الامام ولو فوق الجثث !

فدهش المستر كلدن لثبات جأش الرجل بعد تضعفه
وللطريقة التي حوّل بها الموضوع عن محوره ، أما اميليا فقد

خلعت عن نفسها لدى هذا الكلام ثوب الحاضر وارتدت ثوب
الماضي واجابت بحدة :

كل هذا الكلام يا سيدي لا يبرىء السرقة والاحتيال
والدسائس والسلب والنهب . تقول التجارة والأصول التجارية
ولكن اي تاجر شريف يزعم ان إله التجارة يطلب دائماً ضحايا
بشرية ودماء بشرية ؟ اي تاجر خالٍ من عواطف الشرف
والانسانية يرضى بان يجمع ثروة من طعام الأطفال ودموع
البنات وموت الاولاد وخراب البيوت ؟ اذا وجد في العالم
هذا التاجر فلا اسميه تاجراً بل لصاً وقاطع طريق ، بل هو ادنى
من اللصوص لأن اللصوص يهاجمون الانسان من وجهه ، اما هو
فانه يغدر به لأنه يباغته من وراء ويغمد خنجره في ظهره . كلا يا
سيدي ، ليست التجارة هي التي دفعتك الى صنع ما صنعت بل
طمعك ورغبتك في الثروة بأية طريق كانت ، وانا الآن لست
أسفة على ما ضاع من الأموال والأرزاق لأن الله عوضني خيراً
منها ، وانما أسفي على شيء واحد لا يعوّض وهو فقد أبي .

وهنا تفرق الدمع في عيني اميليا ، فتأثر لوقا لهذه الدموع
وهذا الكلام وان كان فيه اهانة له لأنه رآه ممزوجاً بشيء من
اللطف ، لاسيما وانه كان ينتظر أشد منه . ففكر قليلاً ثم قال
باسماً : سيدي ، انني اعرف مكان ابيك ، وسأجيئك منه بالشهادة
المطلوبة .

فرفعت اميليا حينئذ يديها وعينيها الى السماء وصاحت
بجنون : ماذا تقول ؟ فقال الرجل : نعم ، انني اعرف مكان
ابيك . فنهض المستر كلدن مدهوشاً وصاحت اميليا :
اين ؟ اين ؟ قل فأملأ فاك دراً . رده الي فانسى كل اساءاتك .
واأبتاه ! واأبتاه ! أصبح ما تقول ؟ قل ! ما لك لا تتكلم ؟ متى
نظرته ؟ فأجاب لوقا : اليوم . فصاحت اميليا : اليوم ؟ واين
ذلك أين ؟ فقال لوقا : هنا في الارز .



صوت الابنة الكريمة

يحيى العظام الرميعة

فحينئذ ذهلت اميليا عن نفسها وعن زوجها وعن مقامها
ووثبت خارج الحيمة كالبرق الخاطف وهي تصيح : اين ؟ اين ؟
فتبعها المستر كلدن وسكرتيره ولوقا ، وحينئذ عرف المستر
كلدن من لوقا تفصيل ما جرى ، فرام كلدن تسكين جأش
زوجته واقناعها بالانتظار الى ان يصلحوا ملابس الشيخ ويحسنوا
حالته وينقلوه من تلك الغرفة ، أما اميليا فلم تصغر لأحد بل
مرقت كالسهم قاصدة الغرفة .

فلم يكن لوقا ولا كلدن يعرفان واأسفاه انه كان مجنوناً .

✱

فلما وصلت اميليا الى باب الغرفة دفعت به وهي ترتجف
ودخلت فابصرت على الأرض شخصين مقيدين راقدين ، والحقيقة
انهما كانا في نوبة الصرع كما تقدم .

فصرخت اميليا صرخة الجنون واليأس حين وقع نظرها على



أبيها بتلك الحالة ورجعت القهقري خوفاً ، ولكنها كالبرق عادت إليه وأكبت عليه .

وكان الناس قد اجتمعوا في الخارج ، فنادى كرنيجي اثنين منهم وحملتهما مخلوف فنقلاه الى الكنيسة فبقيت اميليا مع أبيها . فانحنت الابنة حينئذ تقبل قدميه ويديه ، وكانت تبكي وتناديه بصوتها اللطيف : أبتاه ! أبتاه ! انتبه فقد جاءت اميليا ... أبتاه ، افتح عينيك وانظر اليّ ... لقد جئت بك بحفيدةتين معي ، قم وانظر اليهما فانهما تذكرانك اميليا صغيرة ... ابي ، هل غضبت عليّ ولعنيتني لما تركتك ؟ .. هل خطر في بالك انني فررت من خدمتك ؟ قم واخبرني انك لم تسيء الظن بي ... ان ضرباً من الجنون استولى عليّ ودفعني الى السفر ... فلعل الله هو الذي اراد ذلك لأعود اليك بالخير والغنيمة والظفر ... أبي ، ما لك لا تحببني ؟ .. ما هذا الرباط الذي في يديك ورجليك ؟ .. ما هذا الجلد الحشن الذي يستر جسمك مع انه كان يلبس الملابس الناعمة ؟ .. ما هذا الشعر الهائل الذي يغطي جبينك الذي كان صافياً هادئاً ، وما هذه الشقوق التي في قدميك ؟ آه لقد تعذبت في شيخوختك كما تعذبت في صباي ، ولكننا استرحنا الآن ، فقم وعانقني ، أبتاه ، أبتاه ما لك لا تحب ؟

فيا لتأثير الحنان البنوي ، يا لفعل القلب في القلب ، يا للعدالة الأبدية التي لا تسمح بموت الحق في العالم !



فان الشيخ الهائل لم يلبث ان تحرك لذلك الصوت الملائكي اللطيف وانتفض وفتح عينيه ، فجمدت اميليا في مكانها جمود الصنم ، فأدار الشيخ نظره في المكان متحيراً كأن على عينيه غشاوة ، ثم صاح : ماذا تريدون ؟ فغصت اميليا بدمعها واجابت : أبي ، هل انتبهت ؟ فبهت الرجل وقال متحيراً : من انت ؟ فقالت : أنا اميليا ! اميليا !

فحينئذ جلس الشيخ متثاقلاً وصاح غاصاً بدموعه : اميليا ، متى جئت يا حبيبتي ؟ فانطرحت الفتاة بين ذراعيه وصارا يبكيان بكاء اللقاء بعد طول الفراق .

ولم يدوتن علم الطب قط في تاريخه حادثة شفاء من الجنون كهذه الحادثة الغريبة ، وكل من سمع بها رجح ان الشفاء كان من فراغ جنون الشيخ في تهيجه الاخير على لوقا وان كان لصوت ابنته دخل في ذلك أيضاً .

واذ سألت اميليا أباه عن حالته وسبب وجوده هناك ولبسه تلك الملابس وجدته اشد منها عجباً ودهشة من ذلك ، لأنه بعد رجوع عقله نسي كل ما كان .

*

وبعد ساعة ونصف الساعة حضر مزين من بشري فأصلح شعر

الخواجه متى وألبس ملابس نظيفة ونقل الى صدر خيمة اميليا،
وكان الناس في الخارج قد ضجروا وهم ينتظرون يوم كلدن، فلما
بلغ ضجرهم الى المستر كلدن قال لاميليا باسماء : لا أنا ولا انتِ
بل ان اباك هو الذي سيعمل يوم كلدن .

فجاء بكيس كبير فيه ريبالات بقيمة الف جنيه فحمل
مفتوحاً على حمار وسار وراءه الخواجه متى بملابسه النظيفة
المرتبة وشعره المصقول وصار يفرق في الجماهير الحاضرة ريبالاً
ريبالاً لكل واحد من الأولاد وريالين ريبالين لغيرهم . وكانت
الجماهير تزحمه من كل جانب .

فلما ابصر سليم وكايم صاحبهما ملك رأس القضيبي بتلك
الحالة الجديدة اعتراهما العجب الشديد ، فكأنما يدنوان منه
ويتأملانه ، أما هو فلم يعرفهما ، ولم تفارقهما الدهشة حتى اطلعهما
الترجمان على تفصيل الحادثة .

☆

وفي المساء عزم كلدن وزوجته على السفر من الأرز للرجوع
الى اميركا بعد وجودهما ضالتهما المنشودة ، فقوتضا الحيام وعزما
على الركوب ، وكان لوقا طمعون قد انفرد عنهما بعد الحادثة
ولم يلتق بمتى ، فقبل السفر قصد اميليا وسألها ضاحكاً أنسمع



له الآن بوكالة الأشغال التي طلبها ؟ وكان كلدن حاضراً فأجابه :
هذه المسألة صارت متوقفة على رضى الخواجه متى .

واذ قُصت هذه القصة على الخواجه متى وطلب رأيه فيها
ضحك أولاً ثم أطرق مفكراً وبعد ذلك قال : رأيي ان الصفح
اولى ، فان الوحش الذي في الانسان لا تذله المقاومة والعناد
بل الحلم والصفح ، ولذلك يكون الاقل حيوانية والاكثر
عقلاً أكثر صفحاً وحلماً .

فلو سمع سليم وكليم هذا الجواب لقالا : ان فلسفة صاحبنا
في الوحشية وهو مجنون مخالفة من حسن الحظ لفلسفته فيها
وهو عاقل .

*

وقبل السفر استدعى كلدن سكرتيره وقال له وهو يطوف
معه بين أشجار الأرز : مستر كرنيجي ، أما تعلمت شيئاً من
هذه الحادثة ؟ فأجاب كرنيجي : تعلمت وجوب الرحمة يا سر
للضعفاء الذين يسقطون في جهاد الحياة ، والا لم يكن هنالك
فرق بين البشر وبين الحيوانات . فقال : صدقت يا صديقي ،
إذا خصص في كل عام مليون فرنك لمساعدة العيال التي تسقط ،
واكتبنا أن يقرض مليون دولار لمجل خصمنا ارميس الذي

افلس من مزاحمتنا ، ومليوناً آخر لمحل « وذن » الذي خسر
ثروته في احتكاراتنا ؛ فاني بعد الآن صرت ارى ان البشر لا
يكونون بشراً اذا كانوا يصرفون كل ما اعطاهم الله من النباهة
والعقل والقوة في مجاهدة بعضهم بعضاً ليستأثر اقوياءهم بالمنافع
والخيرات دون الضعفاء ويدوسوهم كما يدوسون الحيوانات
الدنيئة .

*

وفي المساء ركب الجميع مسرورين قاصدين بيروت عن
طريق بعلبك ، وكان سليم وكليم وامين جالسين على اكمة ينتظرونهم ،
فلما مروا بهم وشاهد امين خصمه لوقا يحادث متى ويضحكه
واميليا تنظر اليهما وتبتسم مسرورة لتقلب الزمان صار امين
يبكي ويقول : اين العدالة في العالم ؟ فتنهد سليم وأجابه :
العدالة يا صاح موجودة ولكن المهم الجد والانتظار والثبات ،
ألم تنظر كيف انتصرت اميليا ولوقا بهذه الصفات ؟ فلا تجدف
على النواميس الأبدية فانه ليس بالامكان ابداع مما كان ، وكل
ظلامه مهما كانت عظيمة تُكشف عن صاحبها اذا تسليح بهذه
الفضائل ، فان الله اعدل من ان يخذل الحق ، وهو لنصرته لا
يطلب من البشر غير الصبر والجد والانتظار .



فقال أمين متأوهاً : وما الحيلة بن لا يستطيع الانتظار
لأن أيامه معدودة ؟

فأجابه سليم : هذا وهمٌ يا صاح ، وعلى افتراض صحته فإن
المظلوم يكون أقرب الى الله في الآخرة مما لو أنصفه الله هنا .

فهرّ أمين رأسه وقال : كلام حلو للتعزية ، كلام حلو للتعزية .

حب المجانين

لوقا يأكل الحصرم ومخلوف يفرس

وكانت الأكمة التي جلس عليها الرفاق الثلاثة قريبة من الكنيسة ، وإذا هم يسمعون صرخاً عظيماً فيها ، ففطنوا حينئذ الى مخلوف الذي سجن فيها ، فنهض سليم ليراه ، ولكنه لم يخطُ خطوتين حتى كان مخلوف قد كسر الباب وخرج منها وعينه تستطير شرواً ، فلما رأى سليماً صاح به : أين متى حاروم ولوقا طمعون ؟ فأجابه سليم : قد رحلا . فوثب مخلوف اذ ذاك راكضاً الى الطريق ليتبعهما وإذا به يرى الدواب والأحمال أمامه لأنها لم تكن قد بعدت بعد ، فأطلق ساقيه للريح وراءها ، فسار سليم وكليم وراءه ايضاً ، فوصل مخلوف الى المسافرين وصار يقلب نظره فيهم ، فلما وقع نظره على اميليا صاح صيحة دوت لها الجبال وانطرح على الأرض صارخاً : لقد صدق سليم ، عادت اميليا .

فضحك كلدن وقال : لم نخلص من الأسرار بعد . فأخبره متى حينئذ انه شاب مجنون انقذ في زمانه حياة اميليا ، فمد



كلدن يده الى جيبه واخرج منها ورقة بخمسمائة دولار وأوما
بها الى مخلوف قائلاً : خذ هذا تذكراً من اميليا . فصاح به :
ومن انت ؟ فقال كلدن ضاحكاً : أنا زوجها .

فيا ليتك يا مستر كلدن لم تلفظ هذه الكلمة ، فان مخلوف
ازدوج جنونه حينئذ فصار يضرب الأرض بيديه ورجليه ورأسه
ويصيح : زوجها ، زوجها ! وأنا اذاً من أنا ؟ من اذنك ان
تزوجها ؟ كيف تسلبني حقي ومالي ؟ هاها متى حاروم ، ما
شاء الله ، ما شاء الله ! ثياب جديدة وشعر مقصوص ، وراكب
على بغل ، قه قه قه ، بغل على بغل ، لو لم تكن بغلاً لما زوجت
ابنتك هذا النغل وتركت رجلاً مثلي ، ولكن اظنكم تضحكون .
اميليا ، اميليا ، انسيت يعقوب ؟

فقال كلدن لزوجته : مسر سوفي جوادك الى الامام
واتركينا .

فوثب حينئذ مخلوف وثبة الذئب وصاح : بل انت تتركها!
ثم مدّ يده الى جيبه واخرج منها سكيناً وهجم على كلدن .
فلم يكن كالمح البصر حتى أطبق عليه كلیم وسليم من وراء
وقبضا على يده ، فأسرع البغالون وشدوا وثاقه بحبل غليظ ،
فانكسرت حدة مخلوف فصار ينوح ويصيح متذللاً باكياً :
اميليا ، اميليا ، بحياتك لا تتركيني ! ماذا صنعت لك حتى

تعذبيني ؟ أما انقذتك من الموت ؟ هل انقذتك لغيري ؟ أما
أحببتك عشر سنوات دون ان أنساك ؟ اميليا ، اميليا ، يقولون
انه زوجك ، فلا بأس ، هو زوجك ، فخذيني أنا خادماً لك ،
انني اتبعك ماشياً لا راكباً ، لا اكلمك ولا أدنو منك وانما
احرسك واخلدك واقبل قدمك . اميليا ، اميليا ، انظري ، أنا
صديقك تعيس الآن ولوقا طمعون عدوك سعيد ، يا لنكران
الجميل ! يا للظلم ! هو يركب بجانبك مسروراً وأنا يشدونني
بالحبال ويعذبونني ! اميليا ، اميليا ، خذيني معك ، لا تقتلي نفساً
بريئة فان الله يحاسبك .

فأثرت هذه الكلمات في نفس اميليا حتى بكّت لها شفقة
على ذلك التعيس ، فخاطبت زوجها مستأذنة في أمر ثم وجهت
جواردها نحو مخلوف فدنّت منه وهو مشدود الوثاق ، فكأن
روحه عادت اليه ، فمدت يدها البيضاء اللطيفة ووضعتها على
كتفه وقالت له بنغمتها الساحرة : عزيزي مستر يعقوب . فصاح
مخلوف : بلا مستر ، بلا مستر ، بحياتك قولي عزيزي يعقوب كما
كنت تقولين . فقالت : عزيزي يعقوب ، لا أقدر على اخذك
الآن معي ، ولكن أعدك انني سأطلبك . فصاح مخلوف : متى
يكون ذلك ؟ فقالت : حين وصولي الى بلادي . فبكى مخلوف
وصاح : بلادي ، ولكن بلادي هنا ! فقالت : بل بلادي اميركا



يا عزيزي مستر يعقوب ، فعش هذه المدة مسروراً راضياً بغياي
لأنني سأذكرك دائماً وارسل اليك كل ما تحب الى ان يتيسر
لي استدعاؤك .

وهكذا هدا ذلك المجنون العاشق التعيس بشيء من اللطف
والوعد ، ولكن هدوءه كان وقتياً ، فانه ما تحرك الركب وسار
حتى اشتد به الجنون وشرست اخلاقه فاضطروا الى شد وثاقه
وارسلوه الى دير قزحيا ، ولا يزال في الدير الى اليوم ينشد
الاشعار ويترنم بذكر حبيبته اميليا .

فمسين انت يا مخلوف ! تخاصم البحر والريح فكان الصلح
عليك . ولكن أما سمعت ما قال سليم : ان العبرة بالانتظار
والثبات ، وانت لم تقدر على الانتظار لأن عقلك رحل عند
اول صعوبة ، على انك لو انتظرت وكنت الآن عاقلاً فربما
كنت نلت اسمى منزلة عند اميليا بعد منزلة زوجها .

*

اما سليم و كلیم فقد أقاما في الارز بضعة أيام ، وكان تخلصهما
من مكاريهما بطرس الثقيل بواسطة امين الذي عاد على بغله الى
الحدث . وحين عودتهما من الارز بمثلين صحة وقوة كان سليم
يقول لكلیم كلما مرّا بالاديرة : اما اقتنعت الآن بعد ما رأينا

من تقلبات حوادث الحياة وقصصها المضحكة والمبكية انه خير
للانسان الذي يريد الراحة ان يعيش منفرداً عن العالم في دير
او في نفق ؟

فيتنهد كلیم ويقول : ليس الانفراد عن الناس هو الذي
يريح الانسان ، فان مخلوف منفرد الآن عنهم في دير ولكنه
تعيس جداً ، فراحة الانسان وسعادته في داخله اي في نفسه ،
فلا يبحث عنهما خارجاً عنها ، والنفوس القوية العادلة المستقيمة
تقدر ان تكون مستريحة سعيدة حتى في وسط تقلبات الحياة .



فرح انطون

٢	.	.	.	.	فرح انطون
٩	.	.	.	.	الكاتب الشرقي وحاجاته الجديدة
٢٤	.	.	.	.	انشاء الروايات العربية
٣٧	.	.	.	.	الروايات وانفعها لنا
٥١	.	.	.	.	بين الفصحى والعامية
٥٦	.	.	.	.	اللغة العربية الجديدة
٦٥	.	.	.	.	اساتذة المدارس وتلامذتها في اوقات العطلة الصيفية
٧٤	.	.	.	.	الشبان وخطرهم وما يجب لهم
٨٢	.	.	.	.	تربية المرأة : يكون الرجال كما يريد النساء
٩٣	.	.	.	.	تربية البنات : اذا اردتم اصلاح الهيئة الاجتماعية فاصحوا النساء
١٠٤	.	.	.	.	عمر الحيام
١١٥	.	.	.	.	ابن رشد وفلسفته
١٥٢	.	.	.	.	الفيلسوف باكون والشاعر شكسبير
١٨٤	.	.	.	.	سوريا حلقة التمدن
١٩١	.	.	.	.	اسكندر الكبير في لبنان وفلسطين
١٩٨	.	.	.	.	عبادة الانسان النبات
٢١٦	.	.	.	.	خطبة لدى شلال نياغرا
٢٣١	.	.	.	.	مريم وشيخرون
٢٤٥	.	.	.	.	الوحش ! الوحش ! الوحش ! او سياحة في ارض لبنان



574 R 1950
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY



A29358

A29358